يصدرها
حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية



مأساة الصراع بين الشرف والمال!

القلعة

دكتور "أ. ج. كرونين"

الجزء الثالث والأخير

دكتور "أ. ج. كرونين"

القلعة!

الجزء الثالث



THE CITADEL

BY

DR. A. J. CRONIN

الثمن ١٠ قروش

روعى فى ترقيم صفحات هــذا العدد ، أن يستطرد الترقيم من حيث انتهى فى العدد الثانى .. فقد وقفت القصة فى ذلك العدد عند صفحة ٣٤٤ ، وهى تستأنف هنا فى صفحة ٣٤٥ ، وذلك حتى يتسنى ضم الاجزاء بعضها الى بعض ، اذا أريد تجليد القصة بأكملهــا فى مجلد واحد .. وكل ماعليك هو أن تنزع الورقة الاخيرة من الجزء الثــانى ، والاربع ورقات الاولى من هــذا الجزء ..

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

الكتاب السابع والاربعون

القلعـة !

(الجزء الثالث)

ترجمة : أنطون العبيدى

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر حتى الآن ثلاثة وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد ، فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وأربعون كتاب ، يضاف اليهـا كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

الاشتراكات

◆ تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :

ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

◆ الاشتراكات عن ١٢ عددا من أى من المجموعتين :

فى مصر والسودان ١٢٠ قرشا . وفى العراق وسـوريا ولبنان والأردن والمملكة السعودية : ما يوازى ١٤٠ قرشا . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وتركيا ودول أوربا والامريكيتين : ١٦٠ قرشا ، خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسـل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

◆ ترسـل قيمة الاعداد والاشـتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سـعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

ملخص ما نشر فى الجزءين الاول والثانى

• **حصل** « أندرو مانسون » - عندما اتم دراسة الطب - على منصب مساعد لطبيب اقعده المرض عن العمل ، فى بلده (بلينيللى) التى كانت من مراكز التعدين فى احد وديان (ساوث ويلز) المنعزلة بانجلترا .. **وسرعان ما تبين الطبيب الشاب أن ثمة فارقا بعيدا بين رسالة الطب الانسانية ومهنة الطب كما تمارس عمليا** .. وهاله ان اكتشف ان الاطباء - فى البلدة الصغيرة - اتخذوا مهنتهم النبيلة تجارة ، وجروا فيها على « روتين » جامد ، لا اجتهاد فيه .. ولم يسر عنه اساه سوى «دينى» - وهو زميل شاب سبقه الى المهنة ، وكان يعمل مساعدا لطبيب آخر ، وقد اوشك اليأس ان يتملكه من الاوضاع السائدة - كما خففت عنه الضيق معلمة شابة فى مدرسة للأطفال ، تدعى « كريستين بارلو » .

ولكن احتمال « اندرو » بلغ اقصاه حين تبين أن « بلودوين بيدج » - زوجة رئيسه الطبيب المريض - كانت تستغل جهوده ، وتستأثر بأكبر قدر من دخل العيادة والمستوصف .. الى أن اتهمته بأنه كان يسرق رزق زوجها القعيد ، لمجرد انه تقبل هدية مالية من عميل كادت زوجته تفقد حياتها - وهى تضع المولود الذي كانا يتلهفان شوقا الى انجابه - فأنقذ « اندرو » بتفانيه حياة الزوجة والوليد .

وثار من أجل كرامته ، فاستقال من منصبه .. ولم يكن يملك شيئا ، فقد كان فقيرا ، وكان مدينا لاحدى المؤسسات الخيرية بنفقات تعليمه ، فكان يقتطع من مرتبه - فى كل شهر - جزءا يسد به بعض هذه النفقات . وأخذ يتتبع اعلانات المجلة الطبية بحثا عن منصب .. وارسل طلبات عديدة ، ولكنه لم يكن يتلقى ردا .. وعندما اوشك اليأس ان يستبد به ، اطلعه صديقه « دينى » على ان جمعية الإسعاف الطبي في (ابيرالو) - وهي من مراكز مناجم الفحم

ـ كانت بحاجة الى طبيب مساعد ، فأسرع يتقدم لهذا المنصب ، واستطاع ان يفوز به على من كانوا يستندون الى الوساطات والمحسوبية ..

وكان من الشروط الجوهرية لمن يشغل هذا المنصب ان يكون متزوجا .. وبادر « أندرو » الى « كريستين » يطلب يدها ، وسرعان ما تزوجا .. **وفى اليوم الذى عقد زفافهما فى صبيحته ، رحلا الى (ابيرالو) ، وتسلم « أندرو » المنصب الجديد**

وكم صدم « أندرو » فى مثله العليا ، عندما تبين ان كبير أطباء الجمعية ـ « الدكتور ليولين » ـ كان يشغل حوالى خمسة مناصب فى آن واحد ، وكان يتقاضى من مساعديه خمس دخلهم ، ضريبة استحلها لنفسه بزعم انه كان يعنى بمرضاهم .. وزاد من أساه ان بقية زملائه كانوا يمنحون « الشهادات المرضية » جزافا للعمال الذين كانوا يريدون التحايل للحصول على اجازات او على مبالغ تعويضية من ادارة المناجم .. بل ان الاطباء كانوا يجعلون من أنفسهم مطايا لاعضاء مجلس ادارة الجمعية من العمال ..

وآلى « أندرو » على نفسه ان يعالج هذه الاوضاع ، فأخذ العمال ينفضون عنه ، وبدأت سماء حياته تكفهر بغيوم المتاعب .. لكنه فوجىء ذات يوم بسكرتير نقابة العمال يعود لينخرط فى سلك مرضاه ، بعد أن وثق من براعته فى العلاج على اثر حادث اصيب فيه عامل يدعى « توم ايفانز » ، فوصف له أندرو علاجا معينا لكنه رفض استعماله واتبع علاجا اوصت به ممرضة جاهلة ، فالتوى مرفقه ولم يعد يستطيع استخدامه ، الامر الذى افقده عمله فى المناجم ، كما حرم من أى تعويض نظرا لانه اصيب وهو فى بيته !

وذاع فى البلدة نبأ عودة سكرتير النقابة الى سلك مرضى اندرو ، فساعد ذلك على الحد من اعراض الجمهور عن الطبيب الجديد ، **وارتفعت « اسهمه » فى مجتمع البلدة .. فصار**

يدعى وزوجته الى بيوت الاغنياء والبارزين .

وانقضى الشتاء .. وانهمك اندرو فى بحث طبى تحمس له ، هو فحص أثر غبار المناجم والمحاجر على رئات العمال ، وتسببه فى اصابة نسبة كبيرة منهم بالسل الرئوى . وذات يوم اقبل لزيارته فى بيته زميله القديم الدكتور « دينى » ، فعلم منه بنبأ وفاة الدكتور « بيدج » رئيس اندرو القديم فى (بلينيللى) ، وقرب زواج أرملته « بلودوين » من صديق لها . **وذات يوم تعرف أندرو بطبيب أسنان يدعى « كون بولاند » ، فأعجب بشخصيته .. وتلاقت افكارهما عند الرغبة فى التمرد على « الاتاوة » التى يفرضها الدكتور « ليولين » على أطباء البلدة .** وبالفعل قاما بدعوة زملائهما الى اجتماع لتنظيم التمرد . ولكن بقية الاطباء جبنوا عن تنفيذ الخطة ، وآثروا السلامة !

واحنقت الهزيمة اندرو ، وراح يفكر فى الاسباب التى مكنت « ليولين » من السيطرة عليهم واستغلالهم ، فانتهى الى انه لا يمتاز عليهم الا بدبلوم التخصص الذى يحمله .. وتطرق تفكير أندرو فى ذلك الى اعتزام الحصول على لقب « زميل » فى كلية الطب الملكية ، رغم ما يتطلبه ذلك من دراسة طويلة مرهقة ، فضلا عن وجوب التمهيد لها بدراسة اللغات اللاتينية والفرنسية واليونانية والالمانية !

وبعد شهور من لاعتكاف والجهد الشاق ، سافر أندرو الى لندن ليؤدى الامتحان ، ثم عاد ظافرا باللقب المرموق . وبمجرد عودته استدعى لاجراء جراحة عاجلة لعامل انهار عليه سقف المنجم ، فأنقذه اندرو ببتر ذرعه ، بعد مجهود كبير . وعلى أثر ذلك ارتفع قدره فى البلدة كطبيب بارع ، وتقاطر عليه المرضى وعمال المناجم .

وأسرت اليه كريستين ذات يوم انها حامل ، ولكن فرحتهما بالامر لم تطل ، اذ لم تلبث الزوجة ان فقدت الجنين على اثر سقوطها وهى تعبر قنطرة متداعية بالبلدة ! .. ولم يخفف

من ألم الصدمة فى نفس أندرو غير أنشغاله بأبحاثه الخاصة بأثر الغبار فى اصابة العمال بالسل . وكان يجرى تجاربه على مجموعة من الفيران اقتناها فى معمله لهذا الغرض . لكن أعداءه وحاسديه الذين احنقهم نجاحه البوا الادهان ضده حتى افلحوا فى تقديمه الى محاكمة تأديبية ، بتهمة « تعذيب الحيوانات » ! .. وفى تلك الاثناء جاء النبأ بمنحه درجة « الدكتوراه » فى الطب على رسالته الخاصة بأبحاث السل الناشىء عن الغبار ، وانتهت « المحاكمة » بالفشل ، لكنه رأى استحالة بقائه فى البلدة فى جو مشحون بالبغضاء .. فقدم استقالته من منصبه ، وسافر مع زوجه الى فرنسا للاستمتاع بأول « اجازة » حقيقية لهما .. ثم عادا الى لندن حيث عين فى منصب بمصانع الفحم والتعدين ، **لكن «الروتين» الفاسد و «غيرة» كبار الاطباء جعلتهم يضعونه «على الرف» ، فى عمل لا صلة له بمؤهلاته .. فقدم استقالته !**

ولم يجد مفرا من افتتاح عيادة — فى شارع « تشيسبورو تيراس » — يمارس فيها مهنته لحسابه الخاص .. لكنه صادف كسادا يثبط الهمة ، حتى التقى بزميله القديم الوصولى « فريدى هامبتون » ، الذى عرفه باثنين آخرين من « عصبته » هما : « ايفورى » و « فريدمان » ، **وكان ثلاثتهم يحتالون على نساء الطبقة الراقية فيعالجونهن من أمراضهن الوهمية او التافهة ، مقابل مبالغ خيالية من المال !** وذات يوم أرسلت اليه «مسز سميث» — صاحبة محل البدالة المجاور — مريضة كانت تعمل بمحل « لوريه » للازياء ، فشفاها من مرض حار فيه الاطباء ، فكان ذلك بدء صعود نجمه ، اذ ساق الى عيادته بقية عاملات المتجر وزائراته من سيدات الطبقة المترفة . وكم صدم اندرو حين نصحته عجوز منهن ذات يوم بأن يذهب الى حائك مشهور للثياب ، فانه لن يبلغ النجاح الذى يرجوه طالما كان زرى الهيئة !

والآن تستطيع أن تواصل قراءة القصة :

— ٥ —

• كان أندرو مزهوًا كالتلميذ ، حينما هبط بعد خمسة عشر يوما مرتديا احدى بذلتيه الجديدتين .. كانت بذلة رمادية ، لسترتها صفان من الازرار ، وقد لبس معها — وفقا لنصح روجرز — قميصا ذا ياقة مائلة ، وربطة عنق عريضة تنسجم مع اللون الرمادى .. ولم يكن ثمة شك فى أن هذا الحائك يعرف مهنته تماما ، وقد أوصاه الكابتن ستون بأندرو ، فكانت هذه التوصية كافية لان يبدع فى صنعة البذلتين .

واتفق أن كانت كريستين متوعكة — فى ذلك الصباح — اذ كانت تشكو من الم فى الحنجرة ، وقد لفت رقبتها ورأسها بغلالة قديمة . فتملكتها الدهشة فجأة ، وهى تصب القهوة لزوجها ، وبدا عليها الاعجاب حينما رأته فى لباسه الفاتن ، حتى لقد انقضت لحظة قبل أن تقوى على أن تقول له : « أوه ! يا اندرو ، ما اجملك ! .. اذاهب انت الى مكان ما ؟ » . فأجاب : « الى مكان ما ؟! .. اننى ذاهب طبعا الى عيادتى ، والى الزيارات التى تقتضيها مهنتى ! » . ثم اردف مستنكرا : « أهذا يروقك ؟ » . **فقالت غير متعجلة ، بالقدر الذى كان كفيلا بأن يهدىء من روعه : « أجل ، ان هذه البذلة بديعة للغاية ! » . ثم ضحكت واردفت : « ولكنى لا أدرى لماذا تبدو لى فيها وكأنك لم تعد أنت ! »**

— لا شك فى انك تفضلين ان ابدو دائما فى هيئة صعلوك

ولم تعقب بشىء .. وفجأة ، تقلصت يدها وهى تتناول قدحها ، الى حد أن ابيضت مفاصلها . فقال فى نفسه : « آه ! .. لقد ألزمتها حدودها ! » .. وأتم افطاره ، ودلف الى مكتبه .. وان هى الا خمس دقائق ، حتى لحقت به فى المكتب — ورقبتها ملفوفة — وقالت فى رجاء يخالجه استحياء:

« لا تسيء فهم ما قلت يا حبيبى .. لكم انا سعيدة اذ أراك فى هذه البذلة الجديدة الجميلة .. اننى لاتمنى أن يكون لك كل شيء .. ان يكون لك كل ما هو حسن !.. اننى آسفة لما قلت منذ لحظة ، فأنت تدرك اننى قد عرفتك دائما — وارجو أن لا تسيء فهمى — شخصا لا يكترث اطلاقا بمظهره المادى ، ولا بما يقوله الناس عن مظهره .. أتذكر رأس « ايبستين » ، الذى رأيناه معا ؟.. أنه ما كان ليبدو لنا بالشكل الذى اعجبنا به ، او انه نمق وصقل ! » . فأجاب فى خشونة : « ولكننى لست رأس ايبستين ! » ..

ولم تحر كريستين جوابا، فقد أصبح أندرو — منذ فترة — صعبا ، يتعذر التفاهم معه .. ولقد ساءها هذا الخلاف ، ولكنها لم تدر ماذا تقول ، فانصرفت وفى نفسها غصة !

وبعد ثلاثة أسابيع كوفىء أندرو على اتباعه مشورة مريضته — الآنسة ايفيريت — اذ أقبلت ابنة أخيها لتقيم بعض الوقت فى لندن ، فاستدعته مس ايفيريت بذريعة ما الى (بارك جاردنز)، حيث فحصته بصرامة ، وان بدا عليها الارتياح . وأحس بأنها تستقبله وكأنه مرشح تريد أن تزكيه ! .. ولم يلبث ان تلقى — فى اليوم التالى — دعوة من مسز ستون ، (فالظاهر أن ذلك المرض الذى عالج عمتها منه — زكام الصيف — كان قد انتشر فى الاسرة !) . ولم يتحرج هذه المرة من حقن المريضة بالدواء عديم الجدوى ، الذى ينتجه بيت « جليكيرت » الشهير . وكان لمنظر أندرو وقع حسن للغاية فى نفس مسز ستون وقبل أن ينقضى شهر ، استدعى الى دار احدى صديقات مس ايفيريت ، وكانت هى الاخرى تقيم فى مسكن فى (بارك جاردنز).

وأصبح مغتبطا بنفسه كل الاغتباط ، اذ راح يتقدم .. كان يمضى قدما نحو النصر ، وكانت جهوده المضنية فى سبيل النجاح تنسيه مدى تعارض هذا النجاح مع كل ما كان يؤمن به من قبل !.. فلقد أثار التوفيق غروره ، فأصبح يقظا ،

نشيطا ، تملأ الثقة جوانحه . ولم يجل بخاطره أن نقطة الانطلاق فى اقبال هؤلاء المرضى الدنيويين عليه ، انما كانت تلك الالمانية البدينة القابعة فى حانوت البدالة ، بقرب السوق الشعبى فى (موسلبيرج) . والواقع ان سيل هذه الطائفة من المرضى كان قد انقطع — قبل أن يفكر هو فى الامر — وانفتح أمامه أفق آخر أوسع واروع .

***

وبينما كان فى مكتبه ذات أصيل من شهر يونيو ، فيما بين الثانية والرابعة — وهى الفترة التى لايحدث فيها عادة شىء ذو بال — أخذ يكتب قائمة دخله ، واذا جرس التليفون يرن فجأة ، فرفع السماعة فى ثلاث ثوان ، وقال : « نعم ، نعم ، أنا الدكتور مانسون ! » . ووأتاه صوت يلهث جزعا : « آه ! **يا دكتور ، لكم أنا سعيد اذ أجدك فى دارك .. مستر « وينش » هو الذى يكلمك .. مستر وينش من بيت لوربيه للأزياء . لقد وقع حادث بسيط لاحدى عميلاتنا ، فهل يمكنك الحضور .. الحضور فورا ؟ .. »**

فأجاب : « سأكون عندكم بعد أربع دقائق ! »

وأعاد المسماع الى مكانه ، وأسرع بتناول قبعته . وما أن بلغ الشارع ، حتى قفز الى حافلة كانت مارة فى تلك اللحظة . وبعد أربع دقائق ونصف ، كان يعبر الباب الدوار ، فى « لوربيه » . واستقبلته مس « كرامب » قلقة أشد القلق ، وسارت به فى ردهة مفروشة بالابسطة الخضراء ، تحف بها مرايا وزخارف ورسوم وأشكال بارزة فى اطارات مذهبة . وكانت تسرع الخطى ، وهى تشرح الامر فى جد واهتمام : « انها مس لى روى يا دكتور مانسون .. احدى عميلاتنا . واحمد الله انها ليست عميلتى . فهى مصدر متاعب دائما . وانت تدرك يا دكتور اننى تحدثت الى مستر وينش عنك .. » . فقاطعها

فى لهجة تمنعها من الاسترسال : « شكرا لك » .. فقد كان يعرف كيف يباغت عند الاقتضاء . ثم سألها : « وماذا حدث ؟ »
— يبدو يا دكتور .. يبدو أن أزمة انتابتها وهى فى « صالون البروفات »

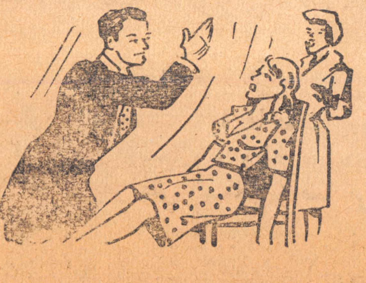
وبلغا قمة السلم العريض ، فتركت مس كرامب الطبيب لمستر وينش الذى كان الاضطراب باديا على سحنته الوردية ، والذى غمغم له : « تفضل من هنا يا دكتور .. من هنا . آمل أن يكون فى استطاعتك عمل شيء ما ... انه لحادث تعس للغاية ! » .. وفى « صالون البروفات » — الدافىء المفروش بالابسطة الفاخرة الخضراء ، والذى ازدانت جدرانه بالاطارات المذهبة — وجدا جمعا من النساء يولولن منتحبات ، ومقعدا مقلوبا ، ومنشفة على الارض ، وقدح ماء مسكوب ، وأمارات الفوضى والهرج .. **وفى وسط العويل والاضطراب ، كانت مس « لى روى » — ضحية الازمة — منطرحة على الارض ، وقد تقلصت يداها فى تشنج ، وتصلبت قدماها .. وكانت تصعد من حنجرتها المتقلصة ما يشبه النعيق ، بين آن وآخر .**

واذ دخل اندرو ووينش ، انفجرت امرأة مسنة — من العاملات المتجمعات هناك — فى البكاء ، وقالت وهى تنتحب : « لا ذنب لى .. اننى لم افعل أكثر من ان قلت لمس « لى روى » ان الثوب صنع وفقا للنموذج الذى وقع عليه اختيارها » . فغمغم مستر وينش : « يا الهى ، يا الهى .. ما اشنع هذا ! .. هل أطلب الاسعاف بالتليفون ؟ » .. فقال أندرو فى لهجة غريبة : « لا .. ليس الآن ! » . ثم إنحنى على المريضة الفاقدة الوعى .. كانت فى مقتبل العمر — فى نحو الرابعة والعشرين — ذات عينين زرقاوين ، وشعر فى نعومة الحرير ، مصبوغ ، وقد تناثر تحت قبعة صغيرة منحرفة . وكان تصلب أطرافها واختلاجاتها التشنجية تتزايد ..

وبجوارها فى الجانب الآخر ، كانت ثمة امرأة ذات عينين سوداوين ، جاثية على ركبتيها ، بادية القلق ، ولا شك فى أنها كانت احدى صديقاتها .. وكانت تغمغم بلا انقطاع : « اواه!.. توبى ، توبى ! » **وقال أندرو بغتة : « اخرجوا من هذه الغرفة ، أرجوكم . أريد أن يخرج الجميع ما عدا .. » ، وصوب نظره الى المرأة الشابة الشقراء : « ما عدا هذه السيدة ! »** .

وانصرفت العاملات على مضض ، فقد كان فى مشاهدة تشنج العميلة لون من التسلية .. وما ان خلت الغرفة – الا من أندرو والسيدة الصديقة – حتى تفاقمت حالة المريضة بشكل مرعب ، فقال أندرو بصوت واضح جلى : « انها لحالة جد خطيرة ! » . ودارت مقلتا مس لى روى فى محجريهما نحوه ، بينما استطرد قائلا : « اعطينى مقعدا من فضلك ؟ » . فأحضرت الصديقة المقعد المقلوب ، ووضعته وسط الصالون . ورفع أندرو المريضة من ابطيها فى رفق شديد ، وساعدها على الجلوس وجعلها ترفع رأسها المائل .. ثم قال فى عطف ضاف : « آه ، هكذا ! »

وفجأة ، صفعها براحة يده على خدها صفعة مدوية . وكان هذا أجرأ عمل أقدم عليه منذ شهور عديدة ، وقد ظل كذلك أجرا ما اقدم عليه لعدة اشهر مقبلة ، للاسف !



وكفت مس « لى روى » عن النعيق ، وهدأت الاختلاجات ، ولم تعد مقلتاها تدوران في محجريهما .. واخذت تتأمله في دهشة واجمة ، كما لو كانت طفلة .. وقبل أن تعود الى تأمله مرة أخرى ، صفعها بنفس القوة على خدها الآخر . فاذا الوجوم الذى ارتسم على وجه الفتاة يدعو الى الضحك . ثم ارتعشت وبدا كأنها توشك أن تطلق من جديد صيحات مختنقة . وأخذت تبكى هونا ، ثم قالت لصديقتها والدموع تترقرق فى عينيها : « أريد العودة الى البيت يا عزيزتى » . فنظر أندرو الى المرأة الشابة الشقراء ، وكأنه يعتذر ، بينما راحت تتأمله فى خليط من استياء واهتمام غريب . وغمغم : « اننى اعتذر .. لم تكن هناك وسيلة أخرى . انها أزمة عصبية خطيرة .. اختلاجات تشنجية فى الأطراف ، وكان من المحتمل أن تؤذى نفسها ، وليس عندى مخدر أو أى شىء !.. وعلى أية حال ، فقد أدى ما فعلت الى النتيجة المرجوة ! »

— أجل ، كانت النتيجة باهرة .

— دعيها تتخفف بالبكاء ، فهو صمام أمان جيد . وستعود الى حالتها الطبيعية بعد بضع دقائق .

— ومع هذا ، انتظر .. يجب أن تصحبها الى دارها !

فقال فى لهجة الطبيب : « فليكن ! » .. واستطاعت « تربى لى روى » ان تصلح من مظهر وجهها بعد خمس دقائق ، بعد جهد تخللته بعض تنهدات متباعدة . ثم سألت صديقتها : « احسبنى لست بالغة القبح يا عزيزتى ؟ » .. ولم تعر اندرو أى انتباه !

***

وبرحوا « صالون البروفات » ، فأحدث عبورهم صالة العرض الطويلة تيارا من الانفعال . وبلغ من دهشة مستر وينش وارتياحه انه لم يقو على الكلام ، فما عرف ، ولا كان

بوسعه أن يعرف ، كيف أصبحت السيدة التى تصلبت أطرافها ، قادرة على المشى ! وتبعهم ، وهو يتمتم بعبارات التبجيل والاحترام ، حتى اذا عبر أندرو الباب الكبير ـ خلف المرأتين ـ مد اليه منفعلا يدا رطبة .. وسرعان ما انطلقت السيارة بهم ومعهم اندرو عبر شارع (بايز ووتر) ، فى اتجاه (ماربل آرش) .

ولم يحاولوا مجرد الكلام . فقد كانت مس « لى روى » حانقة ، كطفل مدلل تعرض للعقاب .. وظلت مضطربة ، يختلج وجهها ويداها ـ الفينة بعد الفينة ـ دون ما ارادة منها .. **واذ أصبحت قريبة من حالتها الطبيعية ، تبين أندرو أنها كانت جميلة رغم نحولها .. وكانت رائعة الهندام ، ومع هذا فانها كانت تبدو أشبه بعصفور تسرى فى جسده تيارات كهربائية متعاقبة !..** وكان ـ هو الآخر ـ متوتر الاعصاب ، يدرك تماما حرج موقفه ، ولكنه صمم على أن يفيد من هذا الموقف قدر المستطاع .

ودارت العربة حول (ماربل آرش) ، وسارت بمحاذاة (هايد بارك) ، ثم عرجت الى اليسار ، ووقفت أمام دار فى (جرين ستريت) ، دخلوها على الفور . وبهر أثاثها أندرو ، فما تصور يوما كل هذا البذخ : ردهة كبيرة تزينها زخارف خشبية ثمينة ، وصالون صغير حافل بالنقوش الاخاذة ، تزينه لوحة زيتية غريبة فى اطار من خشب نادر ، ومقاعد مطلية باللاكيه الذهبى المائل الى الحمرة ، وأرائك عريضة ، وأبسطة قديمة الطراز ، خفيفة الالوان .. وتهالكت « توبى لى روى » فوق أريكة عليها وسائد من « الساتان » ، وهى لا تزال غير حافلة بوجود أندرو ، ثم خلعت قبعتها الصغيرة وألقت بها على الارض ، وقالت لصديقتها : « اضغطى زر الجرس يا عزيزتى ، ليحضر الخادم شيئا من الشراب لى . شكرا لله أن عادت الى داري ! »

وبعد هنيهة ، جاء خادم يحمل أقداح الكوكتيل ، فما ان برح الصالون ، حتى نظرت صديقة توبى الى أندرو بادية التفكير ، وقد علت شفتيها شبه ابتسامة : « أحسب يادكتور أنه يجب أن نشرح لك ماحدث . لقد تعاقبت الامور فى سرعة مذهلة . اننى ادعى مسز « لورنس » ، وقد غضبت صديقتى « توبى » — مس لى روى — خطأ فى صدر ثوب أوصت بصنعه خصيصا لحفلة الرقص الخيرية للفنون و .. يا الهى ، لقد أرهقت نفسها كثيرا فى الايام الاخيرة ، فهى جد عصبية ! .. **وقصارى القول ، اننا جد شاكرتين لك ان رافقتنا الى هنا ، برغم ان توبى حانقة عليك ! .. وسآخذ قدحا ثانيا من الكوكتيل تعبيرا عن ذلك ! »**

وقالت توبى فى اكتئاب : « وأنا الاخرى ! .. يا لتلك المرأة اللعينة فى متجر « لوربيه » ! .. سأقول لابى كى يتصل تليفونيا بالمحل لفصلها .. ولكن ، لا ، لن أفعل هذا ! » .. وأشرق وجهها شيئا فشيئا ، وهى ترتشف قدحها الثانية ، واستطردت : « لقد سببت لهم فزعا ، على أية حال ، أليس كذلك يا فرانسيس ؟ .. لقد فقدت زمام أعصابى . وكان موقف « ماما » ووينش العجوز غاية فى الطرافة ! » .. وراح جسمها النحيل يهتز من الضحك . ونظرت الى عينى أندرو ، فى غير ما ضغينة ، وهتفت : « اضحك يا دكتور ، فان الحادث كان مضحكا للغاية ! »

وقال أندرو : « لست أرى أن الامر كان مضحكا الى هذا الحد ! » .. وكانت الكلمات تتراثب من فمه ، وهو تواق الى أن يشرح المسألة ، ويبين موقفه ، ويقنعها بأنها كانت مريضة : « لقد أصابتك نوبة تشنجية شديدة . ويؤسفنى أن اضطررت الى سلوك ذلك المسلك معك .. لو كنت أحمل مخدرا لخدرتك ، فهذا أهون مضايقة لك .. وأرجو أن لا تتصورى اننى أظن انك تشنجت عمدا ، **فان للهستيريا — وهذه فى الواقع حالتك**

– أعراضا محددة ، ولا ينبغي معالجتها باستهتار ، لانهـا حالة تنتاب الجهاز العصبي .. أترين يا أنسة ؟ .. انك مرهقـة غاية الارهاق ، وجميع أعصابك متوترة أشد التوتر ! »

فقالت فرانسيس لورنس موافقة : « هذا صحيح تماما . انك يا توبى تحملين نفسك فوق ما تطيق ، منذ زمن ! » . وتساءلت توبى فى عجب الطفلة الصغيرة : « أكنت ستخدرننى بالكلوروفورم حقا ؟ .. كان هذا أدعى للطرافة ! » . فقالت مسزلورانس: «ولكنى – فى الحق – ارجو ان تتزنى ياتوبى !» . فقالت الفتاة وقد ولى اشراقها : « لكأننى اسمع بابا ! »

وساد الصمت فترة ، فرغ أندرو خلالها من شرب كوكتيله، فوضع الكأس فوق حافة المدفأة المصنوعة من خشب الصنوبر الموشى بنقوش محفورة .. ولم يكن فى وسـعه أن يفعل غير هذا . ثم قال فى رصانة : « آن لى ان أنصرف الى عملى . اصغى الى نصحى يا آنسة ، أرجوك ! .. تناولى فى العشاء طعاما خفيفا ، والزمى فراشك . وبما أنه لم يعد لدى ما أفعله لك ، فاستدعى طبيبك غدا ! .. الى اللقاء ! » . وصحبتـه مسـز لورنس الى الردهة فى خطى جـد وئيـدة ، حتى انه اضطر الى أن يخفف من سرعة خطاه .. **وكانت طويلة القامة، نحيلة ، عالية الكتفين شيئا ما ، ذات رأس صغير رشيق ، وقد تخللت شعرها المموج – على نمط رائع – بضع خصلات سنجابية ، اضفت عليها رواء ملحوظا** . ومع ذلك ، فقد كانت صغيرة السن ، لم تتجاوز السابعة والعشرين ، كمـا اتضـح لاندرو بما لا مجال للشك فيه .. ومدت اليه يدها وهى تتفرس فيه بعينيها اللتين كانتا فى لون البندق الاخضر، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة هادئة . ثم قالت : **« انما أحب ان اعبر لك عن اعجابى بطريقتك المبتكرة فى العلاج ، فلا تعدل عنها لاى سبب من الاسباب ، اذ أننى اتنبأ بأنها ستجلب لك نجاحا باهرا ! »**

وأدهشه – وهو يسير فى (جرين ستريت) ليستقل الحافلة – ان تبين أن الساعة كانت قريبة من الخامسة ، وقد أنفق ثلاث ساعات مع هاتين الرأتين . وكان من حقه أن يطلب أتعابا مناسبة ، غير أنه أحس بارتباك وعدم ارتياح ، برغم ذلك الرأى الذى قيل فى « طريقته المبتكرة » ! .. وراح يسائل نفسه : ترى هل أفاد حقا – الى أقصى حد ممكن – من هذه الفرصة التى سنحت له ؟ .. لقد بدا أنه راق لناظرى مسز لورنس ، ولكن هل من الممكن أن يعرف المرء طوية أشخاص من هذا النوع ؟ .. وتلك الدار ، ما كان أبدعها !

وعبس فجأة ، وهو ساخط على نفسه ، فهو لم يسه عن ترك بطاقته فحسب ، بل فاته أيضا ان يذكر لهما اسمه .. وراح يلوم نفسه – وهو جالس فى الحافلة المزدحمة بالركاب ، بجانب عامل مسن فى لباس قذر – اذ أضاع فرصة ثمينة كهذه !

— ٦ —

• فى الحادية عشرة والربع من صباح اليوم التالى ، رن جرس التليفون بينما كان اندرو يهم بالخروج لاداء عيادات زهيدة الاتعاب ، حول سوق (موسلبيرج) . وواتاه – خلال المسماع – صوت خادم يسأله فى أدب جم ، واحترام كثير : « السيد الدكتور مانسون ؟ .. آه ! ان مس لى روى تود أن تعرف فى أى وقت سيأتى السيد الدكتور ليعودها اليوم .. آه ، عفوا يا سيدى ، استبق المسماع ، فستكلمك مسز لورنس بنفسها ! » .. **واستمع أندرو – فى انفعال شديد – الى مسز لورنس تتحدث اليه فى تلطف ، لتقول له انهما فى انتظاره ، وأنه لابد من حضوره** .. وقال فى نفسه مغتبطا – وهو يعيد المسماع – انه لم يضيع بالامس اذن الفرصة الثمينة ! .. وعدل عن عياداته الاخرى جميعا – العاجلة منها

وغير العاجلة ـ ليذهب مباشرة الى (جرين ستريت) . وهناك، رأى ـ للمرة الاولى ـ مستر جوزيف لى روى ينتظره نافد الصبر ، فى البهو الحافل بصنوف النقوش وازخارف المذهبة .

وكان رجلا بدينا ، اصلع ، ممتلىء الخدين ، غير متكلف ولا متعجرف . . تنم طريقته فى اجتذاب الانفاس من سيجاره ، على أنه ليس ممن يجدون من الوقت فسحة يضيعونها ، واستطاع بنظرة واحدة ان يفحص شخصية اندرو ، وكأنه أجرى له جراحة سريعة ، انتهت الى ارتياحه التام ، فلم يلبث أن تكلم بصوت جهورى ، بلكنة أهل المستعمرات : « اصغ الى يا دكتور ، فأنا فى عجلة من أمرى . . لقد عانت مسز لورنس هذا الصباح مشقة كبرى فى البحث عنك . . ولقد قيل لى انك شاب موهوب ، وانك لا تسف ولا تحب الترهات . . أنت متزوج ، أليس كذلك ؟ هذا حسن ! . . **اذن فتول شأن ابنتى ، وأعد لها صفاء حياتها ، وقوها ، وخلصها من هذه النوبات العصبية اللعينة . افعل كل ما يلزم ، ففى وسعى أن أنفق بسخاء . . الى اللقاء ! »**

كان الرجل من أبناء نيوزيلندا . . وبرغم ثرائه ، وأناقة داره فى (جرين ستريت) ، وغرابة أطوار ابنته « توبى » المدللة ، فانه لم يكن من العسير على المرء أن يصدق أن جده الاكبر كان عاملا أميا صغيرا ، فى المزارع المحيطة بميناء (جرايموث) . . وكان هذا الجد يدعى « ميتشل كليرى » ، فاعتاد شركاؤه فى البؤس ان ينادوه ـ فى غير كلفة ـ باسم « ليرى » . . وهكذا بدأ حفيده « جوزيف لى روى » حياته باسم « جو ليرى » ، كغلام يمتهن حلب الابقار فى مزارع (جرايموث) الكبرى . بيد انه كان قد خلق لحلب ما هو خير من الابقار ، كما اعتاد أن يعبر بأسلوبه . . وكان هو عين « جوزيف لى روى » الذى وقع بعد ثلاثين عاما من ذلك

الحين ـ وفى أعلى طابق من أول ناطحة سحاب فى (اوكلاند) ـ الوثيقة التى ضمت مزارع انتاج اللبن فى الجزيرة فى اتحـاد ضخم لصناعة اللبن المجفف .. وكان هذا مشروعا سحريا ، أطلق عليه اسم : « اتحاد كريموجين » .. فان اللبن المجفف لم يكن معروفا فى ذلك الحين ، ولم تكن تجارته منظمة . وكان « لى روى » هو الذى فطن الى ما لتنظيم انتاج اللبن المجفف من احتمالات ، والذى قاد الحملة فى السوق العالمية ، فقام بدعاية واسعة النطاق لهذا الغذاء الذى يعتبر نعمة من الله للأطفال والمرضى . ولم تكن « زبدة » هذا المشروع فى منتجاته، بقدر ما كانت فى جرأة لى روى واقدامه . **فقد كانت فضلات اللبن المنزوع القشدة ـ فى مئات من مزارع نيوزيلندا ـ تلقى فى القنوات ، أو تعطى للخنازير ، فأصبحت تباع بثلاثة أمثال ثمن اللبن الطازج ، فى مدن العالم قاطبة ، بعد أن عبئت فى علب من الصفيح ، مغلفة بأوراق رسمت عليها صور براقة ، وقد كتب عليها : ((كريموجين)) ، و ((كريمو)) ، و ((كريميفا))**.

وكان المدير الثانى للاتحـاد الذى انشأه « لى روى » ، ومدير فروعه بانجلترا ، هو « جاك لورنس » الذى كان قبل ان يقتحم ميدان الاعمال ، ضابطا فى الحرس الملكى ، وهـذا أمر قد لا يسيغه المنطق كثيرا !.. على أن شيئا آخر ـ أكثر من المشاركة التجارية ـ قرب بين « مسز لورنس » ، زوجة الثانى ، وبين « توبى » ، ابنة الاول .. فقد كانت لفرانسيس لورنس ثروة خاصة ، وكانت تتألق فى المجتمعات الانيقـة ، أكثر مما كانت تتألق توبى ، التى كانت تشى أحيانا بأصـلها النيوزيلندى . وقد أحبت مسز لورنس هذه الصبية المدللة !

وعندما صعد أندرو الى مخدع « توبى » ، عقب حديثه مع أبيها ، وجد فرانسيس لورنس فى انتظاره .. والحق انهـا اعتادت ـ بعد ذلك ـ أن تكون الى جانب المريضة المتوترة

الاعصاب ، الصعبة المراس ، عندما أخذ يعودها فى كل يوم ، فكانت تساعده ، وتتبين أى تحسن يطرأ عليها ، وتستحثها على أن تستمر فى العلاج ، وتسأل الطبيب عن موعد زيارته القادمة .. ومع عرفان أندرو بصنيع مسز لورنس ، فان اهتمامها بأمره بعث فى نفسه شعورا غريبا محيرا ، فقد كان يعرف أن هذه السيدة الارستقراطية قد اعتادت أن تختار أصدقاءها .. بل كان يعرف — حتى قبل ان يرى صورتها فى المجلات الاسبوعية المصورة — انها كثيرة التحفظ . **لذلك فقد حيره أن تبدى نحوه ذلك الميل المتحفظ . كان فمها يتقلص استهجانا ازاء أولئك الذين لم يكونوا مقربين اليها ، ومع ذلك فانها لم تبد له اى استهجان او نفور ، لسبب ما .. !**

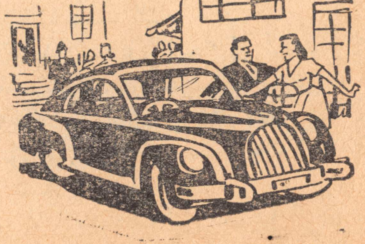
وتولته رغبة طاغية — تفوق مجرد الفضول — فى أن يعرف صميم طبيعتها .. فى أن يعرف شخصيتها ، فقد لاح له أنه لم يكن يعرف شيئا عن مسز لورنس الحقيقية . وأصبح يجد متعة فى أن يتابع تناسق حركات جسمها وهى تروح وتجىء فى الغرفة .. كانت يقظة لكل حركة تصدر عنها ، وكان ذهنها يعمل دائما خلف عينيها المتحفظتين ، رغم لطف حديثها وخلوه من الكلفة !

ولم يكد يفطن الى انها هى التى أوحت بأن يعود « توبى » يوميا .. ومع انه لم يقل شيئا لكريستين — التى ظلت تراعى فى ميزانية بيتها الاقتصاد التام ، فتحسب حساب الشلن والبنس — الا أنه بدأ يسائل نفسه فى تلهف : **كيف يتسنى لطبيب أن يجتذب عملاء من المجتمع الراقى ، دون أن تكون له سيارة أنيقة ؟ .. كان من المضحك حقا ، أن يتصور منظره وهو يصل الى (جرين ستريت) ، حاملا حقيبته الطبية ، وقد علا التراب حذاءه ! .. ترى ماذا يقول الخادم المتعالى ، حين يستقبل هذا الزائر الذى لا يملك سيارة ؟ ..** وكانت فى مؤخرة داره حظيرة للسيارات مبنية

بالطوب ، مما يوفر قيمة ايجار « الجاراج » .. كما كانت هناك متاجر تخصصت فى بيع سيارات للأطباء ، وكانت مؤسسات رائعة لا تتردد فى استيفاء الثمن على أقساط .

★★★

وان هى الا ثلاثة أسابيع ، حتى استقرت ذات يوم ـ امام المنزل رقم (٩) ، فى (تشيسبورو تيراس) ـ سيارة « كربيه » ، بنية اللون ، ذات سقف متحرك ، وذات أجزاء معدنية براقة توحى بجدتها .. وقفز منها أندرو ، فصعد السلم فى عجلة ، وهو ينادى زوجته بصوت كانت الغبطة تخنقه : « كريستين ، كريستين ، تعالى وانظرى ! » .. وكان قد دبر الامر بحيث يباغتها ويدهشها .. **ونجح تدبيره ، اذ هتفت : « يا الهى ! » . ثم ارتمت بين ذراعيه دهى تتساءل : « أهى لنا ؟ ! .. اوه ! لكم هى رائعة ! »** . فقال : « أتعجبك ؟ خذى حذرك يا عزيزتى من الطلاء ! » وابتسم لها كذى قبل تماما ، وهو يستطرد قائلا : « مفاجأة لا بأس بها ، اليس كذلك ياكريس ؟ .. لقد اشتريتها ، واستخرجت الرخصة ، وعملت كل ما يلزم ، دون ان اقول لك كلمة . انها ليست كالسيارة « الموريس » القديمة .. اصعدى يا سيدتى وسأريك .. أنها تطير كعصفور ! »



لكم كانت شديدة الاعجاب بالعربة الصغيرة ، وهو يصحبها – عارية الرأس – فى جولة حول الميدان . وعادا بعد خمس دقائق ، فظل أندرو واقفا على الافريز ، يتأمل كنزه فى نهم .. وكانت اللحظات التى يخلو فيها كل منهما الى الآخر ، ولحظات تفاهمهما وسعادتهما ، قد أصبحت من الندرة بحيث تمنت كريستين ان لا تنتهى هذه المناسبة ، فغمغمت : « لكم سيسهل عليك التجوال الآن يا حبيبى ! » . ثم مضت تقول فى تردد : « واذا امكننا الذهاب قليلا الى الريف يوم الاحد مثلا .. الى الغابات .. أوه ! لكم يكون هذا بديعا ! » . فأجاب وذهنه منصرف الى شىء آخر : « بكل تأكيد . ولكنى اشتريتها لزيارة مرضاى فى الواقع ، فليس لنا أن نتنزه بها فى كل مكان ، ونملأها وحلا ! » .. **وكان يتمثل فى ذهنه ما سيكون لهذه العربة الصغيرة من أثر عند مرضاه !**

على أن أثرها الرئيسى تجاوز كل تقديراته . فما أن انفلت من الباب الزجاجى للدار الانيقة رقم ١٧ (جرين ستريت) بعد أيام ، حتى صادف صديقه القديم فريدى هامبتون ، فقال فى حرارة : « هالو ، هامبتون ! » . ولم يتمالك رعشة غبطة هزته ، عندما نظر الى وجه زميله .. ذلك ان فريدى لم يعرفه تماما فى بادىء الامر ، فلما استيقن منه ذهل غاية الذهول ، وقال : « كيف ؟ .. هذا أنت ؟ .. ماذا تفعل هنا ؟ » . فأجاب أندرو وهو يومىء برأسه الى الدار رقم ١٧ : « كما ترى .. انى أعالج ابنة جو لى روى » .

« **جو لى روى !** » .. ونم العجب الذى أبداه هامبتون – وهو يهتف بالاسم – عن أشياء كثيرة ، فوضع مانسون يده على عربته الجديدة الانيقة ، فى تصرف المالك ، وقال : « ما وجهتك ؟ .. هل اقلك الى مكان ما ؟ » .. فتمالك فريدى جأشه بعناء .. كان نادرا ما يضطرب ، فاذا اضطرب

فلوقت قصير . والواقع أن رأيه فى مانسون ، وفكرته عن الفوائد التى يمكنه توقعها من صديقه ، تغيرا فى نصف دقيقة على نحو غير منتظر . فقال فى ابتسامة رقيقة : « اجل .. لقد كنت ذاهبــا الى شـارع (بنتينــك) ، عنــد « ايدا شيرينجتون » .. كنت ذاهبا على قدمى ، على سبيل الرياضة البدنية .. بيد أنى سأصعد معك ! »

وسادهما الصمت بعض الوقت ، وهما ينطلقان فى طريق (بوند ستريت) . كان هامبتون يفكر فى جد .. لقد استقبل مانسون فى لندن استقبالا حارا ، أملا منــه فى أن يفيد من مرضاه ، كلما حانت الفرصة لعقد « كونصلتو » لقاء ثلاثة جنيهات فى شارع (الملكة آن) . ولــكن زميله القديم قــد تغير ! .. ثم السيارة .. واسم جو لى روى – قبل كل شىء – هذا الاسم الذى كانت له دلالة دنيوية لدى فريدى ، تفوق تلك التى كانت له عند أندرو . **كل هذه المظاهر بينت لفريدى أنه كان على خطأ .. وكانت هناك أيضا القاب مانسون العلمية الرفيعة .. كل هذا كان مثيرا الى أقصى حد !** .. وتدبر فريدى المستقبل فى حذق ومهارة ، ففكر فى ارساء تفاهم مهنى بينــه وبين مانسون ، على أساس أفضل ، أو قل على أساس أجدى وأكثر نفعا .. وكان عليــه أن يعمل فى حذر ، فقــد كان مانسون سريع التأثر ، لا يدرى المرء كيف يكون موقفه من أى أمر يعرض عليه .. وما لبث أن قال له : « لماذا لا تدخل معى وترى « ايدا » ؟ .. انها امرأة يجدى التعرف بهــا ، ولو أنها تدير أسوأ مستشفى خاص فى لندن . أوه ! .. لست أدرى على أية حال .. مستشفى فى مستوى المستشفيات الاخرى .. وهو بالتأكيد اغلاها ! » . فقال مانسون : « حقا ؟ »

– تعال معى لترى مريضتى ، فهى غير مؤذية .. انهــا مسز « رايبرن » العجوز . **ونحن – ايفورى وأنا – نجرى**

عليها بعض التجارب . انت ضليع فى الرئتين ، أليس كذلك ؟ .. تعال افحصها ، فسييسرها هذا كثيرا ، وستحصل على خمسة جنيهات !

— ماذا ؟ .. أتقصد .. ؟ لكن ما بال رئتيها ؟

فقال فريدى مبتسما : « ليس الامر ذا بال ، فلا تنزعج ! .. الراجح أنها مصابة بنزلة شعبية خفيفه ، من أثر الشيخوخة . ولكنها ستغتبط برؤيتك ! .. على هذا النحو نعمل هنا ، ايفورى وفريدمان وأنا ، وينبغى ان تحذو — انت الآخر — حذونا ! لن نتكلم الآن فى هذا .. نعم ، أول دار الى اليسار .. سيدهشك أن ترى كيف تسير الامور على خير وجه ! »

★ ★ ★

وأوقف اندرو سيارته أمام الدار التى عينها له هامبتون .. وكانت دارا عادية جدا ، مرتفعة ، ضيقة ، لم تشيد أصلا للغرض الذى أصبحت تستخدم فيه . والحق أنك — اذ ترى صخب الشارع ، وشدة حركة المرور فيه — لا تستطيع تصور كيف يمكن لمريض أن يجد فى هذا المكان شيئا من الراحة .. كان مكانا أدعى الى أحداث أزمة عصبية منه الى شفائها ! .. وأبدى أندرو هذه الملاحظة لهامبتون وهو يصعد معه درجات السلم ، فاعترف فريدى على الفور ، قائلا فى ود : « أعرف هذا ، يا زميلى العزيز .. كل هذه المستشفيات الخاصة سواء ، وهذا الركن الصغير من (الويست ايند) غاص بها .. **فنحن نحرص على أن تكون فى موقع يلائمنا نحن ! — فى حين كان ينبغى أن تكون بعيدة عن هنا فى احدى الضواحى الهادئة ، لو أردت راحة المرضى — ولكن ، أى طبيب يقطع كل يوم عشرة أميال ليرى مريضة لمدة خمس دقائق ؟** .. أوه ! ستتعرف فى الوقت المناسب على منظمتنا الصغيرة لمرضى (الويست ايند) .. »

وتوقف فى الردهة الضيقة ، التى كانا يعبرانها ، وهو يقول مستطردا : « ستجد هنا دائما ثلاث روائح منتشرة فى جو المكان : رائحة مخدر ، ورائحة طعام يطهى ، ورائحة الفضلات .. الافرازات الطبيعية ! عفوا ، يا صديقى .. والآن هيا نرى ايدا ! » . ثم قاد مانسون – وهو بادى المعرفة بأشخاص الدار – الى حجرة ضيقة بالطابق الارضى ، جلست فيها الى مكتب صغير ، امرأة شابة ترتدى زى المستشفى ، وعلى رأسها غطاء أبيض . وقال فريدى فى شىء من الاطراء ، وفى غير كثير من الكلفة : « طاب نهارك يا ايدا ، أمشغولة أنت بحساباتك ؟ » . فرفعت رأسها ، حتى اذا رأته ضحكت فى سذاجة .

وكانت قصيرة ، بدينة ، يكاد الدم يتفجر من تحت بشرتها .. بيد ان وجهها الاحمر اللامع كانت تعلوه طبقة من « البودرة » كثيفة ، الى حد جعله يبدو برتقاليا ، قريب اللون من ثوبها .. وكان مظهرها ينم عن القوة المتدفقة ، واللطف المصحوب بالمعرفة ، والنشاط ... وكانت تستعمل أسنانا صناعية غير متقنة الصنع . **وكان من السهل أن ترتاب فيها ، اذا ماسمعت ألفاظها النابية ، وأن ترى أنها كانت أصلح الناس لادارة ماهى ليلى من ملاهى الدرجة الثانية ! ..** ومع هذا ، فان مستشفى « ايدا شيرينجتون » الخاص ، كان أقرب مستشفيات لندن الخاصة الى الذوق العام . وقد تردد عليه نصف الطبقة الارستقراطية ، فضلا عن نساء المجتمع ، ونجوم سباق الخيل ، والمحامين ، والدبلوماسيين .. وما من صحيفة الا قرأت فيها أن احدى نجوم المسرح أو السينما الشابات قد تخلصت من زائدتها الدودية فى أمان تام ، بين يدى ايدا التى بذلت لها رعاية الام !

وكانت تلبس كل ممرضاتها زيا برتقاليا رقيقا ، وتدفع لساقى مستشفاها مائتى جنيه فى العام ، وللطاهى ضعف هذا

المبلغ . وكانت تتقاضى من مرضاها أجورا باهظة ، فقد كان السعر الجارى عندها هو أربعون جنيها عن الحجرة الواحدة فى الاسبوع ، عدا النفقات الاخرى : من ثمن أدوية ، الى أتعاب العناية الشخصية الليلية ، الى رسوم حجرة العمليات .. فاذا بدا لاحد مناقشتها فى شىء من ذلك ، أجابت فى عبارات منمقة - مغلفة بالطلاقة والبساطة - بأن عليها نفقات تدفعها هى الاخرى ، وانها تخصم مما تتقاضى نسبا مئوية تؤديها للأطباء ، وانها كثيرا ما تشعر بغبن فادح واقع عليها !

وكانت « ايدا » تميل بانعطاف خاص نحو الاطباء الشبان، فاستقبلت مانسون فى ود ورقة جانب . وقال لها فريدى : « تأمليه جيدا ، فسيرسل اليك فى وقت قريب كثيرا من المرضى، بحيث تضطرين الى اسكان بعضهم فى فندق بلازا ! » . فهزت قلنسوتها البيضاء ، قائلة : « ان بلازا هو الذى يفيض من نزلائه على ! » .. فضحك فريدى وقال : « نكتة طيبة ، يجب أن أقصها على فريدمان ، وسوف يعجب بها .. هيا نصعد يا مانسون ! »

ودلفا الى المصعد ، الذى كان يتسع لنقالة ذات عجلات . وبرحاه فى الدور الرابع ، فسارا فى ردهة ضيقة، وقد اصطفت أمام الابواب صحاف الطعام ، كما كانت هناك زهريات تحتوى أزهارا أخذت تذبل فى الجو الحار .. ودخلا غرفة مسز



« رايبيرن » ، فاذا بها امرأة قد تجاوزت الستين ، تجلس في مضجعها مستندة الى وسادات ، وقد أمسكت بيـدها ورقة كتبت عليها بعض الاعراض التى أحست بهـا أثنـاء الليل ، واسئلة كانت تريد توجيههـا .. **وأدرك اندرو على الفور ، وبدون تردد ، انها كانت تشكو من وساوس الشيخوخة !**

وجلس فريدى الى جانبها ـ على السرير ـ وتحدث اليها ، وجس نبضها .. وكان هذا كل ما عمله ، ثم استمع اليهـا ، وأخذ يطمئنها فى ممازحة ، ذاكرا أن مستر ايفررى لن يلبث ان يوافيها ـ فى العصر ـ بنتيجة بعض التحاليل العلمية . ثم رجاها أن تأذن لزميله الدكتور مانسون ـ اخصائى الرئتين ـ بفحصها . فسرت مسز « رايبيرن » لهذا كله أيما سرور ! .. ووضح من الحديث أنها بين يدى هامبتون منذ سنتين ، وأنها ثرية ، لا أهل لها ولا دار ، فهى تقيم حينا فى فنادق الدرجة الاولى، وحينا آخر فى مستشفيات (الويست ايند) الخاصة ! .. وصاح فريدى عندما برحا الغرفة : **« يا الهى !.. انك لا تتصور اى منجم ذهب هذه العجوز ، بالنسبة لنا ! »**

ولم يجب اندرو بشىء ، اذ ان جو المكان كاد يزهق أنفاسه .. فان السيدة العجوز لم تكن تشكو من شىء فى رئتيها ، وما أضفى على الفحص الذى قام به صفة النزاهة والامانة سوى أن نظراتها الى « فريدى » كانت تفيض بالعرفان بالصنيع ! .. ولقد حاول أندرو أن يقنع نفسه : **فيم هذا الكرب والعناء؟ .. انه لن يفوز بمال لو أنه تشبث بالصلابة ، وعدم المرونة ، والاسراف فى الاعتـداد بنفسه !** .. لقـد كان فريدى حسن القصد بالنسبة له ، اذ أتاح له فرصة فحص مريضته !

وقبل أن يعود أندرو الى سيارته ، شد على يد هامبتون فى ود كثير .. حتى اذا تلقى فى آخر الشهر من مسز «رايبيرن» اذنا مصرفيا بخمسة جنيهات ـ « مع أطيب الشكر » ـ لم

يسعه الا أن يضحك من وساوسه السخيفة . فلقد أصبح يستمرىء تلقى الاذون المصرفية ، وكلما ازدادت اشتد ارتياحه !

— ٧ —

• **كانت** أعمال أندرو تبشر ـ فى البداية ـ بازدياد مطرد ، ولكنها أصبحت تزداد وتتسع بسرعة خاطفة فى جميع الاتجاهات ، الامر الذى دفع أندرو دفعة قوية الى الامام ، **فلم يلبث ان جرفه التيار جرفا ، وأصبح فريسة لاتساع نشاطه !..** لقد كان من قبل فقيرا ، لم يجر عليه تشبثه بمبادئه وشخصيته سوى المكاره . أما الآن فقد أصبح بوسعه أن يبرر مسلكه أمام نفسه ، بفضل الدليل الباهر المستمد من نجاحه المادى !

ولقد دار بينه وبين مستر « وينش » ـ عقب الحادث الذى استدعى من أجله فى متجر لوريبه ـ حديث ارتاح اليه ارتياحا بالغا ، وأعقبه تزايد عدد البائعات الصغيرات ـ بل والكبيرات ـ اللائى أخذن يترددن على العيادة لاستشارته .

وكن ـ فى أغلب الاحيان ـ يشكين من وعكات بسيطة ، ولكنهن كن اذا ما قدمن مرة ، عدن مرات ومرات .. فلقد وجدنه رقيق الحاشية ، يبعث على الثقة والاطمئنان !

وأخذ دخل العيادة يتضاعف ويتضاعف ، فعنى بطلاء واجهة الدار ، واستعان بأحد البيوت التجارية التى تقوم بتأثيث غرف العمليات فتوفر الاجهزة اللازمة وتتولى كل ما يتعلق بتركيبها .. تلك البيوت التى تتنافس فيما بينها أشد التنافس ، لاجتذاب الاطباء الشبان سعيا وراء المزيد من الكسب .. كما عمل على تجديد أثاث عيادته ومكتب استشاراته ، فزوده بأريكة جديدة ، ومقعد وثير دوار ،

ومنضدة جميلة ذات عجل من المطاط ، وعدة خزانات عامة أنيقة ، مصنوعة من الزجاج والمعدن الابيض . ومع ان ما عرفت الجيرة كلها بالتجديدات والتحسينات التى ادخلها على الدار والعيادة، والسيارة التى ابتاعها ، وبالاجهزة الحديثة التى جاء بها ، فعاد الى العيادة كثير من « المرضى الممتازين » الذين كانوا يترددون على الدكتور « فوى » من قبل ، والذين اختفوا تدريجا عندما أخذ يأفل نجم الطبيب الشيخ ، وساءت حالة عيادته .

وانتهت أيام الارتقاب والفراغ التى كان يعانيها أندرو ، فلم يبق عليه — فى أوقات العيادة المسائية — سوى أن يلبى النداءات عند الباب الكبير ، والطرقات على الباب الصغير ، وطلبات المرضى الذين ينتظرونه فى الجانبين ويضطرونه الى الهرولة بين غرفة وأخرى . وكانت النتيجة الحتمية لهذا ، ان اضطر الى تنظيم عمله على نحو يتيح له المزيد من الوقت . فقال لزوجته ذات صباح : « اصغى الى ياكريس . لقدخطرت لى — منذ لحظة — فكرة تساعدنى كثيرا فى هذا الوقت الذى تثقلنى فيه وطأة العمل . فأنت تعرفين اننى كلما فحصت مريضا فى العيادة ، اضطررت الى العودة الى داخل المنزل لتحضير الدواء ، وهذا يستغرق — عادة — خمس دقائق .. وفى هذا اضاعة لوقت ثمين ، يمكننى الافادة منه على نحو أفضل ، بأن افحص احد المرضى الممتازين الذين ينتظروننى فى المكتب . **والآن ، هل أدركت مشروعى ؟ .. ستتولين منذ الآن تحضير الادوية لى ! »**

ونظرت اليه كريستين ، مقطبة الجبين مأخوذة ، وقالت : « ولكنى لا أفهم شيئا فى تحضير الادوية ! » . فقال بابتسامة مطمئنة : « لا عليك يا عزيزتى ، فسوف يسير الامر على خير ما يرام . لقد أعددت منذ ما بعض الادوية الرئيسية ، ولن يكون عليك سوى ملء زجاجة ، ولصق بطاقة عليها ،

وتغليفها ! » . وقالت كريستين : « ولكن .. » ثم أمسكت والحيرة فى عينيها .. وما لبثت ان تمالكت نفسها فقالت : « أوه ! .. لاشك فى اننى سأساعدك يا أندرو ، ولكن .. هل تعتقد حقا أنى .. ؟ » . فقال وهو يتفادى ان تلتقى عيناها بعينيه : « ألا ترين أننى مضطر الى هذا ؟ » .. وشرب ماتبقى من قهوته فى ضيق ، ثم قال : « **أعرف اننى كنت أعطى للأدوية أهمية كبرى فى (ابيرالو) ، ولكن هذا كله مجرد .. نظريات لا غير ! لقد اصبحت .. اننى الآن طبيب عملى ! .. ثم ان جميع فتيات متجر « لوريبه » مصابات بفقر الدم ، ولن يضرهن مزيج الحديد المقوى ! »**

ولم يتسع أمامها الوقت للاجابة ، فقد سمع — فى هذه اللحظة — رنين جرس العيادة ، فقفز اندرو الى هناك .. لقد كانت كريستين — فيما مضى — تناقش وتتشبث بموقفها . أما الآن ، فقد راحت تفكر مكتئبة ، فى التغير الذى طرأ على علاقاتهما ، اذ لم يعد لها تأثير على أندرو .. لم تعد توجهه ، بل أصبح هو الذى يقود السفينة !

★ ★ ★

واعتادت — منذ ذلك اليوم — ان تلزم الركن المخصص لتركيب الادوية ، فى ساعات اشتداد العمل ، تترقب نداءاته السريعة وهو يهرول من « مريض ممتاز » ، الى مرضى العيادة الآخرين : « حديد ! » ، أو « ألبا ! » أو « مهدىء ! » .. وعندما كانت تجيب احيانا بأن زجاجات الحديد قد فرغت ، كان يصيح فى حدة لها دلالتها : « أى شىء ! .. ياللعنة ! أى شىء مهما يكن ! »

وكانت العيادة لا تنتهى — فى اكثر الليالى — قبل التاسعة والنصف ، فيعكف — بعد ذلك — على تدوين الحسابات فى السجل الضخم ، الذى لم يكن « الدكتور فوى » قد ملأ

نصف صفحاته وقت أن أشــتريا العيــاد. وكان يقول : « ياالهى يا كريس ! انه ليوم طيب .. أتذكرين تلك الشلنات الثلاثة والنصف الاولى البائسة ، التى تسلمتها وأنا أرتجف كتلميذ منفعل ؟ .. لقد بلغ دخلنا ــ اليوم ــ أكثر من ثمانية جنيهات نقدا ! » . **ثم يضع المبلغ ــ بعضــه من قطع النقود المعدنية ، وبعضــه الآخر من أوراق النقــد ــ فى علبة التبغ الافريقى الصغيرة ، التى كان الدكتور فوى يضع فيها نقوده ، ويغلق عليها درج مكتبه الاوسط .. فلقد ظل يستعمل هذه العلبة ــ كما كان يستعمل السجــل ــ ليستمر الحظ على حاله !**

ونسى كل شىء عن الشكوك التى راودته فى أول الامر ، فراح يغبط نفسه على شراء هذه العيادة ، ويقول لكريستين فى غمرة من الابتهاج : « لكم نحن يا كريس محظوظان من كافة النواحى .. عيادة تدر دخلا حسنا ، وعملاء عديدون من الطبقة الوسطى .. ويتوج هذا كله ، أننى أوشــك ان ادعم مــكانتى كطبيب استشــارات من الدرجة الاولى .. لســوف ترين الى أين نبلغ ! »

واستطاع فى اول اكتوبر ان يسألها ان تعيد تأثيث البيت . اذ قال لها ــ بعد فراغه من العيادة الصباحية ــ فى لهجة تنم عن عدم اكتراث ، أصبحت من طباعه الجديدة : « ليتك تذهبين اليوم يا كريس الى متجر « هدسون » ، أو متجر « أوستلى » ــ فى (الويست ايند) ــ فتشترين كل الاثاث الذى تريدين . أثاث لغرفتى نوم ، واثاث للصالون ، و .. كل ما يلزم ! » .

فتطلعت اليه دون أن تفوه بكلمة ، بينما استطرد مبتسما ، وهو يشعل لفــافة تبغ : **« من متع جمــع المال أن تستطيعى الحصول على كل ما ترومين . لا تحسبينى خسيسا ! .. كلا وربى ! لقد كنت يا كريس زوجة صغيرة باسلة طوال أوقات ضيقنا ، وها نحن الآن فى بداية استمتاعنا بالايام السعيدة ! »**

ـ بشراء أثاث غالي الثمن ، وتأثيث ثلاث غرف وثيرة من متجر « اوستلى » ؟

ولم يفطن الى ما كان فى لهجتها من مرارة ، بل ضحك قائلا : « تماما يا عزيزتى .. لقد آن لنا أن نتخلص من امتعتنا القديمة التى ابتعناها من الريجنسى ! » . فقالت وقد ترقرقت عيناها بالدموع : « انك لم تكن تراها فى (ابيرالو) نفايات غير لائقة ، وهي ليست كذلك فى الواقع !.. آه ! لقد كانت تلك اياما سعيدة حقا ! » . واختنق صوتها ، فأسرعت تغادر الحجرة ..

ولاحقها بعينيه مشدوها .. فلقد أصبحت تبدو ـ منذ فترة من الزمن ـ برمة ، حائرة ، مهمومة ، تعاودها ـ من حين لآخر ـ نوبات مباغتة من ألم ممض ، ومرارة غيرمفهومة . **وأحس بأنهما كانا يتباعدان ، ويفقدان تلك الرابطة الخفية ، رابطة الزمالة العجيبة التى كانت دائما تجمع بينهما .. وواسى نفسه بأن الذنب لم يكن ذنبه ، وبأنه كان يبذل خير ما فى وسعه ، بل أقصى ما فى وسعه .. وقال فى نفسه محنقا : « ان تقدمى لا يعنيها اطلاقا ! »**

بيد أن وقته لم يكن يتسع لاطالة التأمل فى مسلك كريستين الذى لا ينطوى على مبرر ، ولا على انصاف ، فقد كان مضطرا الى اداء زيارات كثيرة ، وكان عليه ـ كذلك ـ ان يذهب الى المصرف كعادته فى يوم الاربعاء .. فلقد درج على ان يذهب الى المصرف مرتين ـ فى الاسبوع ـ بانتظام ، فيودع مبلغا من المال فى حسابه ، اذ كان يدرك أنه ليس من الحكمة فى شىء أن يترك أمواله تتكدس فى مكتبه . ولم يكن يتمالك أن يجد متعة فى المقارنة بين هذه العمليات المصرفية الدسمة ، وبين ما وقع له فى (بلينيللى) يوما ، حين كان مساعدا بائسا ، وحين نال « انيورين ريس » ـ مدير مصرف البلدة ـ من

كرامته .. أما هنا ، فقد كان مستر « ويد » – المدير – يبتسم له فى تقدير واحترام ، وكثيرا ما كان يدعوه الى تدخين سيجارة فى مكتبه ، ويقول له : « هل لى ان اقول يادكتور – فى غير تطفل – انك تسير موفقا بدرجة ملحوظة ؟ اننا هنا بحاجة الى الطبيب المستقيم ، المجد ، الذى أوتى قدرا من الاتزان والحرص .. مثلك ، اذا جاز لى القول يا دكتور !.. **والآن ، ما رأيك فى تلك الاسهم المضمونة التى كنا نتكلم عنها منذ أيام .. اسهم سكك حديد الجنوب ؟ »**

وكان التقدير الذى راح « ويد » يبديه نحوه ، مثالا للتحول الذى طرأ على الرأى العام حيال اندرو . فقد أصبح بقية أطباء الحى يحيونه فى ود كلما صادفت سياراتهم سيارته . وفى اجتماع الخريف للفرع المحلى للجمعية الطبية ، استقبل بحفاوة واكرام ، فى القاعة التى أحس فيها – حين شهد اجتماعات الفرع لاول مرة – بأنه دخيل متطفل . وقدم له الدكتور « فيرى » – نائب رئيس الجمعية – سيجارا . وقال له : « نحن سعداء اذ نراك بيننا يا دكتور .. هل وافقت على خطابى ؟.. يجب أن نثبت على موقفنا بالنسبة لاتعابنا ، وعلى الاخص بالنسبة للدعوات الليلية . ان موقفى محدد وصريح . فلقد طرق بابى ذات ليلة – منذ أيام – غلام فى نحو الثانية عشرة ، وأهاب بى متلعثما : « تعال بسرعة يا دكتور ، فان أبى فى عمله وأمى مريضة جدا » .. أنت نعرف دعوات الساعة الثانية صباحا هذه !.. **ولم أكن قد رأيت من قبل هذا الغلام ، فقلت له : « ان أمك ليست من مرضاى يابنى ، فاجر واحضر نصف جنيه – قيمة الاتعاب – واذ ذاك فقط ، أذهب لرؤيتها ! »** . وطبعا لم يعد !.. اننى أؤكد لك يا دكتور ان هذا الحى فظيع .. » .

* * *

وفى الاسبوع التالى ، خاطبته مسز لورنس تليفونيا . وكان يسر دائما بهذه الاحاديث التليفونية الناعمة التافهة .. غير أنها فى ذلك اليوم ، أخبرته بأن زوجها فى رحلة صيد بايرلندا ، وأنها قد تلحق به بعد قليل ، ثم .. دعته ، فى سياق الحديث - وكما لو كان الامر عديم الاهمية - ليتناول الغداء على مائدتها فى يوم الجمعة التالى . وقالت : « ستكون هنا توبى وشخص أو شخصان .. أخف ظلا - فيما أحسب - من اولئك الذين يلقاهم الانسان عادة . وقد يطيب لك التعرف بهما ! »

وأعاد المسماع وقد تنازعه شعور بارتياح بالغ ، وشعور فريد بسخط وحنق . فقد غاظه - فى أعماق ذاته - ان كريستين لم تدع معه . ثم قال لنفسه ان المناسبة لم تكن مناسبة اجتماعية ، وانما كانت لقاء يتعلق بالعمل .. وان من واجبه أن يخرج من عزلته ، وأن يعقد صلات مع الناس ، لا سيما اذا كانوا من طبقة أولئك الذين سيشتركون فى هذا الغداء . **ومهما يكن من أمر ، فما كان من الضرورى أن تعرف كريستين شيئا عن هذه الدعوة .. لذلك قال لها - يوم الجمعة - انه على موعد مع هامبتون للغداء ، وقفز الى سيارته مرتاحا ، وقد فاته انه لم يكن يحذق الكذب !**

وكانت دار فرانسيس لورنس فى (نايتسبريدج) ، فى شارع هادىء بين ميدان (هانز) وميدان (ويلتون كريسينت) .. واذا لم يكن للدار رواء دار « لى روى » وفخامتها ، فان مرآها العام كان يوحى بعين المستوى من الثراء . ووصل اندرو متأخرا ، اذ كان أكثر المدعوين قد سبقوه .. كانت هناك « توبى » ، « وروزاكين » - الكاتبة القصصية - وسير « ددلى رمبولد بلين » الدكتور فى الطب والزميل فى كلية الطب الملكية - وكان طبيبا مشهورا ، وعضوا لمجلس ادارة منتجات « كريمو » - و « نيكول واتسون » الرحالة والاستاذ

فى علم الاجناس ، وبضعة أشخاص آخرون أقل شهرة .
وجاء مجلسه الى المائدة بجانب مسز « ثورنتن » ، التى كانت تقيم ــ كما قالت له ــ فى (ليسيستر شير) ، وتتردد على لندن ــ من حين لآخر ــ فتنزل فى فندق « براون » .. وأصبح أندرو لا يعانى أى ارتباك عند التعرف على أى غريب ، فأخذ يصغى صامتا الى ثرثرتها وهى تروى له ، فى حنين الام ، قصة جرح أصاب قدم ابنتها « سيبيل » ــ التى كانت طالبة بالقسم الداخلى بمدرسة « روديان » ــ بينما كانت تلعب الهوكى ! .. وقد حملت مسز « ثورنتن » صمت أندرو ، على محمل الاصغاء والاهتمام بحديثها ، فى حين أنه كان منصرف الذهن الى حديث آخر ، كان يدور حوله ، ويتسم باللباقة ، وحضور البديهة ، والى فكاهات «روزاكين» اللاذعة ، وطرائف « واتسون » عن مشاهداته فى رحلة استكشافية قام بها أخيرا فى مجاهل (باراجواى) .. **وأعجب كذلك بفرانسيس وهى تصل حبل الحديث فى لباقة ويسر حتى لا ينقطع ، وتذكى جذوته فلا يخبو ، مع احتمالها ــ فى كبح للنفس ــ ثقل حديث جارها سير رمبولد . وأحس أندرو ــ مرة أو مرتين ــ بأن نظرها كان مصوبا اليه فى شبه ابتسامة ، وشبه استجواب .**

وقال واتسون يختتم قصته : « وكان أدعى الحوادث الى الاسف ــ طبعا ــ ان يعود المرء الى وطنه ، فيستقبل بنوبة من الانفلونزا » . فصاح سير رمبولد : « آه !.. لقد قدر لك أن تكون أنت الآخر فريسة ! » . وأصلح صوته ووضع منظاره على أنفه الكبير ، ملفتا أنظار الجلوس جميعا . فقد كان يسعد دائما بأن تتجه الانظار اليه ، وهو الذى تركز عليه انتباه الجمهور البريطانى سنوات عديدة .. فقد أدهش العالم ــ منذ أكثر من ربع قرن ــ باعلانه أن جزءا من الامعاء ليس

عديم الفائدة فحسب ، بل انه ضار بالتأكيد . وقد بادر مئات من الناس الى استئصال هذا الجزء الضار (الزائدة الدودية) .. وعلى الرغم من ان سير رمبولد لم يستأصل الزائدة من امعائه ، الا أن الضجة التى أحدثتها هذه الجراحة ـ التى أطلق عليهـا الجراحون « جراحة رمبولد بلين » ، أذاعت صيته كأخصائى فى الامراض المترتبة على الاغذية .. وظل ـ منـذ ذلك الحين ـ فى مكان الصدارة ، وقد وفق الى أن يدخل على الاطعمة القرمية الدقيق الاسمر ، واللبن الزبادى ، وحامض اللبنيك . ثم اكتشف بعد ذلك « لبـان رمبـولد بلين » .. وأصبح ـ بالاضافة الى نشاطه البارز فى عدد من مجالس الادارة ـ يتولى وضع قوائم الطعام لمطاعم « رايلى » الشهيرة ويتصدر اسمه اعلاناتها : « هلموا أيها السيدات والسادة ، ودعوا سير رمبولد بلين ـ الدكتور فى الطب ، والزميـل فى الجمعية الطبية الملـكية ـ يساعدكم على اختيار السـعرات الحرارية اللازمة لاجسامكم » ... الامر الذى أثار احتجاجات عديدة من كثير من الاطباء الذين كانوا ارسخ منـه قدما فى الطب ، والذين أعلنوا أنه كان ينبغى اقصاء اسم سير رمبولد من جدول الاطباء ، منذ سنوات .. فكان الجواب : « وماذا يبقى فى هذا الجدول ، اذا ما خلا من اسم رمبولد ؟! »

وكان يقول لفرانسيس ، وهو يرمقها بنظرة أبوية : « من أعجب الظواهر التى صاحبت هـذا الوباء الحـديث ، الاثر العلاجى الذى يمكن أن يكون للكريموجين . لقد اتيحت لى الفرصة فى الاسبوع الماضى أن أقول هذا الكلام للجمعية العامة فى شركتنا .. فليس عندنا ـ مع بالغ الاسف ـ دواء للانفلونزا . ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة للوقوف فى وجه هذا الداء الفتاك ، هى انماء حالة المقاومة ، وذلك بايجاد دفاع حيـوى يقى الجسم من هجمات المرض . وقد خلصت من هذا الى القول بحق ، وأنا أفاخر بهذا ، اننا أثبتنا بنحو قاطع ـ لا

باجراء التجارب على الفئران .. ها ! ها ! ها ! ها !، كما يفعل أصدقاؤنا المعمليون ، بل باجراء تجارب على آدميين ـ المفعول السحرى الذى للكريموجين فى تنظيم وتقوية حيوية الجسم ! »

واستدار واتسون نحو أندرو بابتسامته الفريدة ، وسأله : « ترى ما رأيك يا دكتور فى منتجات كريمو ؟ » . وأخذ أندرو على غرة ، فقال عفو الخاطر : « انها طريقة جيدة من طرق الحصول على لبن منزوع القشدة . » فرمقته « روزا كين » بنظرة تحبيذ خاطفة ، وضحكت فى فضول ، كما ابتسمت فرانسيس .. وأسرع سير رمبولد بالانتقال الى الحديث عن الرحلة الاخيرة التى قام بها الى (تروساكس) ، ضيفا على الجمعية الطبية فى الشمال .

* * *

وفيما عدا هذا ، ساد الانسجام مأدبة الغداء ، واقبل أندرو على الاشتراك فى الحديث دون تهيب . وقبل ان يستأذن فى الانصراف ـ وقد انتقلوا الى الصالون ـ قالت له فرانسيس : « أنك لامع حقا ، حتى وأنت خارج مكتب استشاراتك . ان مسز ثورنتن لم تستطع احتساء قهوتها ، اذ انصرفت الى الحديث عنك . وانى لاحس احساسا غريبا بأنك قد طويتها فى جيبك ـ أيجوز هذا التعبير ؟ ـ وضمنت أنها ستكون من عملائك ! » . وراحت هذه العبارة تتردد فى سمعه ، حتى اذا عاد الى داره ، رأى انه كسب الشىء الكثير ، وان كريستين لم تخسر شيئا من هذه المغامرة !

على انه صادف ـ حوالى الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم التالى ـ مفاجأة غير سارة . فقد سأله فريدى هامبتون بالتليفون فى مباسطة : « هل استمتعت بغداء الامس ؟ .. كيف عرفت ذلك ؟ يالك من دابة ، الم تقرأ « التريبيون » هذا الصباح ؟ » .. واستاء أندرو ، فذهب



لتوه الى الصالون ـ حيث كانت الصحف توضع ، بعد أن يفرغ وكريستين من قراءتها ـ وتصفح « التريبيون » للمرة الثانية ، وهى من خير الصحف اليومية المصورة . وارتعش فجأة : كيف لم يقع نظره على هذا ؟.. ففى الصفحة المخصصة للاجتماعيات ، كانت ثمة صورة لفرانسيس لورنس ، ووصف مسهب لمأدبة الغداء التى أقامتها فى اليوم السابق .. وكان اسم « مانسون » بين اسماء المدعوين .. وفى ضيق بالغ ، تناول الصحيفة فكورها وقذف بها الى المدفأة . ثم فكر فى ان كريستين قد اطلعت عليها ولابد ، فاكفهر وجهه غيظا . ومع انه راح يوحى لنفسه بأن نظرها لم يقع على هذا النبأ اللعين ، الا أنه دلف مكتئبا الى مكتبه

ولكن كريستين كانت قد رأت النبأ ، فبهتت لحظة ثم أحست بضربة تمزق قلبها .. لماذا لم يقل لها اى شىء ؟ لماذا ، لماذا ؟.. لم يكن يعنيها فى كثير أو قليل ، أن يذهب الى هذه المأدبة السخيفة . **وحاولت أن تستعيد سكينتها ، معللة نفسها بانه أمر اتفه من أن يسبب لها كل هذا الالم ، وان يشغلها الى هذا الحد . بيد أنها كانت ترى ـ والحزن يخز فؤادها ـ ان ما انطوى عليه هذا الامر ليس بالشىء التافه !..** وحاولت المضى فى أعمالها المنزلية ـ عقب خروجه لزيارة مرضاه ـ ولكنها لم تستطع .. وذهبت الى مكتب الاستشارات ، ثم

الى حجرة العيادة ، والهم والكآبة لا يفارقانها .. وراحت تنظف الاثاث بدون وعى .

وبجانب المكتب ، عثرت على حقيبة أندرو القديمة .. أول حقيبة ابتاعها .. الحقيبة التى كان يستعملها فى (بلينيللى) ، والتى كان يحملها متنقلا من شارع الى شارع ، أو هابطا الى أغوار المناجم ، فراحت تتحسسها فى حنان غريب . لقد أصبح يمتلك حقيبة جديدة ، أجمل من هذه ، تناسب هؤلاء العملاء الجدد الذين يعمل بهذا الجهد الفائق على اجتذابهم ، والذين كانت كريستين توجس — فى قرارة نفسها — منهم .. وكانت تدرك أن لا جدوى من محاولة مفاتحته بمخاوفها فى هذا الصدد ، فقد أصبح سريع التأثر — وهذه امارة الصراع الناشب فى نفسه — فكانت أية كلمة منها قمينة بأن تخرجه من طوره ، وتثيره ، وتسبب شجارا . ومن ثم فقد بات عليها ان تبذل قصارى وسعها بوسائل أخرى !

وكان اليوم يوم سبت ، وقد وعدت بأن تصطحب «فلورى» — ابنة خادمتها — فى جولتها الصباحية .. وكانت فلورى صبية جميلة ، تعلقت بها كريستين . وسمعت وقع قدميها فى أعلى سلم البهو ، وقد أرسلتها أمها غاية فى النظافة ، ترتدى فستانا جديدا ، وتمنى نفسها بمرح كثير .. وكانتا كثيرا ما تخرجان معا — فى أيام السبت — على هذه الوتيرة ، فقد كانت كريستين ترتاح الى الخروج ممسكة بيد الصبية ، متجولة معها فى السوق ، تحادث الباعة من ذوى العربات ، وتبتاع فاكهة وزهورا ، وتحاول ان تجد بعض الاطعمة الشهية ، لا سيما تلك التى كان اندرو يحبها .. **غير ان الجرح ابى أن يندمل فى ذلك اليوم .. لماذا ، لماذا لم يقل لها اى شىء ؟ .. ولماذا لم تدع هى الاخرى الى هذه المأدبة ؟ .. وتذكرت زيارتهما الاولى لاسرة فوجان ، حينما بذلت قصارى جهدها لتحمله على الذهاب معها !** .. لكم تبدلت الحال الآن ، فهل

تراها ارتكبت ذنبا أو خطأ ؟ .. هل تغيرت ؟ .. هل انطوت على نفسها واضحت ، على نحو ما ، عدوة للمجتمع ؟ لا ، ما كانت ترى ذلك فى نفسها، فقد ظلت تحب مخالطة الناس، بغض النظر عن شخصياتهم او مكاناتهم .. ولقد ظلت صداقتها مع مسز فوجان قائمة ، بفضل مواظبتهما على تبادل الرسائل .

ومع انها شعرت بأنها جرحت فى كرامتها ، وبأنه لم يحترمها، فانها راحت تتعذب من أجله ـ فى الواقع ـ أكثر مما كانت تتعذب من أجل نفسها .. كانت تدرك ان لابد للأغنياء من أن يرضوا كالفقراء ، وان من الميسور على أندرو ان يكون طبيبا مبدعا فى (جرين ستريت) بحى (مايفير) كما كان فى شارع (سيفن) بأبيرالو .. ولم تكن تطالبه بالدأب والجهد اللذين كان يبذلهما أيام الدراجة البخارية القديمة . **ومع ذلك ، فقد كانت تشعر ـ فى قرارة نفسها ـ بأن أندرو كان يتمسك فى تلك الايام بمبادىء نقية ، رائعة ، كانت تبعث فى حياته وحياتها ضوءا صافيا ، أبيض ! .. أما الآن فقد بهت هذا الضوء ، وجلل السناج المصباح !**

وجهدت ـ وهى تدخل متجر بدالة « سميث » ـ أن تخفى ما كان بين جنبيها ، وأن تزيل تقطب جبينها . وعلى الرغم من هذا، فقد لحظت أن المرأة العجوز كانت تتفرسها بانتباه . وما لبثت البدالة أن غمغمت : « ارى أنك لا تتغذين بما فيه الكفاية ياسيدتى .. انك لا تلوحين كما ينبغى ، مع انك قد أصبحت تملكين سيارة ، ومالا ، وكل ما يلزمك ! .. الا دعينى اذيقك شيئا شهيا ! » . وقطعت بسكينها الطويل شريحة من لحم الخنزير المسلوق ، وصنعت منه شطيرة قدمتها لكريستين، كما أعطت فلورين قطعة من الحلوى المثلجة ، وهى لا تكف لحظة عن الكلام : « والآن يلزمك جبن . لقد أكل الدكتور أرطالا من جبنى ، وهو لا يسأمه أبدا .. سأطلب منه يوما ما أن يكتب لى شهادة أعلقها فى المحل ، فان هذا النوع من الجبن

هو الذى صنع شهرتى ! » .. وهكذا راحت تثرثر وتحاول اضحاك « كريستين » طيلة فترة بقائها فى المتجر !

واذ غادرت كريستين وفلورين المتجر ، تريثتا على الافريز، ريثما يعاونهما جندى المرور « ستروذرس » على عبور الشارع . وأمسكت كريستين بيد الصبية العجول ، خشية افلاتها منها ، وراحت تقول لهـا : « يجب أن ترقبى حـركة المرور دائما ، والا فماذا تقول أمك لو أنك اصبت بسوء ؟ » .. ورأت الصغيرة فى هذا فكاهة أضحكتها وهى مليئة الفم ببقية الحلوى .. وما لبثتا ان بلغتا الدار ، فأخذت كريستين تخرج من حقيبتها الاشياء التى ابتاعتهـا .. حتى اذا ذهبت الى « الصالون » لتنسق الازهار التى أحضرتها ، عاودها الحزن .

وبغتة ، دق جرس التليفون فى البهو ، فلبت النداء وهى مكتئبة بعض الشىء . وغابت نحـو خمس دقائق ، **ثم عادت الى « الصالون » مشرقة الوجه ، متـألقة العينين ، تنتابهـا رعشة طروب .. وأخذت تطل من النافذة ــ بين حين وآخر ــ مرتقبة فى صبر نافد ، عودة أندرو ، ناسـية ألمها لفرط ما أسعدها النبأ الذى تلقته ..** فقد كان نبأ هاما بالنسبة له ، بالنسبة لهما معا .. وأيقنت ــ فى غبطة ــ بأنه أبهج الانباء جميعا . فليس من ترياق أفعل منه لسم النجاح السهل ، فضلا عما كان فيه من تقدم لاندرو ، فهو خطوة حقيقية الى الامام .. ولم تتمالك كريستين نفسها ، حينما وصل اندرو ، فهرعت لاستقباله فى البهو ، هاتفة : « لدى رسالة لك يا اندرو ، من سير روبرت آبى .. لقد اتصل بى تليفونيا منذ قليل ! »

وأشرق وجه أندرو ، بعد ان كان مكفهرا ، بينما استرسلت تقول : « أجل ، لقد اتصل شخصيا ، وكان يريد التكلم معك ، فعرفته بنفسى ، واذا به غاية فى رقة الجانب !.. آه ، **لست أدرى كيف انهى اليك النبأ.. سيسند اليك عمل فى مستشفى فيكتوريا ، يا عزيزى .. وفورا ! »**

ولمعت عينا أندرو تدريجا بوميض الابتهاج ، وقال : « آه ! .. هذا نبأ سار يا كريس ! » . فصاحت متهللة : « أليس كذلك ؟ .. ستعود الى العمل الذى يروق لك .. وستنفسح لك فرص اجراء البحوث .. وكل ماكنت تصبو اليه فى مجلس العمل ، ولم تحصل عليه ! » .. وطوقت عنقه بذراعيها ، وضمته الى صدرها . فأخذ يتأملها وقد غلبه التأثر بحبها وكريم ايثارها .. ووخزه ضميره لحظة ، فتمتم : « لكم أنت طيبة النفس يا كريس ، و .. ولكم أنا فظ قاس ! »

— ٨ —

• فى الرابع عشر من الشهر التالى بدأ أندرو عمله فى العيادة الخارجية لمستشفى فيكتوريا . وكان عليه ان يعمل من الساعة الثالثة الى الساعة الخامسة فى مساء الثلاثاء والخميس من كل أسبوع .. تماما كما كانت الحال قبلا فى مستوصف أبيرالو ، فيما عدا أن جميع مرضاه الآن كانوا من المصابين بأمراض رئوية أو نزلات صدرية .. كما انه لم يعد مساعد طبيب — مما ملأ نفسه بفخر مستتر — بل أصبح طبيبا بمرتب فى مستشفى من أقدم وأشهر مستشفيات لندن .. فقد كان مستشفى فيكتوريا قديما — ما فى هذا شك — كان يقوم فى (باترسى) ، وسط شبكة من الشوارع الضيقة ، القريبة من نهر (التيمز) ، فلم يكد يحظى من الشمس — حتى فى الصيف — بأكثر من خيوط متناثرة .. بينما كان الضباب المتصاعد من النهر يلف — فى أكثر أيام الشتاء — شرفاته التى كان من الواجب أن تجر اليها أسرة المرضى .. **وفوق واجهته المتداعية ، كانت ثمة لافتة كتب عليها — بحروف بيضاء على أرضية حمراء ، بحيث كانت تبدو جلية ، كأنها انذار — « مستشفى فيكتوريا .. آيل للسقوط » !**

وكانت العيادة الخارجية — التى يعمل فيها أندرو — تقوم

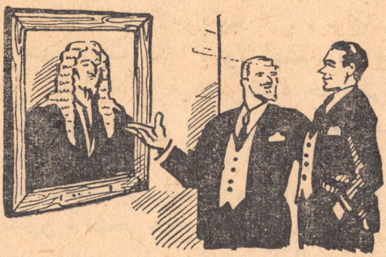
فى جزء من المستشفى ، من مخلفات القرن الثامن عشر . وكان الدليـل على ذلك أن ادارة المستشـفى عرضت مزهوة ـ فى صندوق زجاجى عند المدخل ـ « المسطرين » وقطعة من المونة التى استخدمها الدكتور « لينتل هودجز » ، الذى كان طبيبا فخريا فى هذا القسم عينه ، منذ عام ١٧٦١ الى عـام ١٧٩٣ .. وكانت الجدران غير المصقولة ، مطلية بلون بنى قاتم امتاز به المستشـفى . أمـا الردهات ذات الارضـية الخشبية ، فكانت على جانب كبير من النظافة ، غير أنها كانت سيئة التهوية ، حتى ان الرطوبة كانت تنضح على جدرانهـا .. وفى جميع الغرف ، كانت رائحة العفن تفوح ، موحيـة بقدم المكان .

وزار « أندرو » ـ فى اليوم الاول ـ أقسام المستشفى ، بصحبة الدكتور « يوسـتاش ثوروجود » ، عميد الاطبـاء الزائرين (١) .. وكان رجلا فى نحو الخمسين ، رقيق الحاشية متوسط الطول ، ذا لحية صغيرة شيباء ، وخصال سمحة ، حتى لتحسبه قس ابروشية ! .. وكانت له فى المستشـفى عنابره الخاصة به ، كما انه ـ وفقا للنظام الموروث عن التقاليد القديمة ـ مسـئول عن « أندرو » والدكتور « ميليجـان » الطبيب الزائر الشاب الآخر ..

واذ فرغا من الطواف بالمستشفى ، اقتيد أندرو الى القاعة الكبرى المشتركة ـ فى الطابق الارضى ـ حيث كانت المصابيح مضاءة ، رغم أن الوقت كان عصرا .. وكانت ثمـة نار قوية تتأجج فى المدفأة المصنوعة من الحديد الزهر ، وقد علقت على الجدران صور الممتازين من أطباء المستشفى ، وبينها صورة الدكتور « لينتل هودجز » ، وقد احتلت مكان الشرف فوق

---

(١) الطبيب الزائر : اصطلاح يطلق على الطبيب الذى يتردد أياما معينة على العيادة الخارجية فى المستشفى .



المدفأة .. وهناك ، تناول أندرو - بصحبة الزملاء الآخرين فى المستشفى - شايا فاخرا ، مع عدد من الشرائح الساخنة بالزبد . والفى أندرو هؤلاء الزملاء شبانا رقيقى الجانب بدرجة ملحوظة . **على انه حينما لحظ احترامهم للدكتور « نوروجود » وله ، لم يتمالك نفسه من الابتسام ، اذ تذكر اشتباكاته مع أولئك « الزملاء الوقحين » ، عندما كان - الى عهد قريب - يضطر الى التشاجر حتى يتمكن من ادخال بعض مرضاه أحد هذه المستشفيات العامة !**

وكان الى جانبه شاب ، هو الدكتور « فالانس » الذى قضى سنة فى الولايات المتحدة ، يعمل فى معهد « الاخوة مايو » ، فأخذا يتحادثان عن هذه العيادة الشهيرة ، وعن أساليبها ، ثم سأله أندرو - فى فضول مباغت - عما ان كان أثناء اقامته فى أمريكا قد سمع شيئا عن « ستيلمان » . فقال فالانس : « بالتأكيد ، فان القوم هناك يحفلون به كثيرا . صحيح أنه لا يحمل درجات علمية ، غير أن الولايات المتحدة قد اعترفت به ، على سبيل الاستثناء ، نظرا لاعماله الجليلة .. انه يحقق أعجب النتائج ! » . فسأله أندرو : « وهل رأيت عيادته ؟ » . فأجاب الشاب : « كلا .. فاننى لم أذهب الى اوريجون » .

وتوقف اندرو لحظة مترددا فى الكلام ، ثم قال : « أعتقد انها أبدع مؤسسة ! .. لقد اتصلت بستيلمان منذ بضع

سنوات ، اذ كتب لى ـ أول الامر ـ بصدد بحث نشرته لى صحيفة « الصحة العامة الامريكية » .. ولقد رأيت صورا لعيادته ، وقرأت بيانات عنها ، ولا أعتقد أن فى وسع طبيب أن ينشد مكانا مثاليا يعالج فيه مرضاه خيرا من هذا المكان.. ان مصحته تقع على ارتفاع شاهق ، وسط غابة من أشجار الصنوبر . وهى منعزلة ، ذات شرفات زجاجية ، ونظام تهوية خاص يكفل نقاء الجو نقاء تاما ، وحرارة ثابتة فى الشتاء ! »

.. وتوقف أندرو ، متحرجا من تحمسه ، اذ أن الحضور كانوا قد كفوا عن حديثهم ، وراحوا يصغون الى مايقول. وما لبث ان استطرد : **« وعند ما ينظر المرء الى مؤسسة كهذه ، لايتمالك ان يشعر ـ على ضوء ظروفنا فى لندن ـ بأنها مثل أعلى لا سبيل الى ادراكه ! »**

وابتسم الدكتور « ثوروجود » فى شىء من الجفاء ، وقال : « لقد استطاع الاطباء اللندنيون دائما ان يحققوا أسمى نجاح ، فى هذه الظروف اللندنية التى ذكرتها ، يا دكتور مانسون ! .. قد لا تكون لدينا الميزات التى تتحدث عنها ، بيد اننى أستطيع أن أقول ان أساليبنا القوية المجربة ـ وان لم تصب شهرة عالمية ـ تحقق نتائج أدعى الى الارتياح ، وربما كانت أبقى على الزمن ! » . فنكس اندرو بصره ، ولم يعترض ، اذ أحس بأنه ـ كقادم جديد وسط هذه الجماعة ـ كان خليقا بألا يبسط آراءه على هذا النحو العلنى . اما الدكتور « ثوروجود » ، فقد عمد الى تغيير موضوع الحديث، لكى يبدد الجو الذى أوحاه جفاؤه ، فراح يتكلم عن طريقة الحجامة بالكؤوس التى تسحب الدم (كاسات الهواء) . فقد كان تاريخ الطب هوايته المحببة .. وقال متلطفا لاندرو ، وهم يبرحون المائدة : « اننى احتفظ بمجموعة عتيقة من كؤوس الحجامة ، لابد من أن أريكها يوما . فمما يدعو الى الخجل حقا ان تنقرض الحجامة ، وهى التى كانت ـ ولا تزال ـ

طريقة مثلى لاحداث تهيج مضاد للمرض ! » .

وفيما عدا هذه السحابة الخفيفة ، كان مسلك «ثوروجود» مسلك الزميل الودود ، رفيق الحاشية .. وكان طبيبا كفئا لا يخطىء التشخيص بحال ، وقد كان يسعد دائما بأن يرى أندرو فى عنابره . أما فيما يتصل بالعلاج ، فقد كان عقله الحريص يتهيب كل ما هو جديد . ومن هنا فانه لم يكن يطيق أى حديث عن « التيبركولين » ـ دواء السل الحديث ـ اذ انه يرى أن قيمته العلاجية لم تثبت بحال .. كما أنه لم يكن يستعمل « البنيموتراكس » ـ عقار الرئة الجديد ـ الا فى حذر شديد ، وكانت نسبة حقن التقوية التى يعطيها لمرضاه ، أقل نسبة فى المستشفى برمته .. يقابل هذا من الناحية الاخرى أنه كان يأمر جميع مرضاه بتناول زيت كبد الحوت وعصير الشعير المخمر بمقادير كبيرة !

★ ★ ★

وما أن بدأ أندرو عمله الخاص ، حتى نسى « ثوروجود » ، وراح يقول لنفسه : « لكم هو بديع أن أصل ما انقطع ، بعد شهور من الانتظار ! » . وبدا كأنه قد استعاد تماما حماسه وحميته السابقين . وكان عمله السابق فى ميدان السل الناجم عن تسرب الغبار مع الانفاس ، قد دفعه بطبيعته الى دراسة السل الرئوى بصفة عامة ، فرأى ـ فى غير تحديد واضح ـ ان يتقصى الاعراض البدنية الاولى للمرض الاصلى ، مستخدما « طريقة بركيه » .. وكانت تحت تصرفه مادة غزيرة للملاحظة ، تمثلت فى الاطفال سيئى التغذية ، الذين كانت أمهاتهم يحضرنهم بأمل الافادة من السخاء الذى اشتهر به الدكتور «ثوروجود» فى توزيع عصير الشعير المخمر . **بيد انه لم يستطع ان يقبل على عمله بكل قلبه ، برغم الجهد الذى راح يبذله فى اقناع نفسه .. ولم يستطع ان يستعيد تحمسه القديم أثناء أبحاثه**

فى استنشاق الغبار ، فقد كان باله مشغولا بأمور كثيرة ، وكان فى عيادته مرضى عديدون يحتاجون الى عناية فائقة ، فلم يعد بوسعه تركيز انتباهه على الاعراض الغامضة التى قد لا يكون لها وجود ظاهر .. ولم يـكن هناك من يفرقه ادراكا للوقت اللازم لفحص مريض فحصا جديا ، ولكنه كان فى عجلة دائما .. وهذا سبب قاهر حمله على أن يستقر - فى وقت وجيز - على رأى منطقى ، هو أنه لم يعد يستطيع القيـام بهـذه الدراسة !

ولم يكن الفقراء المترددون على العيادة ، يطالبونه بجهد يذكر . لاسيما وقد كان سلفه - فيما بدا - فظا ، فاستطاع أندرو أن يكسب محبة المرضى باغداق الادوية والفكاهات .. كذلك استطاع أن يسير على أتم تفاهم مع زميله «ميليجان» . ولم يلبث أن حذا حذوه حيال المرضى المنتظمين . فصار يجمعهم أمام مكتبه - فى بدء العيادة - ويوقع بطاقاتهم .. ولم يكن - وهو يكتب بسرعة عبارة : « يكرر الدواء السابق » - يجد وقتا يتذكر فيه ثم سخر فى الماضى من هذه الصيغة التقليدية .. وهكذا مضى فى اتقان مهمة الطبيب الزائر ، فى مستشفى عام !

— ٩ —

• **بعد** ستة أسابيع من التحاق أندرو بمستشفى فيكتوريا، جلس يتناول افطاره مع كريستين - ذات صباح - واذا به يجد بين رسائله خطابا يحمل خاتم بريد مارسيليا ، فأسرع بفضـه ، وتأمله فى دهشـة ، ثم قال : « انه من دينى ، لقد سئم المكسيك آخر الامر ، وجاء يستقر هنا ! .. لن أصدق هذا حتى أراه بعينى . على أنه من دواعى السرور أن نعود فنراه . منذ متى برحنا ؟ .. لكأنه دهر . أمعك الصحيفة يا كريس ؟ .. أنظرى متى تصل الباخرة اوريتا ! » . ولقد

سرت كريستين – هى الاخرى – بهذا النبأ المفاجىء ، ولكن لسبب جد مختلف . فقد أصبحت تحس احساسا قويا بأنه لا بد لها من أن تحمى زوجها !

وكانت تعرف أن لدينى ولهوب تأثيرا حسنا عليه . واذ أصبحت قلقة ، متوجسة ، لاسيما بعد ان بدا عليه انه قد تغير ، فما ان وصل هذا الخطاب ، حتى أخذت تفكر وتضع خطة للجمع بين ثلاثتهم .. وفى عشية يوم وصول «الاوريتا» الى (تيلبورى) ، أثارت المسألة ، فقالت : « لست أدرى يا أندرو ان كان هذا يروقك .. فقد فكرت فى دعوة دينى وهوب للعشاء معنا فى الاسبوع القادم ! » . فتطلع اليها مندهشا ، اذ بدا من الغريب – مع التوتر الغامض الذى كان يسودهما – أن يسمعها تتحدث عن دعوة ضيوف للعشاء .. وأجاب أخيرا : « من المحتمل أن يكون هوب فى (كمبريدج) . أما عن دينى وعنى ، فيمكننا العشاء فى المطعم » .. ولكنه فطن الى تعبير وجهها ، فاستدرك قائلا : « لكن رأيك بديع جدا ، على أن يكون ذلك يوم الاحد ، فانه أنسب يوم لثلاثتنا ! »

ووصل دينى يوم الاحد التالى ، فاذا به أكثر بدانة من ذى قبل ، وقد احمر وجهه وعنقه ، وتقدمت به السن ، وان بدا أقل اكتئابا وأكثر بشرا .. على انه ظل دينى القديم الذى عهداه .. وكانت اول عبارة قالها : « ياله من مسكن بديع .. الست محقا فى ذلك ؟ » . **وأمسك ليلتفت نحو كريستين فيقول فى رزانة : « هل هذا السيد الانيق هو الدكتور مانسون حقا ؟ .. لو عرفت ذلك لاحضرت له كناريا ! »**

وأبى أن يتناول شيئا من الخمر ، قائلا : « كلا ، فلست أشرب الآن سوى عصير الليمون . ومهما يبد هذا غريبا ، فاننى مصر على المضى فيه ، مهما ألقى من عنت ! .. ولقد مللت الفضاء الشاسع ، والسماء المرصعة بالنجوم . ان خير طريقة لحب هذه البلاد التى لا تكف عن لومها هى السفر الى

الخارج ! » . ورمقه أندرو فى عتاب رفيق ، وقال : « الا ترى انه يخلق بك أن تستقر يا فيليب ؟ ! .. انك تقترب من الاربعين ، وبمهارتك .. » . فقاطعه دينى ، وهو يرمقه من طرف عينه : « لا تكن ماكرا هكذا يا سيدى البروفيسور ، فان بوسعى أن أريك يوما ما بعض ألاعيبى ! » ..

وروى للزوجين كيف ان الحظ واتاه فعين جراحا مقيما بمستشفى (ساوث هيرتفوردشاير) ، بمرتب قدره ثلاثمائة جنيه فى العام ، مع عدم تحمله نفقة ما . ولم يكن – بطبيعة الحال – يعتبر هذا المنصب غاية ما يصبو اليه ، ولكنه كان يتيح له كثيرا من العمليات الجراحية ، الامر الذى يمكنه من استثمار مواهبه كجراح .. ريثما يرى ما فى مقدوره أن يفعل .. ومضى يقول : « ولست أدرى كيف أسندوا الى هذا المنصب .. لابد أن يكونوا قد أخطأوا .. » . ولكن اندرو قاطعه قائلا ، فى شىء من الغلظة : « لا ، بل مرد هذا الى لقب دكتور فى الجراحة الذى تحمله .. ان دبلوما من الدرجة الاولى كهذا يصل بصاحبه الى كل شىء ! » . **فغمغم دينى لكريستين : « ماذا فعلت به ؟ .. انه لم يعد كذلك الفتى الذى نسف مجرى الفضلات معى ! »**

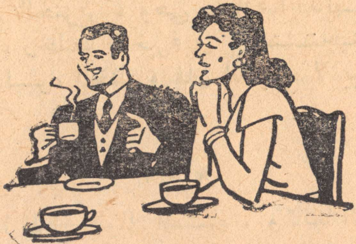
وما لبث « هوب » ان وصل . ولم يكن قد رأى دينى من قبل ، على أن خمس دقائق كانت كافية ليفهم كل منهما صاحبه . فلما جلسا الى المائدة – بعد هذا – كانا قد أجمعا على أن يقسوا فى ممازحة أندرو . فقال فيليب مكتئبا وهو يبسط منشفته : « لا تتوقع أن تحظى بعشاء طيب هنا يا هوب ! .. أجل ، فأنا أعرف صاحبينا هذين من زمن بعيد . اذ اتصلت بالسيد البروفيسور قبل أن يصبح طبيبا ثريا فى (الويست ايند) .. لقد طردا من مسكنهما الاخير ، لانهما كانا يميتان الفيران – التى يجريان عليها تجاربهما – جوعا ! » . فقال هوب : « اننى غالبا ما أحمل فى جيبى

شريحة من لحم الخنزير ، وهي عـادة أخذتهـا عن « بيللى الازرار » ، أثناء رحلتنا الاخيرة فى (كيتشنجينجا) ، ولكنى لا أحمل بيضا لسوء الحظ ، فان الدجاج لا يبيض فى هـذا الفصل ! »

* * *

واستمر هذا المزاح طوال العشاء . وكأنما أثار وجود دينى ما كان لهوب من روح الدعابة .. على ان الحديث لم يلبث ان اتخذ اتجاها جديا ، شيئـا فشيئـا .. فروى دينى بعض مغامراته فى أمريكا الجنوبية . وكانت فى جعبته بضع قصص عن الزنوج ، أضحـكت كريستين . كما أخبرهم هوب بأهم ما حدث فى المجلس . فان « هوينى » قـد وفق أخيرا الى تحقيق مشروعه الذى طالما سعى اليه ، بشأن اجراء التجارب بصدد الاعياء العضلى .. وأردف هوب فى اكتئاب : « وهذا هو عملى فى الوقت الراهن . ولكنى احمد السماء على اننى لن أقضى فى ممارسته سوى تسعة أشهر ، ثم اعتزم ان آتى أمرا . فلقد سئمت العمل وفقـا لآراء الغير ، وتحت اشراف اولئك الـكهول ! » . ثم قال مقلدا فى سخـرية لاذعة : « كم وجدت لى من حامض اللبنيك فى هذه المرة ، يامستر هوب ؟ » .. وصاح : **« اننى أريد أن أعمل لحساب نفسى .. آه ! لو أن لى معملا صغيرا خاصا بى ! »**

وهكذا تحول الحديث الى المسـائل الطبية ، كمـا كانت كريستين ترجو .. وبعـد العشـاء ــ الذى ضم زوجا من البط ، على عكس ما كان دينى يسخر ــ طلبت كريستين ان تظل معهم أثناء احتساء القهوة .. وعبثـا قال لها هوب ان الحديث ثقيل على الاذن الانثوية ، فقد ظلت جالسة ، مسندة ساعديها الى المائدة ، وذقنهـا بين يديهـا ، وهى تصغى فى



صمت ، وقد ثبتت نظراتها على وجه أندرو .. فماذا به يبدو في أول الامـر متحفظـا ، **اذ أحس ــ برغم اغتبـاطه لرؤية فيليب مرة أخرى ــ بأن صديقه القديم لم يحفل بنجاحه ، ولم يقدره ، بل انه كان يستخف به شيئا ما** .. فراح يقول انه قد نجح الى درجة لا بأس بها ، على أية حال ، ولـكن .. ماذا فعل ديني ؟ .. أجل ، أين هو من بلوغ النجـاح ؟ .. حتى اذا أسرف « هوب » في القاء نكاته ومداعباته ، أوشك « أندرو » أن يصيح بزميليه ان يكفا عن الهزء منه .

على ان الحديث لم يلبث أن اجتـذبه دون أن يفطن ، اذ انتقلت اليه العدوى ــ شاء او لم يشأ ــ من زميليه ، فراح يتكلم بحماس يقـارب حمـاسه المعهود . واذ تحـدثوا عن المستشفيات ، انطلق فجأة يبسط رأيه في نظام المهنة برمته ، فقال ممهدا لكلامه : « اليكم رأيي في هذا ! » .. وجذب نفسا طويلا ، لا من سيجارة من تبغ « فرجينيا » الرخيص ــ الذي اعتاد تدخينه في الماضي ــ وانما من سيجار من علبة أخرجها صامدا أمام نظرة « ديني » الساخرة . ثم استطرد يقول : « ان نظام مهنتنا بأسره بال عتيق . وأرجو ان تلاحظا انني لا أحب أن تظنا ــ مهمـا يكن الامـر ــ انني سـاخط على المستشفى الذي أعمل فيه ، فانني أحب العمل في مستشفى « فيكتوريا » ، وأستطيع أن أؤكد لكما اننا نؤدي هناك أعمالا جليلة .. ولكن نظام المهنة هو الملوم .. ما من أحد يرضى به

غير الاطباء الشيوخ الطيبين .. **انه أشبه بحال طرقنا – مثلا – فهو فوضى تدعو الى اليأس . ان مستشفى « فيكتوريا » آيل للسقوط ، ومستشفى « سانت جون » كذلك .. نصف مستشفيات لندن متداعية ، فماذا نفعل لها ؟ ..** نجمع لها البنسات ، ونحصل على بضعة جنيهات أجرا عن الاعلانات التى تلصق على واجهات مبانى المستشفيات : « أفضل بيرة هى بيرة براون » ! .. واذا واتانا الحظ – فى مستشفى فيكتوريا – ففى وسعنا بعد عشرة أعوام أن نشرع فى بناء جناح جديد ، أو دار للممرضات .. وخليق بكما ان تشاهدا أين تنام الممرضات فى الوقت الحالى ! .. لكن ما الفائدة من ترميم هذا الكوخ القديم ؟ .. ما الفائدة من وجود مستشفى لامراض الرئة ، فى قلب مدينة صاخبة يلفها الضباب مثل لندن ؟ .. ياللشيطان ، ان هذا أشبه بالقول بمعالجة التهاب رئوى فى أعماق منجم فحم ! .. وما يقال عن « فيكتوريا » ينطبق على المستشفيات الاخرى ، العامة منها والخاصة . انها وسط ضجيج المرور ، وان حركة « المترو » لتهزها ، كما ان أسرة المرضى ترتج عند مرور الحافلات ! .. ولو اننى دخلتها – وأنا فى صحة جيدة – فلا بد لى من عشر حبات من « الجاردنال » لكى أنام ! .. تصوروا مريضا فى سريره ، وسط هذا الصخب والضجيج ، أثر عملية فتح بطن خطيرة ! .. أو مريضا بالتهاب سحائى ، تبلغ درجة حرارته الاربعين ! »

وغمز فيليب بعينيه – على طريقته الجديدة المحرجة – وقال : « فما العلاج ، اذن ؟ .. انشاء مجلس ادارة للمستشفيات جميعا ، تكون أنت رئيسه ؟ ! » .. فصاح أندرو مهتاجا : **« لا تتغاب ! .. ان اللامركزية هى العلاج .. انها ليست مجرد كلمة ، وانما هى نتيجة لكل مارأيت واختبرت ، منذ وطئت قدماى لندن .** لماذا لا تكون مستشفياتنا الكبرى وسط حقول من الخضرة خارج المدينة ، كأن تكون على مسافة

خمسة عشر ميلا منها ؟ .. فى منطقة مثل (بينهام) ، حيث مازال هناك ريف ، وهواء ، وهدوء .. انها لا تبعد عن هنا أكثر من عشرة أميال . لا تتصور ان هناك صعوبات بالنسبة للمواصلات . ثم ، لماذا لا ينشأ خط خاص للمستشفى .. خط يتجه اليها مباشرة ، وتجرى عليه مركبات لا تحدث ضجيجا ، وتقلك الى بينهام – باللذات – فى ثمانى عشرة دقيقة ؟ .. ان هذا يبدو لى تقدما ، اذا عرفنا ان أسرع سيارة للاسعاف تنقل المريض – فى أية حالة عاجلة – فى اربعين دقيقة ، فى المتوسط .. وقد يقال أننا اذا أبعدنا المستشفيات، حرمنا كل حى من المرافق الطبية .. يا للسخف ! ان المستوصف سيبقى فى الحى ، والذى ينتقل هو المستشفى . وأقول – ونحن فى هذا الصدد – ان اقامة مستشفى لكل حى على حدة ، ليست سوى ورطة تدعو لليأس ! فلقد حدث عندما جئت الى هنا ان تبينت ، مذهولا ، ان المكان الوحيد الذى أستطيع ادخال مرضاى فيه يقع فى شرق لندن ، فى حين اننى فى غربها .. وكذلك نستقبل فى « فيكتوريا » مرضى من كافة الجهات : من (كنزينجتون) ، ومن (ايلينج) ، ومن (ماسويل هيل) .. لم يحاول أحد تحديد مناطق خاصة، بل ان كل شىء يتدفق على قلب المدينة . واصارحكما القول : أن هناك فوضى لا تكاد تصدق . فما الذى بذل لعلاجها ؟ لا شىء .. لا شىء مطلقا ! اننا لا نزال نسير على النهج القديم ، ننظم أياما لجمع التبرعات ، ونذيع النداءات ، وننشر الطلبة فى أزياء مختلفة لجمع البنسات . ان من ميزات الدول الاوربية الحديثة انها تعمل . أما نحن .. يا الهى ! لو أن الامر بيدى لهدمت « فيكتوريا » ، وأقمت مستشفى جديدا لمرضى الرئة فى (بينهام) ، وأنشأت خط مواصلات مباشرا خصيصا له . وأقسم ان نسبة الشفاء ستزيد ! » .

ولم يكن هذا سوى مدخل لصميم الموضوع ، حمى وطيس

النقاش ، فعاد فيليب الى فكرته القديمة .. **الى خطل مطالبة الطبيب العام ـ الذى لم يتخصص فى فرع معين ـ بأن يكون كالساحر ، وبأن يتحمل مسئوليات علاج كل الحالات ، الى ان يواجه تلك اللحظة التى يضطر فيها الى الاستنجاد باخصائى لم يكن قد رآه طيلة حياته ، فيأتيه هذا فى سيارته ، ويتقاضى خمسة جنيهات ، ليقول له ان الفرصة قد فاتت ، ولم يعد فى الامكان عمل شىء ما !**

وشرح « هـوب » ـ فى غير تحفظ أو تنميق ـ حالة « البكتريولوجى » الشاب ، الذى يقع بين الاساليب التجارية والروتين ، بين المؤسسة الصيدلية التى تؤجره لصنع الادوية ـ من جانب ـ وبين مجلس قوامه شيوخ مخرفون من جانب آخر ! .. وراح يقول وهو ساخط : « تصوروا اخوان ماركس يجلسون فى سيارة مهشمة ذات أربع عجلات للقيادة ، وقد زودت بعدد لا يحصى من أجهزة التنبيه ، يتصاعد منها ضجيج يصم الآذان ! .. هكذا نحن فى مجلس العمل فى مصانع الفحم والتعدين ! »

ولم يكفوا عن الحديث الا بعد منتصف الليل ، وحينئذ وجدوا على المائدة ـ على غير انتظار ـ كمية من الشطائر والقهوة . فهتف هوب فى أدب ، ثم ـ بتعبير دينى المازح ـ عن انه فتى عاطفى : **« أوه يا مسز مانسون ! .. لا شك اننا أرهقناك كثيرا . يا للجوع الذى يحدثه الافراط فى الكلام !.. سأقترح هذا على « هوينى » كميدان جديد للابحاث : تأثير الارهاق الذهنى على افراز العصير المعدى . ها ، ها ، ها ! »**

واذ انصرف هوب قائلا أنه أمضى سهرة ممتعة ، بقى دينى بضع دقائق أخرى ، بوصفه صديقا أقدم . حتى اذا برح أندرو الغرفة ليطلب له سيارة « تاكسى » بالتليفون ، قدم دينى لكريستين شالا اسبانيا صغيرا ، وهو يقول : « الارجح ان البروفيسور سيقطع رقبتى .. ولكن هذا لك ، فلا تقولى

له شيئا قبل أن أصبح فى أمان ، بعيدا عن متناوله » . وأوقفها عن المضى فى عبارات الشكر ، اذ لم يكن يضايقه شىء قدر هذا النوع من المجاملات . واستطرد يقول : « من الغريب أن كل هذه الشالات ترد من الصين ، فهى ليست فى الحقيقة اسبانية . لقد حصلت على هذا من شنغهاى ! » . وما لبثا ان سمعا وقع قدمى أندرو عائدا بعد التحدث بالتليفون ، فنهض دينى . وجانبت عيناه الطيبتان عينى المرأة الشابة ، وهو يقول لها : « لست شديد القلق من ناحيته ، ولكن علينا أن نحاول اعادته الى الحالة النفسية التى كان عليها فى بلينيللى .. أليس كذلك ؟ »

— ١٠ —

• فى أوائل أجازة عيد الفصح ، كتبت مسز ثورنتن الى أندرو ترجوه الحضور لرؤية ابنتها فى فندق « براون » ، وتقول فى عبارة وجيزة أن قدم « سيبيل » لم تشف ، وأنها — وقد تأثرت بالاهتمام الذى أبداه لها حينما التقيا عند مسز لورنس — ترد الوقوف على رأيه بصددها . فلبى الدعوة مزهوا بالثناء الموجه لشخصه .. ومن فحص قدم «سيبيل»، تبين أن الامر غاية فى البساطة ، وان كان يتطلب جراحة بدون ابطاء .

واعتدل مبتسما للفتاة التى جلست أمامه — على حافة السرير — عارية الساقين ، وقد شرعت فى ارتداء جوربيها الطويلين الاسودين . وشرح الحالة لامها قائلا : « لقد تضخمت العظمة ، وقد يظل اصبعها مقوسا اذا لم تجر لها جراحة على الفور . وانى أنصح بالجراحة ! » . فأجابته مسز ثورنتن ، التى لم يدهشها هذا الرأى : « هذا ماقاله طبيب المدرسة ، ونحن على استعداد لذلك ، ومن الممكن ادخال « سيبيل » أحد المستشفيات الخاصة فى لندن . ولكن .. اننى أثق بك

يا دكتور ، وأكون شاكرة لك لو اتخذت بنفسك التدابير اللازمة . من الذى تشير على أن اتصل به ؟ »

وأربك هذا السؤال المباشر أندرو ، فقد كان يمارس الطب العام ، وقد مكنه هذا من ان يتعرف بعدد من كبار الاطباء ، ولكنه لم يكن على صلة بأى جراح فى لندن . وبغتة اتجه تفكيره الى « ايفورى » ، فقال فى ابتهاج : « قد يستطيع مستر ايفورى أن يتولى الامر .. ان كان لديه متسع من الوقت ! »
وكانت مسز ثورنتن تعرف مستر ايفورى بالشهرة .. بالتأكيد . أليس هو الذى تحدثت عنه الصحف — فى الشهر الماضى — لانه ذهب الى (القاهرة) فى طائرة ، لعلاج مريض أصيب بضربة شمس ؟ ! .. لقد كان رجلا معروفا ، وانها لفكرة رائعة أن يعهد اليه بالامر . **ولم يكن يعيب هذه الفكرة سوى انه لابد لسيبيل من أن تنزل فى مستشفى « ايدا شيرينجتون » الذى يرتبط به ايفورى .. على ان كثيرين من أصدقاء الام كانوا قد عولجوا فى هذا المستشفى ، فلم تر داعيا لارسال ابنتها الى سواه !**

واذ عاد أندرو الى داره ، اتصل تليفونيا بايفورى مترددا ، كرجل يتلمس طريقا للتقارب . على أن لهجة ايفورى الودية العذبة طمأنته . فاتفقا على الذهاب لرؤية المريضة فى اليوم التالى . وقال ايفورى أنه مع علمه بأنه لم يكن ثمة سرير خال فى مستشفى « ايدا شيرينجتون » ، الا انه سيسعى جهده — ان لزم الامر — لاقناعها بايجاد مكان لمس ثورنتن .

وفى صباح اليوم التالى ، نقلت سيبيل الى المستشفى ، بعد أن أقر ايفورى تماما كل ما قاله أندرو ، مضيفا أنه لابد من الجراحة فورا .. وبعد يومين أجريت العملية . وكان أندرو هناك ، فقد الح عليه ايفورى — فى ود وتلطف — كى يحضر الجراحة .. ولم تكن ثمة صعوبة فى الامر .. ولو ان هذه الحالة عرضت لاندرو ايام كان فى (بلينيللى) ، لاجرى الجراحة

بنفسه ، فى الواقع .. وبالرغم من أن ايفورى لم يكن يميـل الى التعجـل ، الا أنه أجراها بمهارة فائقـة .. وكان ــ فى معطفه الابيض ــ متزنا ، قويا ، صارم الوجه .. كان « تشارلز ايفورى » مثالا لتلك الصـورة التى تجـول فى مخيلة المـرء لجراح كبير ، فقـد كان ذا يدين دقيقتين ، ثابتتين ، كتينك اللتين يرسمهما الخيال لابطال المبضع . وأخذ أندرو ــ الذى وقف فى الجانب المقابل من المائدة ، مرتديا هو الآخر المعطف الابيض ــ ينظر اليه فى حسد واحترام !

* * *

وعندما غادرت « سيبيل » المستشفى ــ بعد خمسة عشر يوما ــ دعى أندرو للغداء مع ايفورى فى نادى « ساكفيل » . وكان الغداء شهيا جدا ، وأثبت الجراح أنه محدث ممتع ــ فى غير ما كلفة ــ يعرف تماما حوادث الساعة التى تثير ضجة ، ومن ثم فقـد كان قديرا على أن يعـادل سـواه من رجال المجتمع .. **وكانت قاعة الطعام العليا ــ فى « ساكفيل » ــ قد تألقت فيها الثريات ، وغصت بالشخصيات البارزة ، فأخذ ايفورى يذكر لاندرو اسماء هذه الشخصيات .. وتاه أندرو فخرا بأن يكون فى عين المكان الذى ضمهم .. وهذا ما كان ايفورى يبتغيه !**

وقال الجراح : « يجب أن تسمح لى بأن اقترح على جمعيتنا العامة ــ فى اجتماعها القادم ــ قبـولك فى عضوية النادى . فسـوف تلتقى هنـا بأصدقاء عديدين : فريدى ، وبول ، وأنا !.. وبالمناسبة ، ان « جاكى لورنس » عضو .. ان زواجه طريف حقا ، فهو وزوجه على أكمل ود ، غير أن كلا منهما يمضى فى الحياة وفقا لهواه !.. يسعدنى باخلاص أن أزكيك لدى الجمعية العامة . الواقع يا عزيزى اننى احسست انك كنت على شىء من الارتياب نحوى ، ولعل مرد تشككك الى طبيعتك الاسكتلندية الحـذرة .. أليس كذلك ؟ .. اننى

لا أعمل فى أى مستشفي ، كما تعلم ، اذ اننى اوثر الاستقلال . هذا الى انى يا صديقى العزيز جد مشغول . ان بعض الشيوخ الذين يعملون فى المستشفيات لا يحظى بمريض واحد فى الشهر ، خارج المستشفى ، أما أنا ، فأحظى بعشرة فى الاسبوع ، فى المتوسط !.. وبهذه المناسبة ، سنتلقى قريبا أنباء من آل ثورنتن ، فدعنى أدبر كل شيء .. انهم أناس من الطراز الاول ، وما دمنا نتكلم فى الموضوع ، الا ترى أنه يجب استئصال اللوزتين لسيبيل ؟.. هل فحصتهما ؟ »

ـ كلا .. لم افحصهما .

ـ أوه ! كان يجب أن تفعل يا صغيرى ، فهما متضخمتان ، تفرزان افرازات سامة . لقد سمحت لنفسى ـ وأرجو الا يغضبك هذا ـ بأن أقول انه يمكننا استئصالهما لها عندما يجيء الصيف !

وفيما كان اندرو عائدا الى داره اخذ يفكر فى نفسه :

« يالايفورى من فتى جذاب ، لابد لى من أن أشكر هامبتون اذ عرفنى به . لقد نجحت هذه الجراحة بنحو يدعو الى الاعجاب .. وان أسرة ثورنتن لمغتبطة بذلك أيما اغتباط ، وهذا خير تقدير يرتجى ! »

وبعد خمسة عشر يوما ، كان أندرو يتناول الشاى مع كريستين ، واذا بخطاب من ايفورى يقول فيه :

« عزيزى مانسون : لقد تكرمت مسز ثورنتن بتسوية الحساب . وانى اذ أرسل لاخصائى التخدير ما يخصه ، فانى أرسل لك ـ انت الآخر ـ حصتك لقاء ما قدمت لى من عون صادق فى الجراحة .. ولسوف تحضر « سيبيل » لزيارتك فى نهاية هذا الفصل من العام ، فأرجو أن تذكر لوزتيها اللتين حدثتك عنهما قبلا .. وان مسز ثورنتن لمغتبطة بنتيجة العلاج .

صديقك المخلص : ت .ا. »

وكان مع الخطاب اذن مصرفى بعشرين جنيها ، فتأمله أندرو مندهشا ، اذ أنه لم يكن قد عاون ايفورى فى الجراحة بشىء . ولكن ، شيئا فشيئا ، عاودته حمى حب المـال . وفى ابتسامة رضى ، أعطى كريستين الاذن والخطاب ، قائلا : « بديع هذا من ايفورى ، أليس كذلك يا كريس ؟.. أراهن ان دخلنا سيبلغ فى هذا الشهر رقما قياسيا » . فقالت كريستين : « ولكنى لا أفهم .. » ، وبدا عليها الارتباك ، وهى تمضى قائلة : « أهذه قيمة اتعابك من مسز ثورنتن ؟ » . فضحك قائلا : « كلا ، يا بلهاء ! بل هو مبلغ اضافى صغير ، لقاء الوقت الذى اقتضتنيه الجراحة ! »

– أتعنى أن مستر ايفورى يعطيك جزءا من اتعابه ؟

فاحمر وجهه ، وقد وجد نفسه بغتة فى موقف الدفاع ، وقال : « يالله ، كلا !.. هذا محظور حظرا تاما ، فلا يمكن أن نفكر فيه !.. أنت اذن لا تدركين .. لقد حقت لى هذه الاتعاب لوجودى هناك ، ولحضورى الجراحة .. تمـاما كما تحق لزميل تولى تخـدير المريضـة . ان ايفورى يدخل فى الحساب الذى يقدمه لمريضه كل شىء !.. وأراهن انه كان حسابا باهظا ! » . فوضعت الاذن على المائدة فى تخاذل وأسى ، وقالت : « يبدو أن هذا مبلغ جسيم ! » .. فختم النقاش بادى الغضب ، وهو يقول : « ولم لا ؟.. ان اسرة ثورنتن عريضة الثراء ، وهذا المبلغ هو – على الارجح – بمثابة ثلاثة شلنات ونصف بالنسبة لاى مريض فى عيادتنا » .

وظلت بعد خروجه تحملق فى الاذن المصرفى فى وجل مرير ، اذ أنها لم تفطن الى أن هناك تفاهما مهنيا بين ايفورى واندرو . **وبغتة ، عاودها ضيقها القديم كله . فيم اذن كانت السهرة مع دينى وهوب ، وأى أثر كان لها فى نفسه ؟ .. لكم أصبح متكالبا على المال ، يحبه بنهم شديد !..** كأنما كان عمله فى مستشفى فيكتوريا شيئا لا يذكر بجانب تطلعه القاتل الى

النجاح المادى !.. وكانت قد لحظت انه أصبح يلجأ ـ حتى فى عيادته الخاصة ـ الى الادوية الجاهزة بازدياد مطرد ، وانه بات يمطى تذاكر طبية لاشخاص لم يكن بهم أى مرض ، ملحا عليهم فى أن يعودوا لاستشارته مرارا .. وراحت الوساوس تخامر كريستين وهى جالسة أمام الاذن الذى أرسله ايفورى ، وقد أخذت مشاعرها تتجلى فى اختلاجات وجهها .. وتصاعدت الدموع وئيدا الى مقلتيها ، وهى تقول فى نفسها ان من واجبها أن تفضى الى أندرو بذات صدرها ، دون امهال !

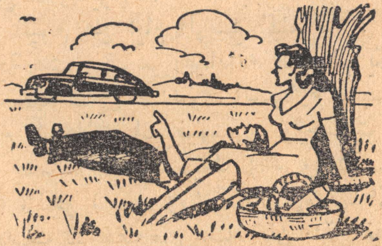
* * *

وفى ذلك المساء ذهبت اليه بعد انتهاء العيادة ، وهى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وبادرته قائلة : « هلا اسديت لى صنيعا يا أندرو ؟.. ليتك تصطحبنى الى نزهة بالسيارة فى الريف ، فلقد وعدتنى بهذه النزهة يوم اشتريت السيارة ، ولكن الظروف لم تمكنا من ذلك طوال فصل الشتاء ! » . فرمقها بنظرة غريبة ، ثم قال : « اذن .. أوه ! نعم ، حسن ! »

وجاء الطقس ـ فى يوم الاحد ـ بديعا كما كانت كريستين ترجو .. كان اليوم من أيام الربيع المشرقة . وفرغ أندرو ـ قرب الحادية عشرة ـ من عياداته التى لم يكن منها بد ، فبرحا الدار ومعهما ـ فى صندوق السيارة ـ بساط صغير ، وسلة بها لوازم الرحلات الترفيهية . وأحست كريستين ـ حينما عبرا جسر (هامرسميث) ، وانطلقا فى طريق (كينجستون) ، نحو (سورى) ـ بأن روحها المعنوية أخذت تصفو ، وانها بدأت تتخفف من عبء كان يثقل نفسها . فمنذ زمن طويل لم يستمتعا معا بجمال الريف .. بنسيمه المعطر ، وخضرة حقوله الزاهية ، وفتنة زهره المتفتح ، وشجره الباسق .. وقالت له فى حنان لم تبده منذ أسابيع : « لاتسرع هكذا يا حبيبى ، فلكم تبهرنى هذه البقعة ! » .. فلقد كان كمن

لا هم له سوى أن يسبق كل السيارات الاخرى .. وبلغا (شير) حوالى الساعة الواحدة ، فاذا القرية ـ بأكواخها القليلة ذات القباب الحمراء ، وجدولها ينساب فى هدوء ، وقد انتشرت على جانبيه الطحالب ـ لم تكتظ بعد بأفواج السياح الذين يفدون اليها صيفا .

وصعدا الى غابة فوق الهضبة ، فتركا السيارة قرب درب نبتت فيه الاعشاب ، وفرشا البساط الصغير فى العراء ، ونعما بعزلة لم يكن يقطعها عليهما سوى تغريد الطيور .. فأكلا الشطائر تحت أشعة الشمس ، وشربا القهوة من « الترموس » الذى جاءا به .. **وكانت أزاهير الربيع تنمو حولهما فى خمائل بديعة ، فتاقت كريستين الى أن تقطف باقة منها ، تدس وجهها فى نضرتها العذبة ، وتملأ رئتيها بعطر شذاها** . أما أندرو ، فقد استلقى مغمضا عينيه شيئا ما ، ورأسه اليها . وكان الضيق ـ الذى أثقل نفس كريستين ـ قد انقشع ، فغمرت السكينة روحها . ليت حياتهما معا تشبه دائما هذه اللحظات !



ومكث أندرو برهة يتأمل السيارة بعينين يداعبهما النوم ، ثم قال بغتة : « لا بأس البتة بسيارتنا القديمة هذه ، أليس كذلك يا كريس ؟.. أعنى بالنسبة لما انفقناه عليها . ولكنا بحاجة الى سيارة غيرها سأشتريها من المعرض ! » . فارتجفت

لما سمعت ، وتجدد قلقها اذ تبينت أنه كان ماضيا فى طريقه .. وقالت : « ولكنا لم نشتر هذه الا منذ وقت قليل .. وهذا فيما يبدو لى كل ما يمكننا التطلع اليه ! »

ـ أوه ! انها بطيئة جدا . ألم تلحظى كيف سبقتنا تلك السيارة « البويك » ؟ أريد سيارة من « الصالون » ذات « الفتيس » !

فهتفت متسائلة : « ولماذا ؟ » . وكان جوابه : « بل .. ولم لا ؟ ان امكانياتنا تسمح بهذا . أتعرفين يا كريس اننا نسير سيرا حسنا ؟ » وأشعل سيجارة ، مبديا كل اغتباط ، وهو يمضى قائلا : « اذا لم تكونى قد أدركت هذا يا عزيزتى المعلمة الصغيرة فى (بلينيللى) ، فاعلمى اننا فى طريقنا بسرعة الى الثراء ! » . ولم تجب على ابتسامته ، اذ سرت برودة قارسة فى جسمها الهادىء ، الدافىء . وانتزعت قبضة من الحشائش ، فمضت تفتتها فى حركة عصبية ، وتلقى بفتاتها فوق البساط . ثم قالت فى تؤدة : « اترانا فى حاجة يا حبيبى الى أن نكون ثريين ؟.. أما عنى ، فانى أعرف جيدا أن الجواب : « لا » . ففيم الحديث بلا انقطاع عن المال ؟.. **أواه ! لكم كنا سعيدين حين لم يكن عندنا منه سوى النزر اليسير !.. ولم نكن نتكلم عنه فى أى وقت . أما الآن ، فلا حديث لنا الا المال ! »** .

وابتسم مرة أخرى ، ابتسامة المستعلى ، وقال : « بعد أن قضينا سنوات نخوض فى الوحل ، ونقتات بغث الطعام ، ونبتلع السباب الذى تقذفنا به لجان من البلهاء ، ونعالج نساء فى غرف تتقزز منها النفس .. بعد هذا كله ارى للخروج من هذه الحال أن نرقى بمستوانا !.. فهل هناك أى اعتراض ؟ » .. فقالت : « لا تسخر منى يا حبيبى ، فما عهدتك ــ قبل الآن ــ تتكلم هكذا . اواه !.. انت اذن لا ترى انك تحترق بلهب الاسلوب الذى طالما هاجمته وفزعت منه ؟! » . وكانت بادية التأثر ، يشى بذلك امتقاع وجهها على نحو كان يعتصر

الفؤاد : « **أنت اذن لا تذكر كيف كنت تتكلم عن الحياة ، وكيف كنت تراها صراعا ضد المجهول وتسلقا لجبل ، وكأن الانسان مضطر الى أن يستولى عنوة على قلعة يتمثلها قائمة على القمة ولا يراها ! »** .

قال وقد أخذ الضيق بخناقه : « آه ! لقد كنت اذ ذاك غرا ، أبله ، أهرف بآراء خيالية . أجيلى بصرك حولك ، ترى أن كل الناس على هذه الحال يجمعون ويكدسون ما وسعهم الجهد والطاقة .. ليس هناك من عمل غير هذا ! » .. وكانت تلهث لهثا خفيفا ، وهى تشعر بأنها اذا لم تتكلم — فى هذه المناسبة — فلن تتكلم أبدا . وقالت : « ليس هذا فقط يا عزيزى .. اصغ الى ! ان هذا التبدل .. هذا التبدل الذى طرأ عليك ، جعلنى فى غاية التعاسة . وقد لحظ دينى — هو الآخر — هذا .. ان هذا التبدل يباعد بيننا ، فأنت لم تعد أندرو مانسون الذى تزوجته ! .. آه ! ليتك تعود الى ما كنت عليه ! »

وصاح فى غيظ : « ما الذى صدر منى ؟.. هل ضربتك ؟ هل أدمنت الخمر ؟ هل قتلت انسانا ؟.. اذكرى لى جريمة اقترفتها ! » . فقالت فى يأس : « ليس الامر أمر وقائع محددة ، وانما هو يتصل بمسلكك بوجه عام يا عزيزى .. خذ مثلا هذا الاذن المصرفى الذى أرسله اليك ايفورى . قد يكون الشأن تافها فى الظاهر ، ولكنه فى الحقيقة والواقع .. أوه ! **لو اننا تعمقنا الاشياء ، لوجدنا انه امر بغيض ينطوى على الجشع ، ويجانب الامانة والشرف !** » .. وأحست بأعصابه تتوتر ، ثم استوى فى جلسته ، وحملق فيها باستنكار .. وهتف : « بحق السماء ، ما الذى يثير هذا الموضوع ثانية ؟!.. أى سوء ارتكبته بقبولى ذلك الاذن ؟ »

واستبدت بها كل الانفعالات التى ازدحمت فى نفسها طيلة الاشهر الاخيرة ، فأحست بها تخنق حججها ، وهتفت : « اذن ،

فأنت لا ترى فيه سوءا ؟ » . ثم انفجرت بغتة فى البكاء ، وصاحت فى عصبية : « بالله لا تبع نفسك يا حبيبى ! » . فصر على أسنانه فى حنق ، ثم تكلم متئدا ، فى لهجة حازمة : « لآخر مرة ادعوك الى التخلى عن هذا الغباء العصبى . الا تستطيعين مساعدتى والكف عن تعويق تقدمى ، وعن التذمر بلا انقطاع ؟ » . **فقالت منتحبة : « اننى لا أشاكسك ، وقد أردت أن اكلمك من قبل ، ولكنى لم استطع ! »** . وعيل صبره ، فصاح فجأة : « اذن فالزمى الصمت !.. اتسمعين ؟ كفى . انك تعانين أزمة نفسية ، وتتكلمين كما لو اننى كنت وغدا سافلا !.. لست أبغى سوى الوصول ، واذا كنت راغبا فى المال ، فانما أرغب فيه لبلوغ هدف معين !.. أن الناس يحكمون عليك بما انت عليه ، وبما تملكين ، فاذا كنت معدمة ، كان عليك أن تخضعى لاوامر سواك .. لقد عرفت هذا بالقدر الكافى فيما مضى ، ولسوف أكون انا الآمر فى المستقبل .. أفهمت أخيرا ؟.. لا تكلمينى بعد الآن عن هذه السخافات للعينة ! » . **فأجابت باكية : « حسن جدا ، حسن جدا . لن أقول شيئا بعد الآن ، ولكنى أؤكد لك انك ستندم على هذا يوما ما ! »**

وأفسد عليهما هذا النقاش العنيف نهارهما .. أفسده على كريستين بنوع خاص . ومع أنها جففت دمعها ، وقطفت كثيرا من أزهار الربيع .. ومع أنهما قضيا ساعة أخرى على السفح المشمس ، وعرجا ـ فى العودة ـ لتناول الشاى فى مشرب « ذى لافاندر ـ ليدى » ، وتكلما عن أشياء تافهة فى وداد مصطنع .. مع كل هذا ، فان بهجة يومهما تلاشت . وكان وجه كريستين ـ وهما يعودان بالسيارة ، وقد أخذ الليل يسدل أستاره ـ شاحبا مكتئبا . واستحال غضب أندرو شيئا فشيئا الى شعور بأنه قد أهين .. والا ، فلماذا تنفرد

« كريس » دون الجميع بالثورة عليه ؟.. كم من نساء غيرها ، نساء فاتنات ، يعجبن بنجاحه السريع !

* * *

بعد بضعة أيام اتصلت به فرانسيس لورنس تليفونيا . وكانت قد قضت الشتاء فى (جمايكا) ، وقد تلقى منها عدة مرات - خلال الشهرين الاخيرين - خطابات تحمل عنوان فندق « ميرتل بانك » . أما وقد عادت ، فقد كانت مشوقة الى أن ترى اصدقاءها ، وتشع عليهم ما استوعبته من أشعة الشمس ! .. وقالت له مازحة - فى التليفون - انها كانت تواقة الى أن تراه قبل أن تفقد سمرتها !

وذهب ليتناول الشاى معها .. وكانت - كما ذكرت له - قد اكتسبت سمرة فاتنـــة . **وضاعف من ابتهـاجه برؤيتها ترحيبها الذى كان يقرأه فى عينيها ، تينك العينين اللتين لم تكونا تكترثان بناس كثيرين ، واللتين كانتا تحتفلان به فى ود فائق .** والواقع انهما تكلما كصديقين حميمين ، فراحت تحدثه عن رحلتها ، وعن حدائق المرجان ، وعن الاسماك التى رأتها خلال قوارب ذات قاع من الزجاج ، وعن المناخ البـديع .. وتحدث اليها بدوره عن تقدمه . ولعله أبان من خلال كلماته عن شيء من أفكاره الحقيقية ، اذ أنها لم تلبث أن قالت له فى خفة : « **يالك من عبوس ، جاد الى درجة مخجلة !.. اهذا ما يحدث لك حينما أغيب ؟.. كلا ، الحق اننى أعتقد ان هذا راجع الى انك تعمل كثيرا . ايجب حتما أن تظل ابدا تؤدى هذا العمل الكلينيكى ؟..** أما أنا فاحسب أن الوقت قد حان لتتخذ لك مكتبا فى غرب لندن .. فى شارع (ويمبول) مثلا ، أو شارع (ويلبيك) ، تقدم فيه المشورات الطبية ! » .

واقبل زوجها فى تلك اللحظة .. وكان طويل القامة ، معنيا بمظهـره وحركاته . واومأ محييـا أندرو - الذى أصبح

يعرفه بعد ان لعبا البريدج معا مرة أو مرتين فى نادى « ساكفيل » — وقبل بسرور قدحا من الشاى قدمته اليه زوجته . وبالرغم من أنه قال متلطفا انه لم يكن يحب أن يقطع عليهما حديثهما ، الا انهما تحولا عن هذا الحديث فعلا ، وراح ثلاثتهم يتحدثون متفكهين عن آخر مبتكرات الدكتور « رمبولد بلين » !

على أن أندرو شغل ، وهو عائد بسيارته بعد نصف ساعة الى (تيراس تشيسبورو) ، بالفكرة التى أوحت بها مسز لورنس : لماذا لا يستأجر مكتبا للاستشارات فى شارع (ويلبيك) ؟.. لا ريب أن الوقت قد حان لذلك . وهو لن يترك بحال عملاءه فى (بادنجتون) ، اذ أن دخل عيادته أكثر من أن يضحى به فى غير تبصر ، ولكن من الميسور التوفيق بين العيادة ومكتب يتخذه فى (الويست ايند) ، والافادة من هذا العنوان البراق المغرى فى مراسلاته ، اذ يطبعه على ورق خطاباته وقوائم الحساب التى يبعث بها الى مرضاه !

وأخذت الفكرة تختمر فى نفسه ، وتحفزه الى غزوات أروع . بالفرانسيس من امرأة عالية القدر، تواقة الى مساعدته — كما كانت مس ايفريت — وان فاقتها جمالا وفتنة .. **ثم أنه كان على أتم وفاق مع زوجها ، وليس ثمة ما يخجله أمامه ، فلا حاجة به الى أن يأتى الى دارهما وكأنه لص جاء يسرق الزوجة من زوجها !... آه ! ان الصداقة شىء جميل !**

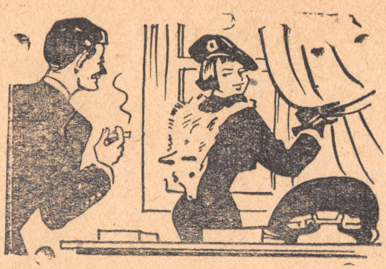
وأخذ يبحث عن مكتب يلائمه — فى (الويست اند) — دون أن يصارح كريستين بشىء . حتى اذا وجد ما ينشد ، بعد نحو شهر من البحث ، قال لها يوما ، وهو يتأمل صحيفته الصباحية فى ارتياح بالغ وفتور كثير : « قد يعنيك أن تعرفى اننى استأجرت فى شارع (ولبيك) مكتبا ، أستقبل فيه المرضى من الطبقة الرفيعة ! »

— ١١ —

• أحس أندرو — بعد أن استقر فى مكتبه الجديد ، فى (٥٧ شارع ولبيك) — بشعور جديد بالانتصار. وقال لنفسه مزهوا : « لقد وصلت .. أخيرا وصلت ! » .. ولم تكن الحجرة كبيرة جدا ، ولكنها — بفضل شرفتها — كانت وفيرة الضوء ، الى جانب الميزة الهامة التى تمثلت فى أنها كانت تقع بالطابق الاول . فان أكثر المرضى يكرهون صعود السلم . وكانت قاعة الانتظار مشتركة بين أندرو وعدد من الزملاء الذين كانت لافتاتهم تلمع الى جانب لافتته على الباب الخارجى . ولكن المكتب كان له وحده .. وما أن وقع عقد الايجار — فى التاسع عشر من ابريل — حتى صحبه فريدى هامبتون لاستلام مقره الجديد .

وكان فريدى جزيل العون له فى اتخاذ التدابير الاولية ، فقد عثر له على ممرضة لائقة — من صديقات الممرضة التى تعمل عنده فى شارع (الملكة آن) — وتدعى « شارب » . ولم تكن جميلة ، بل كانت متوسطة السن ، ذات محيا يوحى بالخشونة ، ولكنه ينم عن كفاءة ومقدرة . وقد برر فريدى اختياره اياها بهذا الايجاز : « **أن الممرضة الجميلة هى آخر ما يلزم لطبيب ، وأنت تدرك — أيها الزميل الكهل — ما أعنى !.. العبث عبث ، والجد جد ، ولا يمكن الجمع بينهما .. فليس منا من يمارس المهنة للذاته !** .. انك تدرك هذا بذكائك .. وبنفسى شعور بأننا سنعمل معا فى تعاون أوثق ، بعد أن أصبحت قريبا منى ! »

وبينما كانا يتجادلان فى أمر تنسيق المكتب ، ظهرت مسز لورنس بغتة .. كانت مارة بالمبنى ، فدخلت مرحة لتتفقد اختيار أندرو .. هكذا كانت لها طريقة لطيفة فى الظهور مصادفة — فى أى وقت — دون أن تفرض نفسها او تتطفل !..



وكانت – فى ذلك اليوم – رائعة الحسن بنوع ملحوظ ، ترتدى « تايير » اسود ، وعلى كتفيها فراء بديع . ولم تمكث طويلا ، بيد أنها أبدت – فيما يتعلق بالزخرف وستائر النافذة وبالطلاء الذى خلف مكتبه – آراء تنم عن ذوق أرقى بكثير من ذوق فريدى وأندرو معا !.. **ثم انصرفت الشابة الموفورة الحيوية ، فبدت الغرفة خالية موحشة . وقال هامبتون : « اذا كنت قد رأيت فى حياتى فتى سعيدا ، فهو أنت !.. انها امرأة غضة جميلة ! »** . وارتسمت على وجهه امارات الحسد ، واستطرد قائلا : « ما الذى قاله جلادستون فى سنة ١٨٦٠ ، عن أمثل طريقة لدفع الانسان قدما فى مهنته ؟ »

– لست أدرى ما الذى ترمى اليه ؟!

بيد أنه – حين تم ترتيب الغرفة – اضطر الى الاقرار مع فريدى ومع فرانسيس ، التى جاءت تتفقد نتيجة ارشاداتها ، بأن المكتب أصبح يبدو حديث الطراز ، يوحى بالجو المنشود ، بحيث يستطيع مع هذا الزخرف أن يحدد اتعابه بثلاثة جنيهات ، كمستوى معقول .

وكان عدد الرواد قليلا فى البداية . غير أنه – بفضل خطاباته الرقيقة الى الاطباء الذين كانوا يرسلون له مرضى فى مستشفى فيكتوريا – ما لبث أن نسج لنفسه شبكة من الاطباء المعارف ، امتدت الى جميع أحياء لندن ، فجلبت له

مرضى ، وأصبح جد مشغول ، ينطلق بسيارته السريعة من (تيراس تشيسبورو) الى مستشفى فيكتوريا ، ومنه الى شارع (ويلبيك) ، فضلا عن جولة كان يعود خلالها قائمةطويلة من المرضى فى بيوتهم .. وأخـذت عيادته تزدحم ــ فى كل وقت ــ بالمرضى ، حتى بات مضطرا الى العمـل يوميا حتى العاشرة مساء .

وأصبح دخله ــ بعد هذا النجاح ــ يغطى كافة نفقاته ، ويسرى فى عروقه كالاكسير . وبالرغم من كثرة مشاغله، فانه استطاع أن يذهب الى « روجرز » ليعد له ثلاث بذلات جديدة ثم الى صانع اقمصة فى شارع (جارمينى) أرشده اليه هامبتون . وزادت شهرته فى المستشفى . ولاشك أن الوقت الذى كان يخصصه لمرضى العيادة الخارجية قل عن ذى قبل ، بيد أنه كان يعلل نفسه بأن خبرته كانت خير عوض عن الوقت الذى اقتطعه ! .. وحتى مع أصدقائه ، كان كثيرا ما يبدو متعجلا ، وكان يعتذر عن ذلك قائلا برقة أخاذة ، وبابتسامة يحذقها : « يجب أن أذهب يا صديقى ، فان الظروف تدفع ســاقى دفعا ! »

* * *

بعد خمسة أسابيع من اســتقراره فى مكتبه الجـديد ، جاءته ــ ذات مساء ــ امرأة مسنة تستشيره لالم فى حنجرتها . ولم يكن لديها سوى التهاب بسيط فى الحنجرة ، بيد أنهـا كانت متشككة ، فرغبت فى استشارة طبيب ثان . وجـرح هذا كبرياء أندرو شيئا ما ، فأخـذ يفكر فى طبيب يوصيها بالذهاب اليه .. ورأى من السخف أن يضيع بها وقت رجل مثل سير روبرت آبى . وبغتة ، اشرق وجهه اذ فكر فى جاره هامبتــون . فلقــد أبدى فريدى نحــوه فى الايام الاخيرة الكثير من رقة الجانب ، ومن ثم صار اجدر بالجنيهات الثلاثة

من أى شخص غريب ، فارسلها اليه بعد أن زودها بخطاب خاص . وان هى الا ثلاثة أرباع الساعة ، حتى عادت اليه وقد تغير مزاجها كل التغير وبدت هادئة ، معتذرة ، راضية عن نفسها ، وعن هامبتون ، وعنه هو بوجه خاص . وبادرته قائلة: « اغفر لى يا دكتور عودتى ، فانما أردت أن اشكرك لما بذلته لى . وقد قابلت الدكتور هامبتون وأقر كل ما قلته انت ، وذكر أن ما تضمنته تذكرتك الطبية هو خير دواء يعطى لحالتى ! »

وفى شهر يونيو ، أجريت لـ « سيبيل ثورنتن » عملية استئصال اللوزتين ، وكانتا متضخمتين بعض الشيء .. وكانت صحيفة « الجورنال » قد نوهت – فى الفترة الاخيرة – بالاخطار التى تنشأ عن تضخم اللوزتين ، وعلاقته بافراز مواد ضارة تسبب الروماتزم . وقد اجرى « ايفورى » الجراحة بعناية فائقة .. وقال لاندرو وهو يغسل يديه بعدها : « اننى أفضل التبصر والتمهل كلما تعلق الامر بالانسجة اللمفاوية . لابد أنك رأيت زملاء ينتزعونها بضربة واحدة من المبضع ، ولكننى لا أحذو حذوهم ! »

وكان فريدى مع أندرو حينما تلقى الاخير الاذن المصرفى الذى وصله بالبريد ، كالمرة الاولى ، من ايفورى . وكان الاولان قد أصبحا كثيرى الالتقاء ، سواء فى مكتبيهما أو خارجهما ، وقد رد هامبتون لاندرو الصنيع ، اذ أحال اليه مريضة تشكو من الم فى المعدة ، فى مقابل المريضة التى أرسلها له أندرو وهى تشكو من التهاب الحنجرة .. **وموجز القول أن مرضى عديدين تنقلوا فى تلك الحقبة من شارع (ويلبيك) الى شارع (الملكة آن) وبالعكس** .. وقال له فريدى وهو يحملق فى الاذن المصرفى : « أتعرف يا مانسون اننى مسرور لعزوفك عن خطتك القديمة ، ومسايرتك ركبنا ؟ .. ومع ذلك فأنت لا تزال – حتى الآن – فى أول الطريق ، لم تمتص من عصير البرتقالة

سوى بعضه . اتفق معى يافتاى تجد الفاكهة اغزر عصارة ! »

وضحك أندرو .. وفيمـا كان عائدا الى داره ـ فى ذلك المساء ـ أحس بأنه مرتاح على نحو ملحوظ . وكانت سجائره قد نفدت ، فعرج على حانوت فى شارع (اكسفورد) يبتاع علبة . وعند خروجه ، لمح فجأة امرأة تتسكع أمام نافذة متجر مجاور .. واذا بها بلودوين بيدج ! .. وعرفهـا على الفور ، برغم انها كانت قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه فى (برينجور) . فقد أصبحت هزيلة القوام ، مفككة الاوصال ، تشى عيناها ـ اللتان رفعتهمـا اليه حينمـا وجه اليهـا الخطاب ـ بالتبلد والانهيار ! . وهتف مقبلا عليها : « مسز بيدج .. أو مسز ريس الآن ، فيما أحسب ! .. ألا تعرفيننى ؟ أنا الدكتور مانسون ! »

وتأملت بذلتـه الانيقة ، ومظهـره الدال على الثراء ، ثم قالت : « أذكرك تماما يا دكتور . آمل أن تكون فى صحة جيدة ! » . وتحولت عنه وكأنها لم تكن تستطيع البقاء طويلا ، فسارت الى حيث كان فى انتظارها ـ على بضع خطوات ـ رجل طويل أصلع ، بعد أن قالت له فى وجل مختتمة الحديث : « يجب أن أنصرف يا دكتور ، فان زوجى ينتظرنى ! »

ورآهما أندرو يبتعدان على عجل .. وسمع ريس يؤنبها قائلا : « ما معنى أن تتركينى أنتظر هكذا ؟ » . فنكست رأسها فى خنوع . وأحس أندرو ـ لحظة ـ بنظر مدير البنك مصوبا اليه ، ثم اختفى الزوجان وسط الجمع !

ولم يستطع أندرو أن يقصى هذه الصورة عن ذهنه .. وعندما بلغ داره ، ودخل «الصالون» الصغير ، وجد كريستين تعمل فى حبك الصوف « التريكو » ، والى جانبها الشاى الذى كانت قد طلبت من الخادم احضاره ـ من أجله ـ حينما سمعت صوت السيارة . والقى عليها نظرة مستجوبة عاجلة ، وهو يود أن يقص عليها ما حدث ، وقد جاشت فى صدره

رغبة مفاجئة فى أن يصلح مافسد بينهما . غير أنهـا لم تلبث ان قالت له فى هدوء ، وهى تقـدم له قدح الشـاى : « لقد سألت عنك مسز لورنس بالتليفون مرة أخرى بعد ظهر اليوم .. ولم تذكر أية خدمة ترجوها منك ! » .. فقال وقد احمر وجهه : « آه ! .. ما الذى تعنينه بعبارة : مرة أخرى ؟ »

ـ انها تسأل عنك للمرة الرابعة ، فى هذا الاسبوع .

فتساءل : « ثم ماذا ؟ » . وكان جوابها : « لا شىء .. لم أقل شيئا ! » . فقال : « ولكن منظرك يقول الكثير .. ماذا أملك اذا كانت تسأل عنى ؟ » . فصمتت وعيناها تتأملان الصوف .. ولو انه أدرك ما كان يشغل هذا الرأس الخفيض الصامت ، لما غضب على هذا النحو . ولكنه استرسل قائلا : « لكأنى فى نظرك زوج لاثنتين ! .. انها من خيرة النسـاء ، وزوجها من صفوة أصدقائى ، وهما زوجان جديران بالاعجاب! .. انهما ـ على الاقل ـ لايبديان مثل هذه الكآبة ! .. اوآه ، يا للجحيم ! »

* * *

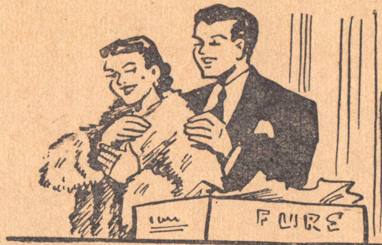
واحتسى ما بقى من شايه ونهض . على انه لم يـكد يبرح الغرفة ، حتى أحس بالندم ، فدلف الى عيادته ، وأشـعل سيجـارة ، ثم راح يفـكر فى كيف راحت الامور بينـه وبين كريستين تسير من سىء الى أسوأ ، رغم أنه لم يكن يريد لها ان توغل فى السوء ! .. كان الجفاء ـ الذى فرق بينهما ـ يثقل على نفسه ، ويهفو بأعصابه ! .. كان بمثابة السحـابة الوحيدة السوداء فى سماء نجاحه !

لقـد كان ينعم ـ مع كريستين ـ بسـعادة غامرة منـذ ذكريات خطبتهمـا فى (بلينيللى) . انه لم يعـد « يعبـد » كريستين كما كان فيما مضى ، لكنه .. لايزال مشغوفا بها !

ـ وان كان قد أساء اليها مرة أو مرتين فى الاسابيع الاخيرة !
وراودته رغبة طاغية فى تنقية الجو بينها وبينه ، وفى ان يدخل السرور الى نفسها ، وفى أن يهدىء روعها . واستغرق فى هذه الفكرة ، وفجأة ، أومضت عيناه ، ونظر الى ساعته فتبين انه لم يزل باقيا نصف ساعة بالضبط قبل أن يغلق متجر « لورييه » ابوابه . وان هى الا دقيقة واحدة ، حتى كان داخل سيارته فى طريقه الى هناك . وما ان شرح لمس كرامب ما كان يبغى ، حتى أبدت أحسن استعداد لخدمته . فتحادثا فى جد ، ثم ذهبا الى قسم الفراء ، حيث قدمت للدكتور مانسون أنواعا مختلفة منها ، راحت تداعبها بأصابعها الخبيرة ، مبينة ميزاتها ومحاسنها ..

وأخيرا ، وقع اختياره على فرو أقرته عليه تماما ، فذهبت تبحث عن مستر « وينش » ، ثم عادت بعد لحظة مشرقة الوجه لتقول له : « لقد أمر مستر وينش بأن تأخذ هذا الفرو بثمن التكلفة ! » ـ فان شفتى أية بائعة لدى لورييه كانتا تعفان عن عبارة « ثمن الجملة » ! ـ وأردفت قائلة : « وعلى هذا ، يكون الثمن خمسة وخمسين جنيها . صدقنى يادكتور ان هذه هى قيمته ! .. انه فرو رائع ، رائع حقا ، وسوف تزهو زوجك بارتدائه ! »

وفى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى ، تناول اندرو الصندوق الأخضر المصنوع من الورق المقوى ، والذى نقشت عليه علامة « لورييه » التجارية ، ودخل الصالون مناديا : « كريستين ، تعالى لحظة ! » .. وكانت فى الطابق الاعلى ، تساعد مسز بنيت فى تنسيق المخدعين . بيد أنها جاءت على الفور لاهثة شيئا ما ، وهى فى دهشة لهذا النداء . فبادرها قائلا : « انظرى ياحبيبتى ! » .. وأحس ـ وقد اقترب الموقف من ذروته ـ بحرج وارتباك خانق . ولكنه أردف : « لقد اشتريت لك هذا . أعرف .. أعرف جيدا أننا لسنا على



تفاهم تام فى الفترة الاخيرة ، ولـكن هـذا خليق بأن يثبت لك .. ! » . **وأمسك عن الكلام ، وقدم لها الصندوق فى ارتباك ، ففتحته جد شاحبة ، وقد أخذت يداها ترتجفان ، ثم صاحت مبهورة : « ياللفرو الجميل الرائع ! »**

وتناوله فى سرعة ، وداعبه ـ كما فعلت مس كرامب ـ وقال فى تأثر : « هل يروق لك يا كريس ؟ .. جربيه ! لقد ساعدتنى « الهافباك » العجوز فى اختياره . انه لا يفضله نوع آخر فى فخامة النزع ، وفى الثمن أيضا . أترين تلك الوبرات الماسية ، واللون الفضى على الظهر ؟ .. ان هـذا بالذات هو الذى ينشد فى الفراء ! » . فاستدارت اليه فى انفعال ، والدمع يجرى على وجنتيها ، وهتفت : « انك تحبنى ، ألست كذلك يا حبيبى ؟ .. ان هذا هو الشىء الوحيد الذى أتشبث به فى هذه الدنيا ! » .

* * *

واستعادت أخيرا هدوء نفسها ، وجربت الفرو ، فألفته رائعا . وأحست لذلك بغبطة بالغة ... ولم يقنع أندرو بذلك ، بل أراد أن يبلغ الصلح تمامه ، فقال مبتسما : « اصغى الى يا كريس ! .. تعالى نحتفى بهـذه المناسبة ، ولنتناول

غداءنا في الخارج .. سأكون في انتظارك بعد ساعة في مطعم بلازا ! » . فبادرت قائلة : « حسنا يا حبيبي ! » . ثم أردفت في تردد : « ولكنني .. كنت قد أعددت للغداء « فطير الراعي » الذي تحبه كثيرا ! » . فقال وهو يضحك في سعادة غامرة ، كما لم يضحك منذ شهور : « لا ، لا .. لا تكوني من **العجائز اللائي يبقين في الدور . بعد ساعة تلحقين بالحبيب الاسمر المليح ، في « البلازا » . لاداعي لان تضعي قرنفلة حمراء ، فانه سيعرفك على الفور ! »**

وقضى فترة الصباح وهو صافي المزاج مبتهج . لكم كان ابله ! كيف استطاع ان يهمل كريستين ؟ ! .. ان كل النساء يحببن أن يكن موضع رعاية ، وان يظهرن الى جانب رجالهن خارج الدور ، وأن يحظين بأسباب الترفيه ! .. ولقد كان مطعم « بلازا » مكانا بديعا ، تلتقي فيه ــ بين الساعتين الواحدة والثالثة من بعد الظهر ــ بكل ، أو معظم ، ذوى المكانة في لندن !

★ ★ ★

وانقضى الموعد ولم تصل كريستين ــ على خلاف عادتها ــ مما بعث في أندرو شيئا من القلق ، وهو يجلس في « صالون » المطعم ، يرقب الموائد ــ من خلال الفاصل الزجاجي ــ وقد أوشكت أفضلها موقعا ان تشغل . واضطر الى أن يطلب قدحا ثانيا من النبيذ .. وكانت الساعة الواحدة والثلث حينما دخلت كريستين مندفعة ، مأخوذة بالصخب والجلبة ، والجمهور ، والسقاة في لباسهم الانيق ، فضلا عما اعتراها من ضيق لانها مكثت نصف ساعة في بهو آخر . وقالت لاهثة : « آسفة يا حبيبي ، لقد سألت كثيرا عنك ، وانتظرت طويلا في بهو المطعم قبل أن أفطن الى انك تنتظر في الصالون ! »

ولم يجد السقاة لهما سوى مائدة رديئة الموقع ، بجانب عمود

قريب جدا من المطبخ . ولم يكن فى القاعة موضع لقدم ، والموائد متقاربة ـ حتى لكأن القوم يجلسون بعضهم على ركب بعض ـ والسقاة يروحون ويجيئون ، ويأتون بحركات بهلوانية . وكان القيظ خانقا للانفاس ، والضجيج يعلو وينخفض ، أشبه ما يكون بالهتاف فى مباراة بجامعة أمريكية .

وقال أندرو : « والآن يا كريس .. ماذا تودين من ألوان الطعام ؟ » . فأجابت بصوت خافت : « اختر أنت لى يا حبيبى ! » . فطلب غداء فاخرا : « كفيار » ، وخضرا ، ودجاجا ، وفاكهة ، وزجاجة نبيذ ! .. وضحك ـ وهو يصر على أن يكون مرحا ـ وقال : « اننا لم نكن نعرف شيئا من هذا ، أيام (بلينيللى) ! .. ليس أبهج من هذا يا حبيبتى ، سوى ان يسودنا التعاطف ! »

وحاولت وسعها أن تجامله ما استطاعت ، فأطرت « الكفيار » ، وبذلت جهدا بطوليا فى احتساء الحساء الدسم ، وتظاهرت بالاهتمام حينما ذكر « جلين روسكو » النجمة السينمائية ، و « مارفيز يورك » الامريكية التى اشتهرت بزواجها من ستة أزواج ، وشخصيات دولية أخرى لم تكن تقل شهرة . وبدا لها هذا المكان ـ بما ساده من تظاهر مصطنع ـ بؤرة بشعة . فقد كان الرجال مسرفين فى التأنق والتنعم والترهف **.. وكانت كل امرأة وقعت عليها عينا كريستين شقراء فى ثوب أسود ، رشيقة ، مصبوغة الوجه بصنوف المساحيق ، بادية الاستهتار الى درجة الاسترجال !**

وسرعان ما شعرت كريستين بصداع خفيف ، وبدأت تفقد اتزانها النفسى . وكانت طباعها ـ فى العادة ـ تتسم بالبساطة وعدم التكلف ، غير أن أعصابها عانت توترا شديدا فى الفترة الاخيرة .. ولم تلبث ان فطنت الى عدم التناسق بين الفرو الجديد وفستانها الرخيص ، فخيل اليها أن النساء الاخريات كن يحدقن فيها ، وأنها ـ وسط هذا الجمع ـ فى غير مكانها ،

فكأنها زهرة فطرية فى بستان للزهور الثمينة . وسألها أندرو فجأة : « ماذا بك ؟ ألا يروق لك المكان ؟ » . فهتفت ، وهى تحاول جاهدة أن تبتسم ،دون أن تطيعها شفتاها : « بلى طبعا » . وكادت لا تقوى على ابتلاع الطعام ، بله ان تذوق الدجاج المحشو بالقشدة ، فى طبقها !

وغمغم أندرو ممتعضـا : « انك لا تصغين الى شىء مما أقوله لك . بل انك لم تمسى نبيذك .. ياللشيطان ! ان الرجل حين يصطحب زوجه الى مطعم .. » . وأمسك ، فسألته فى صوت خافت : « هل من قليل من الماء ؟ » . وتمنت لو استطاعت أن تصرخ ! .. انها لم تخلق لبيئة كهذه . فما كان شعرها مصبوغا ، ولا وجههـا مكسوا بالمساحيق ، فلا عجب أن راح يحملق فيها كل انسان ، حتى السقاة أنفسهم ! .. وتناولت شيئا من الخضر فى ارتباك ، فانسكب على الفرو الجديد ولطخه بالصلصة . ونظرت الشقراء ـ الجالسـة الى المائدة الملاصقة ـ الى رفيقها مبتسمة ، فلحظ أندرو ذلك . وعزف عن الحديث المرح ، وفرغا من العشاء فى صمت كئيب .

وعادا الى دارهمـا أكثر اكتئابا . وسرعان ما برح أندرو الدار مهرولا لاداء عياداته ، وقد أصبحا متباعدين كما لم يتباعدا فى أى وقت مضى ، وقـد عصف الالم بكريستين . وبدأت تفقد كل ثقة فى نفسها ، وتتساءل : أهى المرأة التى تليق بأندرو ؟ .. على انه لم يـكد يعود فى تلك الليـلة حتى طوقت عنقه بذراعيها ، وقبلته ، وشكرته مرة أخرى من أجل الفراء والعشاء .. فأجابها بلهجة جافة : « يسعدنى ان سرك هذا ! » . ثم انصرفت الى مخدعه !

— ١٢ —

• وحدث فى ذلك الحين أمر صرف انتباه أندرو ـ بعض الوقت ـ عن متاعبه الداخلية . فقد وقع نظره مصادفة فى

صحيفة « التريبيون » على نبأ وصول مستر « ريتشارد ستيلمان » بيولوجى (بورتلاند) الذائع الصيت فى الولايات المتحدة ، قادما على ظهر « الامبريال » ، ونزوله فى فندق « بروك » .. ولو أن شؤونه المنزلية كانت تسير سيرتها الاولى ، لجرى نحو كريستين مبتهجا غاية الابتهاج ، ممسكا الصحيفة بيده صائحا : « انظرى يا كريس، لقد جاء ريتشارد ستيلمان الى انجلترا منذ قليل ! .. أتذكرين ؟ .. لقد كنت اراسله فى هذه الاشهر الاخيرة . وانى لاتساءل: هل يستقبلنى؟ .. الحق اننى سأكون سعيدا جدا لو استطعت ان أقابله ! » .

ولكنه كان قد عزف عن عادة الجرى الى كريستين . وبدلا من هذا ، راح يطيل التفكير محدقا فى الصحيفة ، وهو سعيد اذ يفكر أن فى امكانه التعرف بستيلمان ، لا كمساعد متواضع، بل كطبيب استشارات فى شارع (ويلبيك) ! وبعناية فائقة ، كتب خطابا على الآلة الكاتبة ، يذكر فيه العالم الامريكى بنفسه ، ويدعوه للغداء - يوم الاربعاء - فى مطعم بلازا .

وفى صباح اليوم التالى ، اتصل به «ستيلمان» تليفونيا .. وكان صوته رصينا ، ولهجته ودية ، وكلماته واضحة : « يسعدنى أن أتكلم معك يادكتور مانسون ، ويسرنى أن أتغدى معك ، على ان لا نذهب الى « بلازا » ، فاننى أكره هذا المكان .. لماذا لا تأتى انت فنتناول الغداء معا هنا ؟ »

ووجده أندرو فى « صالون » الجناح الذى كان يشغله بفندق « بروك » . وهو نزل هادىء ، بديع الاثاث ، يطغى بجوه المحترم على فندق « بلازا » الصاخب ! .. وكان الجو قائظا ، وقد تعب أندرو كثيرا فى الصباح ، فما أن وقع نظره على مضيفه حتى أوشك ان يتمنى لو انه لم يحضر ! .. كان الامريكى قصيرا، نحيلا ، ذا رأس ضخم غير متناسب القسمات وفك بارز .. وكان فى الخمسين من عمره ، ولكنك حين ترى لونه الابيض المشرب بالحمرة ، تحسبه فى ريعان الشباب .

وكان شعره الاشيب مفروقا عند وسط الرأس .. **واذ رأى أندرو عينيه الصافيتين ، الثابتتى النظرات ، اللتين اوتيتا زرقة هادئة باهتة ، أدرك القوة الدافعة الكامنة فى هذا الجسم الضئيل الذى بهت عند ما رآه !**

وقال ريتشارد ستيلمان فى رصانة الرجل الذى ألف من الناس أن يروا فى سعيهم اليه مسرة ومتعة : « آمل الا يكون القدوم الى هنا قد ضايقك .. لقد كان المفروض ان نعجب — نحن الامريكيين — بالبلازا ، ولكن رواد ذلك المكان من اوغاد القوم ! » . واعتدل فى مجلسه ، ومضى يقول : « الآن وقد سعدت برؤيتك ، اسمح لى ان اهنئك ببحثك القيم عن الغبار الذى يتسرب الى الرئتين مع الهواء .. وماذا تراك فعلت فى المدة الاخيرة ؟ »

* * *

وهبطا الى المطعم ، حيث عنى كبير الخدم شخصيا بخدمة « ستلمان » ، الذى قال لاندرو دون أن ينظر الى قائمة الطعام المكتوبة بالفرنسية : « ماذا تطلب ؟ .. أما أنا فسأطلب عصير البرتقال ، ثم ضلعين من الضأن الصغير ، وقهوة ! » .. وأملى أندرو ماطاب له ، ثم استدار نحو صاحبه فى احترام متزايد .

وكان من المستحيل أن تبقى طويلا فى مواجهة ستلمان دون أن تلمس جاذبية هذه الشخصية . والحق ان تاريخه — الذى عرف أندرو خطوطه العريضة — كان فريد فى نوعه : فقد كان ينحدر من أسرة عريقة من أهل ولاية (ماساتشوستس) الامريكية ، شغلت منذ أجيال فى (بوسطن) مراكز فى القضاء والمحاماة . غير أن الفتى ريتشارد ستلمان — برغم هذا التقليد — أبدى رغبة قوية فى تكريس نفسه لمهنة الطب ، وأذن له أبوه أخيرا — وهو فى الثامنة عشرة من عمره — أن

يبدأ دراساته فى جامعة « هارفارد » .. فتابع الدراسة سنتين ثم توفى أبوه فجأة، تاركا اياه وأمه واخواته فى ضنك . واذ لم يكن ثمة بد من ايجاد وسيلة للوفاء بمطالب الاسرة ، فقد ألح الرجل الطاعن « جون ستلمان » - جد ريتشارد لابيه - فى أن يترك ريتشارد الطب ويلتحق بالحقوق ، جريا على تقاليد الاسرة ..

ولم تجد أية مناقشة ، فقد أصر الجد على رأيه وأبى أن يتزحزح عنه . فاضطر ريتشارد الى الحصول على درجة فى القانون ، بدلا من الشهادة الطبية التى كان يتمناها . وقد استغرق فى ذلك ثلاث سنوات ، ثم التحق - فى سنة ١٩٠٦ - بمكتب الاسرة ، وكرس نفسه للاعمال القانونية لاربع سنوات . **على انه لم ينصرف اليها بكل اهتمامه ، اذ ان « البكتريولوجيا » - ودراسة الميكروبات بوجه خاص - كانتا قد اجتذبتاه مذ بدأ يدرس الطب ، وكان قد أنشأ لنفسه معملا كيمياويا صغيرا فى مخزن بيته ، فى (بيكون هيل) ، فراح يقضى كل اوقات فراغه ، يعاونه احد كتبة المكتب على ارضاء ميله .** وكان هذا المعمل نواة معهد ستلمان فى الواقع !

ولم يكن ريتشارد ستيلمان هاويا ، بل انه لم يكن ذا مهارة فنية فائقة فحسب ، وانما كان ذا أصالة تنبع عن عبقرية .. وفى شتاء سنة ١٩٠٨ ، ماتت أخته « مارى » - التى كان يحبها ويحنو عليها كثيرا - أثر مرض صدرى لم يمهلها طويلا ، فكان ذلك سببا فى تركيزه كل جهوده على ميكروب السل . ورجع الى المؤلف القديم الذى وضعه « بيير لويس » وتلميذه الامريكى « جيمس جاكسون » . وقادته دراسته لحياة « لايناك » الى دراسة الرئتين من الناحية الفسيولوجية ، واخترع نموذجا جديدا للمسماع الطبى . ثم بدأ محاولاته الاولى لتركيب مصل دموى ، بما كان لديه من أجهزة قاصرة .

وكان قد توصل الى شفاء سل الفئران ، عندما توفى جده « جون ستلمان » ، فى سنة ١٩١٠ ، فكانت لهذين الحدثين ـ الموت والشفاء ـ نتائج مباشرة : فلقد كانت أم «ريتشارد» راضية عن أبحاث ابنها العلمية طيلة الوقت ، فلم يشق عليه كثيرا أن يقنعها بتخليه عن المؤسسة القانونية .. وبفضل الاموال التى ورثها عن جده ، اشترى فى (بورتلاند) ـ بولاية (اوريجون) ـ ضيعة ، لم يلبث أن انغمس فيها فى ممارسة العمل الحقيقى الذى وقف عليه حياته .

وكان قد أضاع سنوات ثمينة عديدة من حياته ، فلم يحاول أداء امتحان للحصول على أجازة الطب ، اذ كان يصبو الى اكتشافات .. الى نتائج .. وسرعان ما استخرج مصلا للخيل ، ونجح ـ عن طريق الحقن ـ فى تحصين قطيع من الابقار بولاية (جيرسى) ضد السل ، وهو يطبق ـ فى الوقت ذاته ـ النتائج الجوهرية التى توصل اليها « هيلمولتز » و « ويلارد جيبس » ـ من جامعة ييل ـ وغيرهما من أهل الطب الذين أعقبوهما ، مثل « بيزاليون » و « زينكس » ، فى علاج امراض الرئة . ومن ثم اتجه مباشرة الى العلاج .

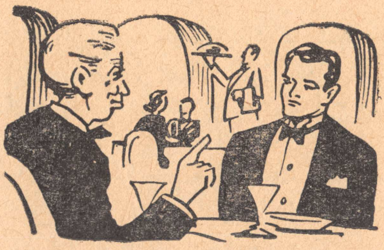
وصادفت طريقة العلاج المبتكرة ـ فى معهده الجديد ـ نجاحا كبيرا ، فشفيت بفضلها حالات كثيرة . على أن ما أصابه فيما بعد من نجاح علاجى ـ فاق نجاحه فى الابحاث المعملية ـ كان العامل الاول فى شهرته وذيوع صيته . وكان أغلب مرضاه من المصدورين الذين تنقلوا بين مختلف المصحات ، وبات معروفا ان لا سبيل الى شفائهم . **وكان من نتيجة النجاح الذى أحرزه فى علاج هؤلاء المرضى ، أن وجهت اليه الاتهامات ، وأن ناصبته الهيئة الطبية عداء سافرا . واذ ذاك ، بدأ ـ بالنسبة لستلمان ـ صراع من نوع آخر ، صراع طويل من أجل الاعتراف به .** وكان قد انفق فى تأسيس معهده كل ما يملك ، حتى آخر دولار .. كما أن صيانته كانت تقتضيه

مبالغ طائلة . وكان يكره الاعلان كرها شديدا ، ويقاوم كل دعوة توجه اليه لتحويل أعماله الى أعمال تجارية . وكثيرا ما بدا أن المتاعب المادية ـ الى جانب المرارة التى أخذ يحسها لما كان يلقى من معارضة عنيفة ـ قد أوشكت أن تنال منه . ولكن ستلمان كان يجتاز جميع الازمات بشجاعة نادرة ، حتى ان الحملة الشعواء التى شنتها عليه احدى الصحف الامريكية ، لم تفت من عضده أو توهن عزيمته .

وما لبثت زوبعة الافتراءات ان مرت وخفت حدة المقاومة . وشيئا فشيئا أنصف المعارضون ستلمان .. وفى عام ١٩٢٥ ، زارت لجنة من واشنطن المعهد ، وقدمت تقريرا حارا عن أعماله . واذ اعترفت الهيئات بستلمان ، أصبح يتلقى هبات كبيرة من الاشخاص ، ومن مديرى الشركات ، بل ومن الهيئات العامة . فخصص هذه الاموال لتوسيع وتحسين المعهد الذى أصبح قبلة الانظار فى ولاية (اوريجون) ، بفضل اجهزته وأثاثاته الرائعة ، وموقعه ، وقطعان ماشيته المستوردة من (جيرسى) ، والدم الايرلندى النقى للمصل .. واذا كان ستلمان لم يتخلص تماما من أعدائه ـ فلقد أدت الحزازات

التى ترتبت على طرد أحد غلمان المعمل ، فى سنة ١٩٢٩ ، الى اشعال حملة جديدة للتشهير به ـ الا انه اكتسب ، فى القليل ، حق مواصلة العمل الذى كرس له حياته . **ولم يبدله النجاح ، بل ظل نفس الرجل الهادىء المتحفظ ، الذى قام قبل خمس وعشرين سنة بدراساته الاولى فى قبو منزل فى (بيكون هيل) !**

وها هو ذا يجلس فى مطعم فندق بروك ، يرمق أندرو ـ الجالس فى مواجهته ـ فى ود ضاف ، ثم يحدثه : « ما أبهج أن يكون المرء فى انجلترا . ان بلادكم تروق لى ، والصيف عندكم ألطف منه عندنا ! » . فقال أندرو : « أحسب أنك قدمت لالقاء بعض المحاضرات » . وأجاب مبتسما : « كلا ، لم أعد



القى محاضرات .. أيكون من الخيلاء أن أقول انى أدع النتائج تتحدث بدلاً منى ؟.. الواقع اننى جئت التماسا للراحة . واتفق أن مواطنك مستر « كرانستون » ـ أقصد « هيربرت كرانستون » الذى ينتج هذه السيارات الصغيرة الرائعة ـ كان قد زارنى فى أمريكا منذ ما يقرب من عام ، وكان يعانى طوال حياته من مرض الربو ، وقد تمكنا أخيرا ـ فى المعهد ـ من شفائه . فلم يكف ـ منذ ذلك الحين ـ عن الالحاح على فى الحضور الى هنا ، واقامة مصح صغير من نوع مصح (بورتلاند) . وقد وافقت منذ ستة أشهر مضت على ذلك ، فوضعنا التصميمات ، واخترنا المكان .. وقد اطلقنا عليه « بيلفى » .. ان البناء وشيك الانتهاء ، فوق (شيلترنز) ، بالقرب من (هاى ويكومب) . **وسأبقى الى أن افتتحه ، ثم أكل امره الى « مارلند » ، أحد مساعدى . اننى أرى فيها تجربة بحق ، تجربة تبشر بخير كثير بالنسبة لمناهجى ، خصوصا من ناحية المناخ والجنس .. فان الجانب المالى لا اهمية له ! »**

فقال أندرو وهو يميل نحوه : « انه لامر يبدو عظيم القيمة . وما الذى تركز عليه جهودك بوجه خاص ؟.. لكم أحب أن أرى مؤسستك ! » . وأجاب ستلمان : « يجب أن تأتى بعد أن يتم كل شىء .. لسوف نعنى فى المؤسسة بعلاج الربو بطريقتنا الحاسمة ، فلقد أصر كرانستون على ذلك . ثم اننى

تخصصت فى بعض حالات السل الاولية بنوع خاص ، وأقول « بعض الحالات » لاننى لا انسى اننى لست سوى مشتغل بالطبيعة الحيوية ، اوتى بعض المعلومات عن الجهاز التنفسى . غير أنه من العسير علينا ــ فى أمريكا ــ ان نتفادى أن يجرفنا التيار .. ماذا كنت أقول ؟ آه ! نعم .. ان حالات السل الاولية هذه تثير اهتمامك . وأنا أعالج هذه الحالات بطريقة مبتكرة ، سأشرحها لك عندما تزور المصح ! »

وتطرقا الى حديث فنى حول هذا الموضوع ، فلم يمسكا الا حينما نظر ستلمان الى ساعته ، وفطن الى أنه قد تأخر نصف ساعة عن موعد مع كرانستون .

* * *

غادر اندرو فندق بروك نشطا مبتهجا . غير أنه ما لبث أن أحس باضطراب وعدم رضى عن عمله ، نتيجة لما سمعه ، فراح يقول فى نفسه وهو محنق : « لقد تركت هذا الزميل يمسك بزمامى ويقودنى » .. ومن ثم فانه لم يكن صافى المزاج ، حين بلغ (تيراس تشيسبورو) ، على أنه جهد ــ عندما وقف أمام داره ــ فى أن يبدو فاترا ، غير مبال بشىء . اذ أن علاقاته بكريستين كانت تقتضيه ــ فى تلك الفترة ــ أن يظهر أمامها بهذا المظهر ، **فقد أصبحت تبدو له منصاعة ، غير مبالية ، مما رأى معه أن من الخليق به أن يجيبها بالمثل ، برغم أنه كان ــ فى دخيلة نفسه ــ مهتاج المشاعر . ولقد لاح له أنها انطوت على نفسها ، ولاذت بحياة خاصة لم يكن له من سبيل للنفاذ اليها !**

ذلك أنها أصبحت تكثر من القراءة وكتابة الرسائل .. ولقد وجدها مرة أو اثنتين ــ عند وصوله الى الدار ــ تلاعب « فلورين » بلعب الاطفال . كما أصبحت تتردد على الكنيسة بانتظام ورغبة صادقة ، وهذا ما أغضب أندرو أكثر من كل

شيء آخـر !.. لقـد كانت تصحب مسـز وتكينز - فى بلينيللى - الى كنيستها ، فى يوم الاحد من كل أسبوع ، فلم يكن يجد داعيا للشكوى أو التذمر . أما وقد تبدلت الحـال بينهما غير الحال ، فقد أصبح يرى فى ذلك مزيدا من التهوين من أمره ، ومظهرا للتقوى موجها الى فكره المضنى . واذ دخل « الصالون » فى ذلك المساء ، وجدها جالسة وحدها ، وقد اسندت مرفقيها الى المائدة ، ووضعت نظارتها - التى أصبحت تستعملها منذ فترة - على عينيها .. وامامها كتاب، فبدت - بحجمها الصغير - كتلميذة تستذكر دروسها . وأحس فجأة بالدم يغلى فى عروقه ، ومال فوق كتف زوجته ، فتناول الكتاب الذى حاولت - بعد فوات الوقت - أن تخفيه عنه ، وقرأ فى أعلى الصفحة : « انجيل القديس لوقا » . فهتف متلعثما ، مهتاجا بعض الشيء : « يا الهى !.. أهذا ما انتهى اليه أمرك ، أن أصبحت تقنعين بقراءة الكتاب المقدس ؟ ! »

- ولم لا ؟.. لقد كنت اقرؤه قبل أن التقى بك !

- آه !.. اكنت كذلك حقا ؟

فأجابته وفى عينيها نظرة غريبة ، طافحة بالالم : « أجل .. قد لا يقر هذا أصدقاؤك من رواد « بلازا » ، بيد أنه - على أية حال - أدب رفيع ! » . فقال : « أهو كذلك ؟.. حسنا ، دعينى أقل لك شيئا قد تكونى تجهلينه : انك تتحولين الى امرأة عصبية ، سريعة الانفجار ! » . وكان جوابها : « قد يكون الامر كذلك ، هذا أيضا ذنبى وحدى ، ولكن دعنى أقل لك شيئا بدورى : **لخير لى أن أكون امرأة عصبية ذات روح حية ، من أن أكون رجلا ذا نجاح باهر ، ولكنه ذو روح ميتة !.. »** . وأمسكت فجأة ، وعضت على شفتيها ، وكبحت دمعها . واستطاعت بمشقة ان تسيطر على نفسها ، ثم قالت وهى تحدق فيه بعينين مليئتين بالالم ، وقد اختنق صوتها : « أندرو ، الا ترى أنه من الخير لكلينا أن أتغيب بعض

الوقت ؟.. لقد كتبت لى مسز فوجان تدعونى لقضاء أسبوعين أو ثلاثة معها . فقد استأجرت وزوجها « فيلا » فى (نيوكاى) يقضيان الصيف فيها .. الا تعتقد اننى أحسن صنعا لو ذهبت الى هناك ؟ » . فصاح : « بلى ، اذهبى . ياللعنة ! .. اذهبى ! » . ونكص على عقبيه ، وغادر الغرفة

— ١٢ —

• **كان** سفر كريستين الى (نيوكاى) ـ بالنسبة لاندرو ـ تخففا وتحررا ممتعين . ولكنهما لم يدوما لاكثر من ثلاثة أيام، ثم بدأ يستعيد الماضى ، وأخذ يسائل نفسه : ماذا تراها تفعل ، وهل تفتقده ؟.. وأصبح يترقب ـ فى غيرة ـ اليوم الذى تعود فيه . وعبثا راح يعلل نفسه بأنه قد أصبح حرا طليقا ، اذ بات يحس بأن شيئا ما كان ينقصه .. وعاوده ذلك الاحساس الذى كان يعوقه عن الانصراف الى عمله فى (ابيرالو) ، حينما ذهبت كريستين الى (بريدنجتون) وتركته يستعد لامتحانه!.. وراح طيفها ينتصب أمامه : لا طيف كريستين الفتاة الغضة التى عرفها فى ذلك الوقت ، **وانما طيف وجه أشد شحوبا وأكثر نضجا ، ذى خدين ذابلين شيئا ما ، وعينين كليلتين خلف عدستين مستديرتين .. صورة لم تكن جميلة ، بيد أنها اتسمت بلون من الحزن الهادىء راح يمض نفسه !**

وأخذ يكثر من الخروج ، ولعب البريدج مع ايفورى وفريدى وفريدمان فى النادى .. وبالرغم من الاثر الذى خلفه فى نفسه حديثه مع ستلمان ، فانه كثيرا ما كان يلتقى به ، فقد كان ستلمان كثير التنقل بين فندق « بروك » وعيادته فى (وايكومب) التى اوشك اعدادها ان يتم . وكتب الى « دينى » يرجوه الحضور لرؤيته فى لندن ، غير أن ذلك استحال على فيليب لحداثة عهده بمنصبه الجديد . أما

هوب ، فلم يكن يغادر (كمبريدج) . . وحاول أندرو ـ فى بعض الفترات ـ أن يستغرق فى ابحاثه الكلينيكية بالمستشفى ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان جد مضطرب .

وبحث ـ وهـو على هـذه الحال ـ مع « ويد » ، مدير المصرف ، مركزه المالى . فاذا به يبعث على الرضى ، اذ كان كل شيء يسير على ما يرام . فأخذ يرسم خطة لشراء دار فى شارع (ويلبيك) ـ وكانت عملية تحتاج الى مال كثير ، ولكنها كانت مربحة الى أقصى حد ـ ولبيع دار (تيراس تشيسبورو)، مع الاحتفاظ بالجناح الملحق بها ، والذى جعل عيادته فيه .. وكان فى وسع أية شركة عقارية أن تساعده على تحقيق هذه العملية .. وأصبح يستيقظ من نومه ـ فى هـذه الليالى القائظة ، الهادئة ـ ورأسه مزدحم بالمشروعات ، مليء بأعماله المهنية .. وأعصابه متوترة ، مرهقة .. فكان يفتقد كريستين، ويمد يده بحركة آلية الى المنضدة القريبة من سريره ، فيتناول سيجارة .

وفى غمرة هذا العناء والحنين ، اتصل تليفونيا بفرانسيس لورنس ، قائلا : « انني وحيد هنا فى هذه الآونة ، فما رأيك فى جولة ليلية بالسيارة ؟ ان الحر شديد فى لندن ! » ..
وأحس فى صوت فرانسيس الرصين عذوبة سرت عنه بدرجة ادهشته : « ما ابدع هذا !.. كنت آمل أن تتصل بى . أتعرف (كروسوايز) ؟.. انه مكان يرجع الى عهد الملكة اليزابيث ، وأحسب أن الاضواء تغمره للاسف ، ولكن منظر النهر هناك بديع للغاية ! »

* * *

وفى مساء اليوم التالى ، فرغ على عجل من فحص مرضاه فى أقل من ساعة .. وقبل الثامنة بكثير ، التقى بفرانسيس فى (نايتسبريدج) ، وانطلقا فى سيارته نحو (تشيرتسى) ،

خلال بساتين الفاكهة الممتدة خارج (ستينز) ، فى ضوء الغروب الحالم . وكانت فرانسيس تجلس بجانبه قليلة الكلام ، بيد أنها كانت تملأ العربة بوجودها العذب . وكانت ترتدى ثوبا خفيفا فاقع اللون ، وقبعة قمحية .. **وراح يحس – على نحو خلب لبه – بفتنتها ، وأناقتها الفائقة ، ويدها العارية الى جانبه وقد تجلت رقتها وبياضها وجمالها .. كان كل اصبع من أصابعها متوجا بظفر بيضاوى شديد الحمرة !**

وكانت (كروسوايز) – كما قالت فرانسيس – دارا بديعة ، ترجع الى عهد الملكة اليزابيث ، وتطل على نهر (التيمز) ، وقد أقيمت وسط حديقة فيحاء ، قديمة التخطيط ، بها بحيرات تطفو على سطحها نباتات مائية . ولم ينقص من هذا الجمال سوى تحويل القصر الى « دار للضيافة » تتوافر فيها أحدث أسباب الترف ، وتعزف فيها فرقة « جاز » غير واسعة الصيت .. واتجه اندرو وفرانسيس صوب فناء غص بالسيارات الفاخرة . وكانت قوالب الطوب القديمة تلمع خلف الكرم البكر ، والمداخن الشامخة ترتفع فى هدوء نحو السماء .

ودخلا المطعم وقد عج بالرواد الذين جلسوا حول موائد صفت على جوانب أرضية مربعة لامعة ، وقد أشرف على الخدمة فيه كبير للخدم على نسق كبير خدم « بلازا » . وكان اندرو يكره كبيرى الخدم ، بيد أنه تبين – فى ذلك اليوم – ان ذلك كان راجعا الى أنه لم يواجههم من قبل بصحبة امرأة كفرانسيس . وبعد نظرة خاطفة اقتيدا باحترام بالغ الى أفضل مائدة فى القاعة ، وقد حف بهما جمع من الخدم ، بسط أحدهم منشفة أندرو ووضعها فى تجلة على ركبتيه .. ولم تطلب فرانسيس من الطعام الا قليلا : سلطة ، وشطيرة .. ولم تشأ أن تتناول خمرا بل اقتصرت على الماء المثلج فحسب .

وبدا أن كبير الخدم قد رأى فى هذه القناعة دليلا على علو مكانتها ، **فتبين أندرو – فى استياء مفاجىء – أنه لو جاء الى هذا المكان مع كريستين ، وطلب مثل هذه الوجبة البسيطة ، لاقصوه بازدراء الى الشارع .**

واستعاد صفاء مزاجه حينما رأى فرانسيس تبتسم له ، وتقول : « تصور اننا تعارفنا منذ وقت ليس بالقصير ، ومع ذلك فهذه أول مرة تدعونى فيها للخروج معك ! » . فقال : « أآسفة انت لهذا ؟ » . وكان جوابها : « ان المسألة لم تبلغ مبلغ الاسف .. على ما أرجو ! » . ومرة أخرى ، أحس بأن الود الصادق الذى عبر عنه هذا الوجه الصبوح الباسم ، كان يرفعه الى مكانة أعلى .. ولم يكن هذا مجرد ادعاء أو زهو مضحك ، فان طابع نشأتها وأصلها امتد – بطريقة ما – حتى شمله . وفطن الى أن الاشخاص الذين كانوا يجلسون الى الموائد المجاورة ، وراحوا ينظرون اليه فى اهتمام ، وأن الرجال منهم كانوا يتطلعون الى فرانسيس باعجاب تلقته فى عدم اكتراث ، فلم يتمالك نفسه من أن يتمثل ما قد يحدثه ظهوره معها باستمرار ، من أثر .

وقالت : « أترى من التملق أن أقول لك اننى اضطررت الى العدول عن سهرة فى المسرح – كنت قد ارتبطت بها – فى سبيل الحضور الى هنا ؟.. كان « نيكول واتسون » – هل تذكره ؟ – قد اعتزم ان يصطحبنى لمشاهدة حفل « باليه » ، وهو من أحب الاشياء الى نفسى . فماذا انت قائل فى مزاجى الصبيانى ؟ » . فقال أندرو : « اننى اذكر واتسون ورحلته فى (باراجواى) .. انه شخصية بارزة » . فهتف : « انه مفرط الظرف » .. وعاد يقول : « اتراك خشيت أن يكون الجو شديد الحرارة فى المسرح ؟ » . فابتسمت دون أن تجيب بشىء ، وتناولت سيجارة من علبتها المعدنية الانيقة ، بينما استطرد أندرو قائلا : «أجل ، لقد بلغنى أن واتسون يلاحقك .

فما رأى زوجك فى هذا ؟ » .. فظلت صامتة ، مكتفية بغمزة عين ، وكأنما قد ساءها ـ بعض الشيء ـ هذا الفضول .

وبعد هنيهة قالت : « انك تدرك ولا ريب أننى وجاكى خير صديقين ، ولكن لكل منا أصدقاءه الخاصين . انه الآن لدى « جوان » ، ولست أسأله تبريرا ! » .. وأردفت فى لهجة رقيقة : « هلا رقصنا ، ولو مرة واحدة ؟ » .. ونهضا ، فراحت تتحرك بنفس الرشاقة الفاتنة العجيبة ، وهى بين ذراعى أندرو . وقال وهما يعودان الى مائدتهما : « اننى لست راقصا ممتازا ! » . وكان يتكلم على طريقتها .. لقد ولى الزمن الذى كان يغمغم فيه ، فى مناسبة كهذه : « ياللشيطان يا كريس ، اننى لم أخلق لأسير على طرفى قدمى ! » .. ولم ترد فرانسيس على قوله . كان هذا الصمت ـ على ما خيل اليه ـ من الامور التى تتميز بها ، ولو أن امرأة غيرها فى مكانها ، لاحتجت على قوله ، فى رياء يضايقه !

ودفعه فجأة نوع من الفضـول ، فصاح : « أرجو أن تصارحينى : ما الذى حدا بك الى أن تكونى لطيفة معى بهذا القدر ، والى أن تساعدينى .. على نحو ما فعلت طيلة هذه الاشهر ؟ » . فتأملته فى شيء من العجب ، وان لم تحاول ان تروغ من نظراته ، ثم قالت : « انك ذو جاذبية خارقة للنساء ، ومما يضاعف سحرك انك لا تفطن اليه ! » .. فاحتج وقد تضرج وجهه : « كلا ، بل الحق .. » . ثم غمغم : « آمل أن أكون طبيبا ذا نفع كذلك ! »

وضحكت وهى تبدد دخان سيجارتها بيد واهنة : « انك لن تقتنع اذا قلت لك انك طبيب رائع فى الواقع . لقد كنا نتكلم عنك منذ أيام فى (جرين ستريت) . اذ بدأ « لى روى » يضيق بأخصائى الاغذية فى الشركة . مسكين « رمبولد » .. ما كان ليسر لو انه سمع « لى روى » يصيح : « يجب أن نوقف نشاط هذا الجد المسن » !.. وجاكى أيضا يرى هذا

الرأى . انهما يريدان ـ فى مجلس الادارة ـ رجلا أصغر سنا وأكثر مواظبة على حضور الجلسات .. ويبدو ان الشركة تفكر فى القيام بحملة واسعة النطاق فى الصحف الطبية ، لاثارة اهتمام الاطباء من الناحية العلمية ، على ما يقول لى روى .. ومن الطبيعى أن « رمبولد » أضحوكة بين زملائه ! لكن .. لماذا أروى لك كل هذا ؟ انه يفسد علينا سهرتنا . هيا لاتقطب جبينك هكذا ، وكأنك تفكر فى قتلى ، أو قتل الساقى أو رئيس الاوركسترا ! .. ليتك تقتله فعلا ، لا تراه بشع المنظر ؟ .. **انك تبدو تماما كما كنت فى ذلك اليوم المشهود ، يوم دخلت « صالون البروفات » شامخا ، مزهوا ، عصبيا ، بل ومضحكا الى حد ما !.. مسكينة توبى ! كانت هى الجديرة بأن تكون هنا ، وفقا للعرف المألوف ! »** . فقال محدقا فى المائدة : « لكم يسرنى انها ليست هنا ! »

ـ لا تحسبنى متبذلة ، فلست أطيق هذا . ان كل منا على قدر كاف من الذكاء فيما أحسب ، كما ان كلا منا .. أو أنا ـ فيما يختص بنفسى ـ لا اومن بالعاطفة المشبوبة .. أليس هذا التعبير واضحا ؟.. ولكنى أرى ان الحياة تصبح أكثر بهجة عندما يكون للانسان .. صديق .. وان يستطيع ان ينطلق بعض الشىء ، مع هذا الصديق ! » . ولمعت عيناها مرة أخرى بأضواء مرحة وهى تستطرد : « هكذا ابوح بما لم أكن أود البوح به ، فياللعار !.. على ان الجو هنـــا خانق ، وأود أن أشهد القمر ينعكس على صفحة النهر ! »

* * *

ودفع الحساب ، ثم تبعها الى باب الشرفة الزجاجى الكبير ، الذى شقه التنظيم الحديث فى الجدار العتيق ، مضيعا بذلك روعة القدم . وكانت أنغام الموسيقى الراقصة تصل خافتة الى الشرفة .. وأمام نظريهما امتد بساط سندسى عريض ،

يؤدى الى النهر الجارى بين ضفتين معتمتين ، متناسقتين .. وكان القمر ـ كما قالت ـ يعكس ظلالا كبيرة للاشجار ، ويلمع خافتا فوق مجموعة من أهداف الرماية بالقوس ، أقيمت على الارض المعشوشبة ، وبدا خلفهما وميض صفحة الماء الفضية.

وهبطا حتى النهر ، ثم جلسا فوق مقعد على حافة الضفة .. وخلعت فرانسيس قبعتها ، وراحت تتأمل ـ فى صمت ـ انسياب الماء الوئيد ، يمتزج خريره الخالد امتزاجا غريبا بصوت يصم الآذان ، صدر عن سيارة كانت تسير بعيدا بأقصى سرعة !.. وقالت : « ما أغرب هذين الصوتين ، فى جوف الليل .. الحديث والقديم !.. ثم هذه الكشافات يتقاطع ضوؤها مع أشعة القمر !.. هكذا عصرنا ! »



وقبلها أندرو ، فلم تبد ما ينم عن شعورها .. كانت شفتاها دافئتين جافتين . وقالت بعد دقيقة : « ما أعذبها من قبلة ، ولكنك أسأت توقيعها ! » . فغمغم وهو ينظر أمامه دون أن يتحرك : « أستطيع أن أوفق فى محاولة أخرى ! »

.. كان هيابا ، مترددا ، مستحييا ، عصبيا .. وراح يقول فى نفسه ـ وهو مغضب ـ ان من الرائع أن يكون فى ذلك المكان ، فى أمسية كهذه ، مع امرأة لها هذا الجمال والفتنة ، فكان لزاما عليه ـ وفقا لكل التقاليد القمرية والروائية ـ أن يحتويها بين

ذراعيه فى شغف .. واشتد شعوره بما كانت جلسته تحدثه من توتر فى عضلاته ، وبرغبة فى التدخين ، وبخل السلطة يثير متاعبه المعوية القديمة !.. وفضلا عن ذلك ، فان وجه كريستين راح ينعكس أمام ناظريه فى الماء على نحو غامض : **وجه متعب ـ أو على الاصح ـ مرهق ، تلوث أحد خديه ببقعة من الطلاء أحدثتها الفرشاة التى أعادت بها طلاء الابواب الثقيلة ، حين وفدا على (تيراس تشيسبورو) !**

وازعجه هذا وأهاج ثائرته .. لقد جاء الى ذلك المكان بحكم الظروف . ولقد كان رجلا ، فى عنفوان الشباب ، وليس من عملاء « فورونوف » ! .. وعاد يقبل فرانسيس ، متحديا ذلك الطيف ، فقالت : « حسبت انك محتاج الى عام لتتخذ قرارك !.. الا ترى يا دكتور أنه قد آن لنا أن نعود ؟.. ان هواء الليل هـذا .. الا تراه خطرا على عقل متدين ، متزمت ؟ » .

وساعدها على النهوض ، فاستبقت يده ، ممسكة اياها فى رفق ، وهما ييممان شطر السيارة . ومنح الحارس « شلن » ، وأدار المحرك ، ثم انطلق فى اتجـاه لنـدن . وكان صمت فرانسيس ـ أثناء العودة ـ يشى بسعادتها .

أما هو ، فلم يكن سعيدا . بل أحس بأنه وغد ، أبله ، وبقدر ما كره نفسـه ، واستاء لمشـاعره ، فانه كان يمقت العودة الى غرفته الخانقة الجو ، والى سريره الممض ، الموحش .. وكان قلبه مقرورا ، ورأسه مليئا بأفكار مضـنية ، اذ غشيته ذكرى الالم المستعذب الذى كان يعانيه فى حبه الاول لكريستين ، وتلك النشـوة التى كان يخفق بها قلبه فى تلك الايام الخـالية فى (بلينيللى) .. وما لبث أن اقصى هـذه الذكريات عن باله فى حنق وسخط !

وبلغا بيت فرانسيس ، ولم يكن عقله قد حل بعد لغزها .. وترجل ، ففتح لها باب السيارة . ومكثا لحظة على الافريز ، ريثما نبشت حقيبة يدها بحثـا عن المفتاح . ثم تساءلت :

« ستصعد معى .. أليس كذلك ؟.. أخشى أن يكون الخدم قد ناموا ! » . فغمغم مترددا : « أن الوقت متأخر .. أليس كذلك ؟ » . وتظاهرت بأنها لم تسمعه ، وصعدت درجات المدخل ، والمفتاح فى يدها .. وفيما كان يتبعها فى خطى حذرة ، تراءى له طيف باهت .. طيف كريستين تبتاع حاجياتها ، وحقيبة السوق فى يدها !

— ١٤ —

. **بعد** أيام ، كان أندرو فى مكتب استشاراته بشارع ويلبيك ، والأصيل قائظ ، وصخب المرور يصم أذنيه منسابا اليه مع الهواء الساخن من خلال ستار نافذته المفتوحة . وكان متعبا ، مرهقا ، يترقب عودة كريستين آخر الاسبوع فى خوف ، وينتظر — متوتر الاعصاب — أن يدعوه التليفون فى أية لحظة .. **وكان العرق يتفصد من جبينه ، وهو يجهد فى أن يفرغ فى ساعة واحدة من ستة من المرضى — بواقع ثلاثة جنيهات عن كل مريض — وأن يفرغ كذلك من مرضى العيادة بسرعة ، ليصطحب فرانسيس للعشاء فى المطعم** . وتطلع بصبر نافد حينما دخلت ممرضته — « مس شارب » — وهى أكثر عبوسا منها فى أى وقت ، وقالت : « هناك شخص يريد أن يراك ، شخص فظيع .. ليس مريضا ، وليس مسافرا — كما يقول — وليست لديه بطاقة !.. انه يدعى بولاند » . فردد أندرو ، فى غير اكتراث : « بولاند ؟! » . ثم أشرق وجهه فجأة ، وهتف : « لعله كون بولاند ! .. ادخليه فورا ! »

— ولكن هناك مريضا ينتظرك .. وبعد عشر دقائق ، موعد مسز « روبرتس » .

فصاح متضايقا : « أوه !.. افعلى ما قلته لك ! » . وتضرج وجه الممرضة لهذه الكلمات ، وهمت أن تقول له انها لم تعتد



أن يخاطبها احد بمثل هذه اللهجة ، غير انها آثرت أن تكتفى بهز رأسها ، وخرجت .. وبعد دقيقة أدخلت « بولاند » .
فهتف أندرو وهو يستوى على قدميه : « أهلا بك يا كون ! »
فقال كون وهو يسعى اليه بخطى واسعة ، وعلى شفتيه ابتسامة صادقة : « هالو ! هالو ! هالو ! »

انه بعينه طبيب الاسنان ، ذو الوجه الاحمر ، فى بذلته الرثة الزرقاء اللامعة الفضفاضة ، وحذاءيه البنيين السميكين ، وكأنه خارج لفوره من الحظيرة الخشبية التى كان يؤوى سيارته فيها .. ولعل السن تقدمت به بعض الشيء ، غير أن شاربه ظل احمر ، وشعره كثيفا .. وكان لا يزال مرحا ، ثرثارا كالعهد به .. وراح يدق ظهر أندرو براحتـه ، فرحا بلقائه وهـو يقول : « أقسم بالله يا أندرو ، انى جد سعيد لرؤيتك .. انك تبدو فى أتم صحة ، وبوسعى أن اتعرف عليك وسط مليون شخص . يا للذكريات !.. ان مكتبك هذا من احدث طراز ! » .

وحدق فى « مس شارب » العابسة ، التى كانت لا تزال فى الغرفة ، تنظر اليه كأنها تخمن شخصيته . ثم أردف :
« ان هذه السيدة ــ ممرضتك ــ لم تشأ أن تدعنى أدخل ، الى أن قلت لها اننى من ابناء المهنـة . **انه الحق الصراح يا سيدتى ، فان هذا السيد المدهش ، الذى تعملين عنده ،**

كان معى منذ زمن غير بعيد ، فى مؤسسة طبيـة مغمورة ، فى (أبيرالو) . واذا قدر لك ان تمرى بتلك البلده ، فاطرقى بابنا .. وسنكون ـ زوجى وأنا ـ سـعيدين بأن نقدم لك قدحا من الشاى ، فانى أرحب بكل صديق لصديقى القديم مانسون ! »

ورمقته الممرضة بنظرة حادة ، ثم برحت الغرفة . على أن بولاند لم يأبه بهذا ، فقد كان فى ابتهاج بالغ سرى فى كيانه ، وراح يشع من عينيه . وتحول الى اندرو قائلا : « انها ليست جميلة يا مانسون .. ولكنى أشهد بأنها امرأة طيبة ، وأغبطك عليها .. حسنا ! كيف أنت الآن ، كيف أنت ؟ » . ولم يترك يد أندرو بل أخذ يحركها وهو يبتسم فى حبور .. وكانت مفاجأة سارة لاندرو أن يرى كون فى هذا اليوم المقبض .. وجلس أخيرا على مقعده الدوار ، واستعاد هدوءه ، ودفع علبة السجائر نحو كون ، الذى راح يقول :

ـ كان من حقى يا فتاى أن أحظى بعطلة قصيرة ، وكانت ثمة مسألتان أو ثلاث فى حاجة الى التسوية ، فأشارت على زوجتى بأن أعد حقيبتى وأبرح .. ذلك أننى كنت قد شغلت بابتكار لتقوية « الفرامل » الضعيفة فى السيارة . وعكفت على هذا العمـل بكل ما منحنى الله من ذكاء . ولكن ، ليأخـذهم الشيطان !.. ان أحدا لا يريد الاهتمام باختراعى . لابأس !.. دعنا من هذا ، فهو عديم القيمة اذا قيس بالامر الآخر !

وأسقط رماد سيجارته فوق البساط ، وبدا عليه الجد ، وهو يقول : « أعرنى سمعك يا عزيزى مانسون ، فالامر يتعلق بابنتى «مارى» .. انك تذكرها بلا شك ، ودعنى أؤكد لك انها لم تنسك . انها ليست فى صحة جيدة هـذه الايام ، وقـد عرضـناها على ليولين فلم يسـتطع أن يفعل شـيئا ! » .

واشتدت حرارة لهجته ، وهو يمضى قائلا : **« لقد انتهى الى القول بأن لديها أعراضا من السل .. وكأنما لم تنقطع علاقة**

آل بولاند بهذا الداء منذ دخل عمها ((دان)) أحد المصحات ، قبل خمسة عشر عاما . والآن يا مانسون ، هل لك ــ بحق صداقتنا القديمة ــ أن تفعل شيئا ؟.. نحن نعرف أنك الآن رجل عظيم ، ولا حديث للناس فى (ابيرالو) الا عنك . فهلا فحصت مارى ؟.. أنك لا تتصور كم تثق هذه الصغيرة بك ، ونحن أيضا ، مسز بولاند وأنا .. من أجل هذا قالت لى : « اذهب وقابل الدكتور مانســون عندما تسنح الفرصــة ، واذا رأى فحص الفتاة ، أرسلناها اليه بدون ابطاء ! » .. فماذا ترى يا مانسون ؟ اذا كنت مشغولا جدا ، فما عليــك الا أن تقول ذلك ، فلا أزيد حرفا ! »

فاحتج أندرو قائلا : « لا تقل شيئا كهذا يا كون ، فما أحسبك تدرى كم انا سعيد اذ اعود فأراك ؟ .. اما مارى الصغيرة المسكينة ، فأنت تعرف اننى سأبذل من أجلها كل ما فى وسعى ! » .. ولم يعبأ بظهور « مس شارب » ــ المرة بعد المرة ــ وراء الباب ، تدفعه دفعا خفيفا له معناه ! بينما راح هو يبدد وقته فى الحديث مع كون ، الى أن نفد صبرها ، فقالت : « هناك خمسة من المرضى ينتظرون يا دكتور مانسون ، وأنت متأخر أكثر من ساعة عن مواعيدك التى ارتبطت بها . لست أعرف كيف اعللهم بالصبر ، فأنا لم أعتد معاملة المرضى على هذا النحو ! »

وبالرغم من هذا ، فانه استبقى كون ، ثم صحبه حتى الباب الخارجى ، ملحا عليه فى البقاء ، قائلا : « لن ادعك تعود الى البلدة بهذه السرعة . كم من الوقت ستمكث هنا ؟.. ثلاثة أيام أو أربعة .. حسنا ! وأين نزلت ؟ فى (ويستلاند) ؟.. ناحية (بيزووتر) . انه مكان غير مريح اطلاقا ، فلم لا تأتى وتقيم عندى ؟.. ان لدينا غرفا كثيرة ، وستعود كريستين يوم الجمعة فتغتبط برؤيتك يا كون .. وسيكون فى وسعنا أن نتكلم عن الماضى ثلاثتنا ! »

* * *

واحضر « كون » حقيبته الى (تيراس تشيسبورو) ، فى اليوم التالى . وبعد عيادة المساء ، اصطحبه أندرو ليحضرا الحفلة الموسيقية الثانية فى « بلاديوم » ، واستمتعا معا بسهرة طيبة ، دوى خلالها ضحك « كون » فى القاعة فضاق به الحضور فى البداية ، ثم انتقلت عدواه اليهم ، وراحوا يرمقونه وهم يبتسمون فى ود .. وفى أثناء الاستراحة ، ذهبا الى مشرب المسرح .. وقال « كون » وقد دفع قبعته الى خلف ، وتناثر زبد البيرة على شاربه وحذائه البنى : « اننى لعاجز يا عزيزى مانسون عن أن أوفيك حقك من أجل معاملتك لى ! .. حقا انك الطيبة ذاتها ! »

وذهبا بعد الحفلة الى « كاديرو » ، حيث التهما شرائح الشواء ، وشربا مزيدا من البيرة ، ثم عادا الى الدار ، فأشعلا النار فى مدفأة « الصالون » الصغير ، وجلسا يتحادثان ويدخنان ويشربان .. **ونسى أندرو — ولو للحظات — تعقد الحياة الممعنة فى التحضر ، وارهاق المهنة ، واحتمال انضوائه فى خدمة « لى روى » ، وفرصة ترقيته فى مستشفى « فيكتوريا » ، ورصيد حسابه فى المصرف ، وفتنة فرانسيس لورنس ، والخوف من الاتهام الذى كان يتمثله فى عينى كريستين ، رغم بعدها** .. كل هذا تلاشى ، بينما كان « كون » يزأر : « اتذكر حينما هاجمنا ليولين ، فتراجع أوركهارت والآخرون ؟.. لقد مكثنا معا بعد انصرافهم ، وأتينا على بقية البيرة !.. ان أوركهارت لم يتغير ، ولا يزال بصحة جيدة ، ويبعث اليك بأطيب تحياته ! »

وجاء الغد ، وجاءت معه الساعة المحتومة لمواجهة كريستين ..

وحرص اندرو على أن يجر الى المحطة « كون » ، الذي كان

خالى البال ، فلم يفطن الى أن أندرو كان مضطربا ، وقد أيقن أن وجود « بولاند » خليق بأن ينقذ موقفه .. وراح قلبه يخفق فى عنف ، حين وصل القطار ، وقد استبد به القلق .. وأحس بألم يمزقه ، وبوخز الضمير ، حينما لمح وجه كريستين الصغير الاليف ، وهى تتقدم وسط جمع من الغرباء .. وكانت — هى الاخرى — تتحرق الى رؤيته .. وسرعان ما نسى كل شيء ، وجهد فى أن يبدى الود .. وهتف : « هالو كريس ، حسبت انك لن تعودى أبدا !.. نعم ، لك أن تنظرى اليه .. انه « كون » بلحمه وعظمه ، ولم يكبر يوما واحدا . لقد نزل عندنا يا كريس !.. سنشرح لك كل هذا فى السيارة ، فهى معى هنا . هل استمتعت برحلتك ؟.. أوه ! اسمعى ، لم تحملين حقيبتك ؟ »

وفوجئت كريستين بهذا الاستقبال على المحطة ، فقد كانت تخشى الا يكون أحد فى انتظارها . فتغيرت سحنتها ، واحمرت وجنتاها شيئا ما .. كان لديها هى الاخرى ما تخشاه ، فكانت متوترة الاعصاب لفرط تطلعها الى وصل ما انقطع من ودهما القديم .. **وجلست مع « كون » فى المقعد الخلفى للسيارة ، وراحت تتكلم فى حماس ، محدقة فى أندرو الذى كان يقود السيارة** . وما ان دخلت الدار ، حتى تنفست ملء رئتيها ، وقالت : « ما أجمل أن يعود المرء الى داره ! » . ثم أردفت فى حرارة : « هل أوحشتك يا أندرو ؟ »

— أعتقد ذلك .. لقد أوحشتنا جميعا ، أليس كذلك يا مسز بنيت ؟ أليس كذلك يا فلورى ؟.. ياللشيطان يا كون ، ماذا نفعل بهذه الأمتعة ؟

وخرج على الفور يساعد « كون » — دون داع — فى نقل الحقائب ، ثم أسرع الى جولته المألوفة لعيادة مرضاه — قبل أن يتسع الوقت لقول أو عمل — واعدا بأن يكون فى الدار فى موعد الشاي . وغمغم لنفسه وهو يتخذ مكانه في سيارته :

« الحمد لله ، لقد مرت المسألة بسلام !.. لا يبدو أنها افادت كثيرا من رحلتها . أوه ! انى على يقين من انها لم تلحظ شيئا ، وهذا هو المهم ، فى الآونة الحاضرة ! » .

وعاد متأخرا ، بيد أنه اصطنع مرحا مبالغا فيه . وسر « كون » أيما سرور لصفاء مزاجه ، فقال : « الحق يا مانسون العزيز ، انك مشرق كما لم تشرق فى أى وقت ! » .. **وفطن أندرو ـ مرة أو مرتين ـ الى أن نظر كريستين كان مصوبا اليه ، وكأنها تلتمس اشارة ، أو التفاتة معبرة . وخيل اليه ان مرض مارى قد شغلها واقلق بالها** ، اذ قالت فى سياق الحديث انها طلبت الى « كون » أن يبرق لمارى بالحضور على الفور .. بل فى اليوم التالى أن أمكن .. كانت مهمومة من أجل مارى ، وراحت تأمل أن يستطيع أندرو ان يفيدها بنفع ، فى أسرع وقت مستطاع !

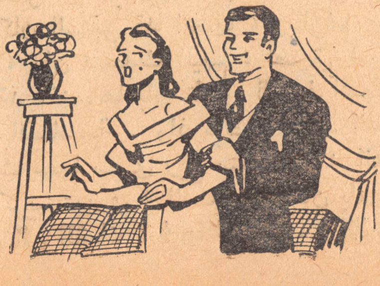
وكان تدبير الاقدار أفضل من تدبير أندرو . فقد ابرقت مارى معلنة أنها قادمة قبيل الغداء فى اليوم التالى ، فشغلت كريستين باعداد كل ما يلزم لاستقبالهـا .. بل ان الحـركة التى سادت الدار طغت على ضيق أندرو . على أنه سرعان ما تمالك نفسه عندما وصلت مارى .. كانت نظرة واحدة تكفى للحكم بأنها مريضة . فقد كانت فى العشرين ، طويلة القامة ، نحيلة الجسم ، مقوسة الكتفين قليلا . وكان لونهـا نضيرا على نحو غير طبيعى ، أدرك منـه أندرو على الفور كل شىء .. وكان السفر قد اتعبها ، وبالرغم من رغبتها فى ان تظل بينهم ، وان تتحدث اليهم ، لعميق شوقها الى رؤيتهم جميعا ، فقد اقنعرها بأن تأوى الى فراشها عندما اقتربت الساعة من السادسة . واذ ذاك ، صعد أندرو ليفحصها .

ولم يمكث معها سوى ربع ساعة ، بيد أنه حينما عاد الى « كون » وكريستين فى « الصالون » كان بادى الهم . وقال : **« لا سبيل الى الشك ، فيما أخشى .. القمة اليسرى . ان**

ما قاله ليولين صحيح تماما يا كون ، ولكن لا تخف ، فالداء فى المرحلة الاولى فقط ، وسنتغلب عليه ! » . فتساءل كون مكتئبا ، قلقا : « أتعنى أن من الممكن شفاءها ؟ » .. فهتف أندرو : « أجل ، استطيع أن أقول هذا . ولكنه يتطلب العناية بها ، وملاحظتها بصفة مستمرة ، واتخاذ كافة الاحتياطات » ثم عبس قليلا ، وقال : « يلوح لى يا كون ان (ابيرالو) أسوأ مكان بالنسبة لها . ان مرضا كهذا ، لا يزال فى بدايته ، يقتضى الانسان أن يبرح داره .. هلا سمحت لى بادخالها مستشفى فيكتوريا ؟.. ان علاقتى بالدكتور ثوروجود حسنة جدا ، ومن المؤكد اننى استطيع وضعها فى عنبره ، وسألاحظها عن كثب » . فصاح توم متأثرا : « هذا دليل قوى على صداقتنا ، يا مانسون .. ليتك تعرف كم تثق ابنتى فيك . ان كان فى وسع انسان ازالة ما بها ، فهو أنت ! »

وبادر أندرو الى الاتصال تليفونيا بثوروجود ، ثم عاد — بعد خمس دقائق — يعلن أن مارى ستقبل فى « فيكتوريا » فى آخر الاسبوع . واستعاد كون سكينته بوضوح ، اذ تضاعف تفاؤله بدخول مارى مستشفى الامراض الصدرية ، وعناية أندرو ، وملاحظة ثوروجود لها !

وقضوا اليومين التاليين فى انشغال تام ، فلما كان عصر



يوم السبت ـ وقد استقرت مارى فى المستشفى ، واستقل كون القطار الى بادنجتون ـ الفى اندرو نفسه فى مركز ساعده على مواجهة الموقف ، فشد على ذراع كريستين ، وهتف فى رفق وهو يتأهب للخروج : «حسن يا كريس أن نكون معا مره أخرى .. يا الهى ، أى أسبوع قضيناه ! » . وكانت لهجته معبرة عن الواقع أصدق تعبير .. وكان من الخير أنه لم ير ملامح وجه زوجته ! .. أما هى فجلست وحيدة فى غرفتها ، وقد احنت رأسها شيئا ما ، ويداها الى ركبتيها ، لا تبدى حراكا .. كان الامل يملأ نفسها ، فى بداية عودتها ، أما الآن ، فان سؤالا ثقيلا راح يتردد فى نفسها : متى وكيف ينتهى كل هذا ؟ !

— ١٥ —

• أخذ تيار نجاح أندرو يشتد يوما بعد يوم ، فيجرفه دون أن يقوى على مقاومته . وازدادت صلته بهامبتون وايفورى توثقا وأحكاما ، واصبحت اجدى عليه منها فى أى وقت ، فضلا عن أن فريدمان طلب اليه أن ينوب عنه فى معالجة بعض حالات فى فندق « بلازا » أثناء غيابه أسبوعا فى « توكيت » .. واعرابا عن شكره له ، قاسمه الاتعاب مناصفة .. وكان هامبتون هو الذى اعتاد ان ينوب عن فريدمان ، غير أن أندرو لحظ ـ منذ بعض الوقت ـ ان فتورا قد دب فى علاقتهما .. وما كان أعظم ازدهاء أندرو ، حينما كان يدخل ـ مباشرة ـ مخدع احدى نجوم السينما ، فيجلس على فراشها الناعم ، ويداعب ـ بيد مطمئنة ـ جسمها الغض .. وقد يدخن سيجارة معها اذا اتسع وقته لذلك !

وكان أكثر زهوا بأن يكون موضع رعاية « جوزيف لى روى » الذى تغدى معه مرتين فى الاشهر الاخيرة . وكان يعرف أن « لى روى » يفكر فى أمور هامة .. ولقد قال له أثناء مقابلتهما

الاخيرة ، وكأنه يجس النبض : « أتعرف يا دكتور اننى فكرت فيك ؟ .: اننى أعد مشروعا ضخما ، وقد أكون فى حاجة الى كثير من الآراء السديدة فى الشئون الطبية . ولست أريد — بعد اليوم — أحدا من اولئك الكبار المرائين .. ان رمبولد الكهل لا يساوى ما فى جسمه من وحدات حرارية ، وسنتخلص منه بدون ابطاء ... ثم اننى لم أعد أطيق هذا الحشد من أدعياء الخبرة ، الذين يختلفون فيما بينهم ويديرون رأسى .. انما أريد مستشارا طبيا متزنا ، وأحسب انك الرجل الذى يلزمنى ، فأنت تدرك اننا أوصلنا الى قسم كبير من الجمهور منتجاتنا المصنوعة على أساس شعبى ، بيد أننى أرى مخلصا أن الوقت قد حان لتوسيع نطاق عملنا ، والمضى قدما فى ابتكار منتجات الالبان بالاساليب العلمية .. كفصل العناصر المكونة للبن وكهربتها وصنعها أقراصا : كريمو مع فيتامين « ب » ، و « كريموفاكس » ، و « ليتيسين » ضد سوء التغذية والانيميا والارق !.. أتفهمنى يا دكتور ؟.. وفوق هذا ، اعتقد اننا اذا فعلنا ذلك على أسس طبية صحيحة ، استطعنا أن نطمئن الى مساعدة وتشجيع الهيئة الطبية كلها ، فيكون لنا من كل طبيب بائع لمنتجاتنا ، ان جاز هذا التعبير .. وهذا يحتاج الى حملة اعلانية علمية واسعة النطاق ، والى نشرات علمية .. وفى هذا المجال ، لابد لنا — فيما ارى — من طبيب شاب موهوب ، ذى عقل علمى ، نلحقه بالمشروع .. والآن ، احب أن تفهم تماما ما اعنى .. الواقع اننا فى سبيل النهوض بمستوى صناعتنا ، واذا تأملنا المستحضرات عديمة القيمة التى يوصى بها الاطباء — مثل «ماروبين سى» .. و «فيجاتوج» ، و « بونيبران » — فاننى ارى اننا بتحسين الحالة الصحية العامة ، انما نسدى خدمة جليلة للشعب ! »

ولم يحاول أندرو أن يتذكر أن حبة واحدة من البازلاء الخضراء ، قد تحتوى من الفيتامينات اكثر مما تحتويه عدة

علب من « الكريمو فاكس » . فهو لم يغتبط بفكرة الاتعاب التى سيتقاضاها اذا ما عين عضوا فى مجلس الادارة ، بقدر ما اغتبط بفكرة الرعاية التى كان لى روى يؤثره بها .. ولقد كانت فرانسيس هى التى بينت له كيف يستطيع أن يفيد من عمليات « لى روى » فى السوق . آه ! ما أبدع الذهاب اليها ، وتناول الشاى معها ، والشعور بأن هذه المرأة الفاتنة الراقية تنظر اليه نظرة خاصة ، وتبتسم له ابتسامة ودية خلابة .. **كانت علاقاته بها تسمو به هو أيضا ، وتبعث فى نفسه الثقة والاطمئنان ، وتزيده رواء واشراقا ، ولقد أخذ — دون ان يعى — يتأثر بفلسفتها ، ويتعلم بتوجيهها كيف يتجه الى صنوف الترف عديمة الجدوى ، ويهمل الامور الجدية !**

ولم يعد يرتبك ازاء كريستين ، فقد بات فى مقدوره أن يعود الى داره فى حالة طبيعية تماما ، بعد أن يكون قد قضى ساعة مع فرانسيس ، ولم يكن لديه متسع من الوقت للتفكير فى هذا التغير المذهل الذى طرأ عليه ، فاذا فكر فيه مصادفة ، فانما يفكر لكى يقنع نفسه بأنه ليس عاشقا لمسز لورنس ، وبأن كريستين لا تفطن الى شىء ، وبأن كل رجل لابد بالغ — فى وقت ما من حياته — هذا المأزق . ففيم يزعم انه مختلف عن الآخرين ؟.. وكان — فى مقابل هذا — يجتهد فى أن يبدو ملاطفا لكريستين الى أقصى حد ، فكان يحدثها باحترام ، بل ويتدارس معها مشروعاته .. وعرفت أنه كان يعتزم أن يشترى — فى الربيع القادم — دار شارع (ويلبيك) ، فليبرحان (تيراس تشيسبورو) فور اتمام الترتيبات اللازمة . ولم تعد تتشاجر معه أو تقذفه بالاتهامات فى وجهه .. فاذا تجهم وجهها فى بعض اللحظات ، فانه لم يكن يلحظ هذا التغير .

وقصارى القول أنها كانت تلتزم جانب السلبية ، بينما كانت الحياة تدفع آندرو بسرعة لا يستطيع معها أن يقف للتفكير والتروى .. وكان يتلهى بمشاهدة سباق الزمن هذا ، فينتابه

شعور خاطىء بأنه قوى ، ملىء بالحياة .. وقد أخذ هذا الشعور يستفحل يوما بعد يوم ، ويسيطر على نفسه وعلى مصيره !

ثم .. ومن كبد السماء ، انقضت الصاعقة !.. ففى مساء الخامس من نوفمبر ، أقبلت زوجة تاجر صغير ــ من الجيرة ــ الى (تيراس تشيسبورو) تستشير أندرو .. وكانت مسز فيدلر لندنية اصيلة ، قصيرة ، فى اوسط العمر ، ذات حيوية ، وعينين براقتين ، لم تبرح الحى الا لماما .. وكان أندرو يعرف أسرة فيدلر تمام المعرفة ، فقد عالج ــ فى بدء عهده بالحى ــ ابنهم الصغير من احد أمراض الاطفال . كما انه اصلح عندهم بعض احذيته ، فى تلك الايام الاولى . ذلك أن هؤلاء الناس الطيبين ، النشيطين ، كانوا يديرون ــ فى شارع (بادينجتون) ــ حانوتا ذا شطرين ، يحمل لافتة تقول فى شىء من الادعاء : « شركة التجديد ، ليمتد » ! .. فكانوا يمارسون فى أحد جزئيه اصلاح الاحذية ، وفى الآخر تنظيف وكى الملابس !

وكثيرا ما كان اندرو يرى « هارى فيدلر » . وكان رجلا قويا ، شاحب الوجه ، يرتدى قميصا بغير ياقة ، ويشمر عن ساعديه ، وقد أمسك ــ بين ركبتيه ــ قالب حذاء ، او انصرف فى الحانوت المجاور الى كى الثياب ، برغم المساعدين الذين كان يستعين بهم .. وكان « هارى » هو الذى جاءت مسز فيدلر تتحدث الى الطبيب عنه . فقالت بحيويتها المعتادة : « ان زوجى ليس فى صحة جيدة . انه منذ أسابيع يتحامل . وقد الححت عليه فى أن يعرض نفسه عليك ، ولكنه ابى . فهل تستطيع الحضور الى المنزل ؟.. سأحمله على ان يلزم الفراش ! »

ووعدها أندرو بالذهاب . وفى صباح اليوم التالى ، وجد « فيدلر » فى فراشه يشكو من آلام باطنية وتضخم متزايد . وكان الجزء الاوسط من جسمه قد تضخم ــ منذ بضعة

أشهر — على نحو شاذ ، فأخذ — كأكثر المرضى الذين نعموا طيلة حياتهم بصحة جيدة — يفسر الامر تفسيرات مختلفة ، فيعزوه الى اسرافه — بعض الشيء — فى احتساء البيرة ، أو الى قلة حركته !.. بيد أن اندرو اضطر — بعد فحصه — الى ان يعارض تفسيراته ، اذ اقتنع بأن عنده تورما باطنيا . ومع انه لم يكن فى الامر خطورة ما ، فانه كان يحتاج الى عملية جراحية .. وطمأن فيدلر وزوجه قدر ما وسعه الجهد ، قائلا أن تورما بسيطا كهذا قد يتفاقم فى الداخل فيسبب متاعب تتلاشى بمجرد استئصال الورم . ولم يخامره اى شك فى نتيجة الجراحة ، فاقترح ادخال فيدلر الى المستشفى .

غير أن مسز فيدلر لم تكد تسمع ذلك ، حتى بسطت يديها وهتفت : « كلا يا دكتور ، لا أريد أن يذهب هارى الى المستشفى » . وراحت تصارع انفعالها ، محاولة التماسك ، وهى تقول : « لقد كنت أتوقع أن يحدث له هذا ، لفرط ما يرهق نفسه فى العمل . أما الآن وقد حدث ، فنحن والحمد لله فى مركز نستطيع معه مواجهة الامر . اننا — كما تعلم يا دكتور — غير أثرياء ، على اننا نملك بعض المال المدخر ، وهذا وقت الافادة منه .. لست أريد أن يسعى هارى وراء خطابات توصية ، أو أن يريق ماء وجهه ليدخل عنبرا عاما فى مستشفى ، كما لو كان معدما ! » . فقال أندرو : « لكن يا سيدتى ، فى وسعى أن اتخذ التدابير .. »

— كلا .. لك ان تدخله أحد المستشفيات الخاصة وهى كثيرة هنا ، وان تحضر جراحا خاصا لاجراء العملية له . اقطع لك يا سيدى أن هارى فيدلر لن يذهب الى مستشفى عام ، طالما كنت من أهل هذه الدنيا !

واحس أندرو منها اصرارا ، فضلا عن أن « فيدلر » اخذ برأيها ، منذ اقتنع بالضرورة غير السارة ، فرغب فى أن تبذل له كل عناية ممكنة .. وفى المساء عينه ، اتصل أندرو

تليفونيا بايفورى ، فلقد أصبح الاتصال بايفورى مهمة آليـة بالنسبة إليه ، لا سيما وقد كان - فى هذه المرة - يسـأله خدمة . فقد قال له : « أود يا ايفورى أن تؤدى لى صنيعا ، فان لدى حالة ورم باطنى يقتضى الاستئصال .. انهم أناس طيبون ، مجدون ، ولكنهم غير أثرياء ، **وأخشى الا تثير هـذه الحـالة اهتمامك كثيرا ، بيـد اننى أكون شـاكرا اذا قبلت اجراء العملية لقاء .. ليكن ثلث اتعابك العادية ! »**

وأبدى ايفورى شهامة ، فقال انه ما كان يسره شىء أكثر من أن يؤدى لصديقه مانسون أية خدمة فى مقدوره . وتحادثا عن المرض بضع دقائق ، ثم اتصـل أندرو تليفونيا بمسز فيدلر ، وقال : « لقد تكلمت منذ لحظة مع مستر تشارلس ايفورى الجراح فى (ويست اند) ، وهو من أعز أصدقائى . وسيأتى معى لرؤية زوجك .. غدا فى الحادية عشرة ، فهل يناسبك هذا ؟ .. وهو يقول - أتسمعيننى يا مسز فيدلر ؟ - انه يقول انه سـيجرى الجراحة ، اذا لم يكن منها بد ، لقاء ثلاثين جنيها . فاذا عرفنا ان اتعابه مائة جنيه عادة - وقد تزيد - فانى أرى اننا محظوظون جدا ! » . فقالت ولهجتها تشى بالضيق ، وان جهدت فى أن تبـدو مرتاحة : « نعم يا دكتور ، نعم .. هذا كرم منك بلا شك . أحسب انه فى مقدورنا - بشكل أو بآخر - دفع هذا المبلغ ! »

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، فحص ايفورى المريض مع أندرو .. وفى اليوم الذى اعقبه ، دخل « هارى فيدلر » مستشفى « برينسلاند » الخاص ، الذى يقع فى الميدان الذى يحمـل نفس الاسم .. وكان مؤسسة قديمـة الطراز ، وان كانت نظيفة ، غير بعيدة عن (تيراس تشيسبورو) . وهى أحدى مؤسسات عديدة من نوعها فى الحى ، معتدلة النفقات ، قليلة

الاثاث والاجهزة . فان معظم النزلاء لم يكونوا يحتاجون لاكثر من العناية الطبيـة . **والواقع أن هـذا المسـتشفى - ككل المستشفيات الاخرى التى عمل فيها أندرو فى لندن - لم ينشأ بحال للغرض الذى اصبح يستخدم فيه . فلم يكن به مصعد ، وكانت غرفة العمليات صغيرة ضيقة** . بيد أن مس « بكستن » - صاحبته - كانت تحمل شهادة التمريض ، وكانت امرأة نشطة . وكيفما كان الامر بالنسبة لعيوب المستشفى ، فان كل ما فيه كان مطهرا ، حتى أصغر أركان ارضه المفروشة بالمشمع اللامع !

وحدد لاجراء العملية يوم الجمعـة . ولم يكن فى وسـع ايفورى ان يحضر قبل الساعة الثانية بعد الظهر ، برغم أنها ساعة متأخرة جدا .. ولقـد وصـل أندرو أولا ، ثم قدم ايفورى فى الموعد تماما ، ومعه طبيب التخدير ، ووقف يراقب سائقه وهو ينقل الى المستشفى حقيبة ادواته ، فما كان يرضى أن يستعمل أدوات أخرى ، حرصا على دقة جراحته .. ومع أنه لم يرتح الى المكان ، الا انه لم يبد شيئا من الامتعاض ، بل طمأن مسز فيدلر - التى كانت ترتقب قـدومه فى قاعـة الانتظار - واستولى على قلب مس بكستن وممرضاتها ، ثم ارتدى معطفه وقفازيه ، وغدا على أتم استعداد لبدء العمل .. فتقدم المريض فى عزم واستبشار ، وخلع ثوب الحجرة (الروب دى شامبر) ، ثم اعتلى المنضدة الضيقة .. **وكان فيدلر يدرك تماما أن لا بد له من اجتياز هذه المحنة ، فآثر أن يخوضـها بشجاعة . وقبل أن يضع الطبيب المخدر القناع على وجهه ، ابتسم لاندرو وقال : « لسوف تتحسن صحتى بعد العملية ! »** وان هى الا ثانية حتى اغمض عينيه ، واستنشق انفاسا طويلة من « الايثير » ، وكأنه منهوم اليها .. ورفعت « مس بكستن » الرباط ، فظهرت المنطقة المطلية باليود متضخمة جدا فى تورم لامع .. وبدأ ايفورى الجراحة ! .. فعمد أولا الى ايلاج حقن

فى أعماق العضل ، وهـو يقول فى رصانة لاندرو : « هـذه طريقتى دائما لمقاومة رد فعل الجراحة ! »

ثم بدأ العمل الحقيقى ، فشق وسط البطن شقا طويلا ، واذا الداء يتكشف على الفور ، اذ برز الورم من خلال الفتحة ، أشـبه ما يكون بكرة قدم منتفخة على آخرها ، ومبتلة . وتضاعف ارتياح أندرو ، اذ اطمأن الى صحة تشخيصه . وفكر فى أن صحة فيدلر لن تلبث أن تتحسن حالما يتخلص من هذا الورم اللعين .. وطافت بخياله الزيارة التى ينتظرها مريض آخر من مرضاه ، فألقى نظرة عاجلة على ساعته .. غير أن ايفورى راح – وهو ثابت الجأش كالعادة – يهز الكرة ، وهو يحاول فى دأب أن يضع يده على نقطة الاتصـال ، فلا يفلح .. وكان كلما جهد أن يتحكم فى الورم ، أفلت منه هذا !

وبذل عشرين محاولة على الاقل ، وأندرو يرقبه متوتر الاعصاب ، ويسائل نفسه : « ماذا تراه يعمل ؟ » .. ولم يكن فى البطن فراغ كبير يعمل فيه ، ولكن الفراغ كان مناسبا . ولقد رأى ليولين ودينى وكثيرين غيرهما – فى مسـتشفاه العتيق – يعملون بمهارة فى فراغ أقل ، فان مهنة الجراح هى أن يحرك أدواته فى أماكن دقيقة . وخطر له – فجأة – ان هذه أول عملية يجريها ايفورى لفتح البطن ، بناء على طلبه ، فأعاد ساعته الى جيبه – فى تراخ – واقترب من المنضدة بوجه صارم ، وكان ايفورى سادرا فى محاولة القبض على الورم من خلف ، محتفظا بهدوئه ، واتزانه ، ودقته ، ومس « بكستن » وممرضة شابة تقفان الى جانبه ، مطمئنتين ، وان لم تعرفا من الامر سوى القليل . وكان طبيب التخدير – وهو رجل أشيب – مستغرقا فى تفكير عميق ، وهـو يفرك سـدادة زجاجة .

كان جو الغرفة الصغيرة – ذات السقف الزجاجى والجدران العارية – هادئا تماما ، وليس ثمة ما يوحى بالقلق ، أو ينذر

بمأساة وشيكة الوقوع .. كل ما هنالك ان ايفورى راح يرفع احدى كتفيه ، ويحرك يديه محاولا بلوغ مؤخر الكرة اللزجة .. بيد أن أندرو أحس بقشعريرة لم يدر لها سببا !.. والفى نفسه فجأة مقطب الجبين ، يرقب ما يجرى بانتباه . مم يخاف ؟ لم يكن هناك داع للخوف ، فهى جراحة غاية فى البساطة ، ولن تلبث أن تتم فى بضع دقائق !

وعدل ايفورى ، فى ابتسامة واهنة ــ كما لو كان مرتاحا ــ عن محاولة العثور على نقطة الاتصال . وتطلعت اليه الممرضة الشابة فى تواضع حينما طلب سكينا ، ثم أتته بها ، فتناولها بحركة وئيدة . لعله لم يبد طوال حياته العملية أشبه ما يكون بشخصية الجراح الكبير ــ التى ترد فى الروايات ــ منه فى هذه اللحظة !.. وقبل أن يعرف أندرو شيئا مما يفعل ، أحدث ايفورى بالسكين ثغرة عريضة فى جدار الورم اللامع ، واذا كل شىء يحدث على الفور : انفجر الورم قاذفا فى الهواء كتلة من الدم الوريدى المتجمد ، وقاذفا كل ما كان يحتويه فى فراغ البطن .. وفى ثانية واحدة ، استحالت الكرة المنتفخة الصلبة الى كيس رخو من الانسجة ، يسبح فى دم رقراق . فاحضرت مس بكستن ــ وهى مذعورة ــ محابس لتضغط العروق فلا ينساب الدم فى نزيف .. وجلس طبيب التخدير فجأة وقد جمدت مفاصله ، وبدا أن الممرضة الشابة توشك أن يغمى عليها . أما ايفورى ، فقد قال فى رصانة : « محابس من فضلك ! »

واستولى الفزع على أندرو ، فقد رأى أن ايفورى حين اخفق فى الامساك بنقطة الاتصال ، ليبتر الكيس المتورم ، عمد الى شق الكيس فى غير تبصر .. وكان خراجا نزيفيا !.. وقال ايفورى وهو ثابت الجنان : « اسفنج من فضلك ! » .. وراح يتحسس الكيس محاولا وضع المشابك ، مفرغا ــ بقطعة من الاسفنج ــ الفجوة المليئة بالدم ، دون أن يستطيع وقف

النزيف . **وطافت برأس أندرو بغتة فكرة مرت به كالبرق : « يا الهى ، انه لا يعرف الجراحة .. انه غير كفء بحال ! »)) . وغمغم طبيب التخدير ، وهو يضع أصبعه على الوريد الابهر ، وكأنه يعتذر : ((اخشى .. يبدو يا ايفورى أنه يحتضر ! »)**

وترك ايفورى المشبك ، وملأ فراغ البطن بالشاش المعقم ، ثم أخذ يخيط الشق الكبير . ولم يعد ثمة تورم ، بل أن بطن « فيدلر » بدت مجوفة ، شاحبة ، فارغة ، لسبب واحد : **هو أن التعس كان قد مات !!** .. وقال طبيب التخدير أخيرا : « أجل .. لقد مات ! »



وخاط « ايفورى » آخر غرزة ، وقطع الخيط بعناية ، ثم استدار نحو ادواته فوضع المقص بينها .. ولم يقو اندرو على أية حركة .. وسحبت مسز بكستن الاغطية ، وهى مأخوذة شاحبة الوجه ، ثم بارحت الغرفة ، وقد راحت تحاول جاهدة أن تتمالك جأشها . وأقبل ممرض بالمحفة المتنقلة ، وهو يجهل ما حدث .. وبعد دقيقة ، كان جسم هارى فيدلر قد أعيد الى حجرته . وقال ايفورى أخيرا بصوت أجش ، وهو يخلع معطفه : « ياله من نحس .. انها الصدمة الناشئة عن رد الفعل .. الا تعتقد هذا يا جراى ؟ » . فغمغم طبيب التخدير بكلمات مبهمة ، وهو منهمك فى وضع جهازه فى صندوقه . أما أندرو ، فقد ظل عاجزا عن أن يفوه

بكلمة . وذكر بغتة ـ وقد اشتد وجله ـ أن مسز فيدلر كانت تنتظر فى الطابق الاسفل . فقال ايفورى وكأنه قرأ ما جال بخاطره : « لا تنزعج يا مانسون .. سأتولى أمر السيدة الصغيرة . هيا ، سأسوى لك المسألة ! »

* * *

وهبط أندرو السلم المؤدى الى قاعة الانتظار ، خلف ايفورى ، وكأنه فاقد الوعى .. كان لا يزال مشدوها ، منقبض الصدر ، يشعر بغثيان .. لم يكن بوسعه قط ان يبلغ مسز فيدلر النبأ الاليم . وكان ايفورى هو الذى استطاع مواجهة الموقف ، اذ قال مواسيا وهو يضع يده على كتفها : « لدينا يا سيدتى العزيزة .. لدينا نبأ سىء نقوله لك ! » .. وشبكت أصابع يديها ، وبدا فى عينيها الفزع ممتزجا بالرجاء ، وتمتمت : « ماذا ؟ »

ـ ان زوجك المسكين يا سيدتى .. على الرغم من كل ما فعلناه من اجله ..

وتهاوت على مقعد وقد امتقع وجهها وعلته صفرة ، وغمغمت بصوت يعصر الفؤاد : « هارى ! هارى ! » . فمضى ايفورى يقول فى حزن : « كل ما يمكننى ان اقوله لك ، نيابة عن الدكتور مانسون ، وجراى ، ومس بكستن ، وأصالة عن نفسى ، هو انه لم تكن ثمة قوة على الارض تستطيع انقاذه .. ولو انه عاش بعد العملية .. » . ولم يتم عبارته ، بل هز كتفيه فى حركة ذات معنى . فتطلعت متفرسة فى وجهه ، تحاول أن تفهمه ، وهى تشعر ـ حتى فى هذه اللحظة الرهيبة ـ بمواساته لها ، وطيبته نحوها . وهمهمت من خلال دموعها : « لم يكن يسعك أن تقول لى شيئا ادعى لسكينة نفسى مما قلت ! »

ـ سأرسل لك الممرضة .. اجتهدى فى أن تتجلدى ..

شكرا ، شكرا على ما تبدين من شجاعة !

وبرح الصالون ، فسار أندرو فى أعقابه ، فى هـذه المرة أيضـا . وكان المكتب فى طرف الردهة ، وقد خـلا من كل انسان ، فولجه ايفورى وأخرج علبة سجائره وأشعل واحدة منها ، وجذب بضعة أنفاس . **ولعله كان أشد شحوبا منه فى الاوقات العادية ، بيد أنه كان ثابتا ، متماسكا ، لم يتزعزع .. وقال فى برود : « لقد انتهى الامر .. اننى آسف يا مانسون ، فلم أتصور أن يكون هذا الخراج نزيفيا . ولكن هذه ـ كما تعرف ـ أمور تحدث برغم كل الاحتياطات ! »**

ولم يكن فى الغرفة الصغيرة سوى مقعد واحد الى جانب المكتب . فتهالك أندرو على سياج المدفأة المكسو بالجلد ، وركز نظره محموما على زهور امتلأت بها زهـرية خضراء كانت فى فراغ المدفأة الخاوى .. وأحس بسقام ، وبشرود ، وبأنه يوشك أن ينهار تماما ، وهو لا يستطيع فكاكا من طيف هارى فيدلر ، الذى سار بدون معين لينطرح فوق منضدة الجراحة ، وهو يقول : « لسوف تتحسن صحتى بعد العملية ! » ، فاذا به ـ بعد عشر دقائق ـ مسجى على المحفة ، جثة هامدة .. لقد مات غيلة ! .. وعض اندرو على شفتيه ، وحجب عينيه بيده !

وتأمل ايفورى طرف سيجارته ، ثم قال : « انه لم يمت على المنضدة فى الواقع ، بل أن الجراحة انتهت قبـل موته ، فلا ذنب لنـا ، ولا داعى لتحقيـق ! » . ورفع أندرو رأسـه وهو يرتعش ، وقد أهاجه شعوره بضعفه فى هذا المـوقف المحزن ، الذى كان ايفورى يواجهه ببرود تام . **وقال فى غيظ بالغ : « هلا التزمت الصمت ، بحق المسيح ! .. أنت تعرف جيدا انك قتلته . انك لست جراحا ، ولم تكن ـ ولن تكون ـ جراحا فى يوم من الايام ! .. انك أبشع جـزار رأيتـه فى حياتى ! »**

وساد صمت قذف ايفورى خلاله أندرو بنظرة باردة قاسية ، ثم قال : « لست أحب كثيرا هذه اللهجة يا مانسون ! » . فأطلق أندرو زفرة هزت كيانه هزا عنيفا ، وقال : « لا تحبها ؟ ! .. أعرف هذا جيدا ، بيد أن الذى قلته هو الحق .. ان كل الحالات — التى عرضتها عليك حتى الآن — لم تكن سوى عبث أطفال ، أما هذه ... فهى أول حالة خطيرة نعالجها معا . آه ! يا الهى ! .. كان من الواجب أن أدرك .. اننى لا أقل عنك ذنبا ! »

— استعد هدوءك ، أيها المتهوس الاحمق ! .. سيسمعونك ..

فانتابت أندرو نوبة غضب أخرى ، وصاح بصوت مختنق : « وماذا لو سمعوا ؟ .. انك تعرف مثلى ان هذه هى الحقيقة . لقد كنت متهورا .. ان ما فعلته يكاد أن يكون اغتيالا ! » .. وبدا كأن ايفورى يوشك أن يلكمه فيسقطه فاقد الوعى وراء سياج المدفأة . وكان بتركيبه الجسدى وقوته قادرا على ذلك . بيد أنه تمالك نفسه بجهد جبار ، وغادر الغرفة دون أن ينطق ببنت شفة ، وان كان وجهه الصارم البارد قد نم عن الحقد والضغينة !

ولم يدر أندرو كم من الوقت بقى فى المكتب ، مسندا جبينه الى رخام المدفأة البارد ، بيد أنه نهض — أخيرا — وهو يفكر مهموما فى ما كان ينتظره من عمل .. وكانت صدمة هذا الخطب أشبه بقنبلة عنيفة ، أطاحت — وهى تنفجر — بكل شىء . كان يحس كما لو ان بطنه هو الآخر قد شق .. ومع هذا فقد مضى فى سبيله مضى الآلة ذات الاندفاع الذاتى .. مضى أشبه بجندى باسل جرح فى حومة الوغى جرحا بليغا ، ولكن حكم العادة راح يدفعه الى اداء واجبات كان يعرف ان الجيش يعتمد عليه فى ادائها .. وهكذا تمكن — كيفما اتفق — من اتمام الطواف على مرضاه ، ثم عاد الى داره مكتئبا حزينا ، فبلغها والساعة تقترب من السابعة ، وهو موعد

استشاراته المسائية .

وكانت قاعة الانتظار وحجـرة العيـادة مزدحمتين حتى الباب ، ولا موضع فيهما لقدم . وراجع ـ فى وهن المحتضر ـ قائمة المرضى الذين جاءوا اليه بهذه الوفرة فى هذه الامسية الجميلة من أمسيات الصيف ، دليلا على تقديرهم لشخصه . وكان أكثرهم من النساء ـ وبينهن عدد كبير من عاملات « لوربيه » ـ ومن اناس يترددون عليه منذ أسابيع،تشجعهم ابتسامته ولباقته وأسلوبه فى اقنـاعهم بالمثابرة على تنـاول أدويتهم .

وتهالك فى مقعد عيادته ، وبدأ يؤدى واجباته المعتادة ، وهو يخفى مابه .. وقال للمريضة الاولى : « كيف انت الآن ؟ .. نعم ، أعتقـد أنك تبـدين أحسن حالا .. نعم ، النبض أقوى كثيرا . الدواء يفيدك . آمل ، يا آنستى العزيزة ، ان تحتملى مرارة مذاقه ! » . وخرج ليعطى كريستين زجاجة الدواء الفارغة . واجتازالردهة متجها نحومكتب استشاراته ، حيث وجه نفس الاسئلة التافهة ، مبديا نفس العطف الزائف، ثم عـاد الى الردهة ليـأخذ الزجاجة بعـد ان ملئت ودخل العيادة ، مواصـلا ـ دون توقف ـ هـذه الحركة الجهنمية المفروضة عليه .

وأحس بأنه يختنق ، وبأن ألمه لا يطاق، ولكنه صمد ليعذب نفســه من ناحية ، ولانه ـ من ناحية أخـرى ـ لم يـكن يستطيع التوقف بحال . **ولم ينقطع ـ وهـو يروح ويجىء من مكتب لآخر ، مشتت الوعى لفرط اللوعة ـ عن أن يسائل نفسه : « الى أين المصير ، بحق السماء ! الى أين ؟ . »**

وأخيرا ، أتم كل شىء فى العاشرة والربع ، متأخرا عن كل يوم ، فاغلق باب العيادة الخارجى بالمفتاح ، وعاد الى مكتبه حيث كانت كريستين تنتظره كالعادة ، متأهبة لاملاء القوائم ،

ولمساعدته فى تدوين الاسماء بالسجل . ولاول مرة – منذ أسابيع – راح يتأملها ويتفرس فى وجهها بنظرات دقيقة ، بينما كانت تفحص القوائم التى فى يدها . وأذهله – برغم فتوره – أن يرى كم تغيرت : كان وجهها مقطبا مكتئبا ، وشفتاها متراخيتين . ومع أنها لم تتطلع بعينيها نحوه ، الا انه أدرك انهما كانتا مليئتين بحزن قاتل !

وأحس وهو جالس الى المكتب – وأمامه السجل الضخم – بألم شديد فى جنبه . على ان جسمه – هذا الغلاف الذى كان يضم كائنا منهارا – لم يش بشىء من هذا الالم الداخلى . وبدأت كريستين تملى عليه الاسماء – قبل أن يتمكن من الكلام – فراح يضع فى مقابل كل اسم فى السجل صليبا يرمز الى كل زيارة ، ودائرة ترمز الى كل استشارة ، وهو يحصى – فى ذهنه – جميع ذنوبه .. حتى اذا تم كل شىء سألته بلهجة ، لحظ – فى هذه اللحظة فقط – مبلغ ما تنطوى عليه من سخرية لاذعة : « كم ايراد اليوم ؟ »

ولم يجب ، وأنى له أن يجيب ؟ ! .. وبرحت كريستين الغرفة . وسمعها تصعد الى حجرتها ، وتغلق بابها فى رفق .. واصبح وحيدا ، منهارا ، مكتئبا ، مستغرقا فى تفكير عميق : « الى أين المصير ، بحق السماء ! الى أين ؟ » .. وفجأة ، وقع نظره على علبة التبغ التى امتلأت بدخل اليوم ، فعاوده فيض من المرارة غمر كيانه ، وتناول العلبة فقذف بها الى أحد أركان مكتبه ، حيث سقطت فسمع لسقوطها دوى مكتوم .. وقفز ناهضا على قدميه ، وقد شعر بأنه يختنق ، ولا يقوى على ابتلاع أنفاسه .. وبرح المكتب ، وجرى الى فناء الدار الخلفى ، حيث لفه الظلام تحت النجوم .. وهناك استند الى الجدار – وقد أخذ منه الاعياء كل مأخذ – وتولته نوبة قىء !

— ١٦ —

• وقضى الليل بطوله يتقلب فى فراشه ، فلم يواته النوم الا فى السادسة صباحا .. وصحا متأخرا ، فلم يهبط الا بعد التاسعة . وكان شاحب الوجه ، مثقل الجفون بالنوم . وتبين أن كريستين كانت قد تناولت افطارها وخرجت . ولم يكن هذا ليزعجه فى شىء ، فى الاحوال العادية . أما فى هذا اليوم فقد احس ، فى الم ، بمدى تباعدهما ! ولم يستطع تناول الفطور الذى أحضرته له مسز بنيت ، اذ استعصى على عضلات حنجرته ان تبتلعه ، فاكتفى بقدح من القهوة . ثم بدا له أن يعد لنفسه قدحا من الويسكى بالصودا ، وشربه على عجل ، ثم تأهب لعمله اليومى .

ومع ان تيار العمل كان لا يزال يجرفه ، الا ان حركاته بدت اقل آلية . **وكان ثمة ضوء غامض مضطرب قد اخذ يبدد ظلمة الشك التى كانت تكتنفه ، فابصر نفسه على حافة الهاوية ، يوشك أن يتردى تماما ، وهو موقن من أنه اذا سقط فيها ، فلن يكون له منها مخرج أبدا !** . وتجلد فى حذر ، وفتح باب حظيرة السيارة ، فأخرج السيارة .. وأتعبه هذا الجهد البسيط !

وكان عليه أن يذهب — قبل كل شىء ، فى ذلك الصباح — الى مستشفى فيكتوريا ، حيث كان على موعد مع الدكتور ثوروجود ، لفحص مارى بولاند .. كان موعدا لم يشأ ان يخلفه ، بحال .. فاتخذ طريقه غير متعجل . والواقع انه كان فى السيارة أحسن حالا منه وهو يسير على قدميه ، فلقد ألف قيادتها حتى لقد أصبحت عنده أشبه بحركة آلية ! .. وبلغ فيكتوريا . وبعد أن ترك سيارته فى الموقف ، صعد الى العنبر ، فحيا الممرضة برأسه ، واتجه نحو سرير مارى .

وتناول بطاقتها ـ وهو فى طريقه اليها ـ ثم جلس على حافة السرير الذى كانت تعلوه بطانية حمراء . ولحظ الابتسامة التى استقبلته بها الفتاة ، وباقة الورد الكبيرة التى كانت بجانبها ، دون أن ينقطع عن النظر الى بطاقة الفحص فى غير ارتياح .

وقالت مارى : « طاب نهارك ، أليست هذه الزهور بديعة ؟ .. ان كريستين هى التى أحضرتها لى أمس ! » . فأجاب : « أجل ، انها رائعة ! .. كيف ترين نفسك يا مارى ؟ » . فتمتمت : « أوه ! على خير مايرام » . وجانبت عيناها عينيه لحظة ، ثم عادتا اليه مليئتين بثقة حارة ، وقالت : « كيفما تكن الحال ، فاني أوقن من انه لن يطول مقامى هنا . انت ستشفينى فى وقت وجيز ! » .. **وكان هذا الايمان ـ الذى تكشف عن كلماتها ـ وهذه النظرة التى راحت الفتاة ترمقه بها ، يزيدان من مرارته وألمه . وقال لنفسه : « اذا تطور الامر هذه المرة أيضا تطورا سيئا ، فسوف يكون ذلك ضربة قاصمة لى ! »**

وجاء الدكتور ثوروجود ـ فى هذه اللحظة ـ يؤدى جولته فى العنبر ، فما ان لمح أندرو ، حتى اتجه مباشرة اليه . وقال فى ود : « طاب نهارك يا مانسون . لكن .. ماذا بك ؟ .. أتشكو شيئا ؟ » . فقال أندرو وهو ينهض : « انني فى خير حال . أشكرك ! » .. ورمقه ثوروجود بنظرة متسائلة ، ثم اقترب من سرير مارى ، وقال : « انى سعيد اذ دعوتنى لرؤية هذه المريضة معك . هاتى صور الاشعة أيتها الممرضة ! » . وقضيا عشر دقائق يفحصان مارى معا ، ثم سار ثوروجود الى النافذة الاخيرة ، حيث لم يكن يتسنى لاحد أن يسمعهما ، وان ظلا ماثلين أمام انظار من فى العنبر . وقال أخيرا : « وبعد ؟ » . فسمع أندرو صوته ، وكأنما كان ينبعث من

عالم آخر : « لست أدرى شعورك يادكتور ثوروجود ، على أنه يبدو لى أن سير المرض لا يدعو الى الاطمئنان » . فقال ثوروجود وهو يداعب لحيته الصغيرة : « هناك ظاهرة ، او اثنتان .. » . فقال اندرو : « يخيل الى ان المرض قد امتد شيئا ما ! » . ولكن ثوروجود قال : « أوه ! .. لا أرى ذلك يا مانسون » . وعاد أندرو يقــول مبررا رأيه : « ان درجة الحرارة أكثر تقلبا » . فقال زميله مفكرا : « اممم ! .. ربما ! »

ـ معذرة اذا أبديت رأيى ، فمع تقديرى التام لمركز كل منا ، الا ان لهــذه الحالة اهمية بالغــة لدى .. الا ترى مع حالتها هذه ، ان هناك انســدادا فى الاوعيــة الرئوية يتطلب جراحة ؟ .. أنت تذكر اننى كنت متلهفا على معالجة مارى ـ اعنى المريضة ـ على هذا الاساس ، حين جاءت !

والقى ثوروجود نظرة جانبية على مانسون ، ثم قطب جبينه ، وقال : « كلا يا مانسون .. آسف ، لست اعتقد أن هنــاك محلا لاجراء عملية من هذا النوع .. لم أر هذا حين جاءت ، ولست أراه اليوم ! »

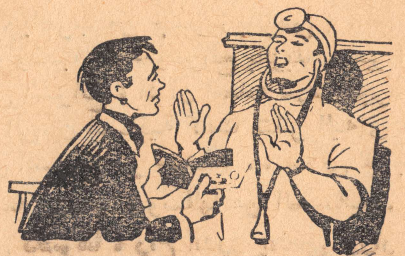
وسادهما صمت لم يجد أندرو كلمة يقولها خلاله ، فقــد كان يعرف ثوروجود ويعرف عناده الشديد .. وكان فى غاية الاعياء ـ جسميا وروحيا ـ فلم يقو على مواصــلة نقــاش لا يؤدى الى نتيجة ، بل اصغى ـ صــارم الوجه ـ الى زميله وهو يبسط رأيه الخاص فى المرض .. وعندما فرغ ثوروجود واســتأنف جولته حول الاسرة الاخــرى ، اقترب اندرو من مارى ، وقال لها أنه عائد لرؤيتها فى الغد ، ثم برحها . وقبل أن يغادر المستشــفى ، طلب الى البواب أن يتصــل بمنزله تليفونيا ، فيذكر انه لن يعود فى موعد الغداء .

وكانت الساعة تقترب من الواحدة ، وهو لا يزال مهموما ، مغرقا فى التفكير فى نفسه ، وقد ســاورته رغبــة طفيفة فى

الاكل . فتوقف بالقرب من جسر (باترسى) ، أمام مشرب صغير للشاى ، وطلب قهوة وشرائح بالزبد . غير أنه احتسى القهوة ولم يمس الشرائح ، اذ أن امعاءه ثارت لمجرد التفكير في الاكل . وفطن الى أن الساقية كانت تنظر اليه فى دهشة ، ثم قالت : « هل الشرائح غير جيدة ؟ .. سآتى لك بغيرها » . ولكنه أومأ برأسه رافضا ، وسألها عن الحساب .. **وبينما كانت تسجله فى دفترها ، راح أندرو يحصى أزرار فستانها السوداء اللامعة .. ما أطول الزمن الذى انقضى منذ تفرس فى ثلاثة أزرار من العقيق، فى احدى حجرات الدراسة بمدرسة فى بلينيللى !**

وكان فى الخارج ضباب خفيف يلف النهر . وتذكر اندرو أن لديه موعدين بعد الظهر ، فى شارع (ويلبيك) ، فاتجه الى هناك فى بطء .. وألفى ممرضته « مس شارب » عكرة المزاج ، كعادتها كلما رجاها أن تحضر يوم السبت .. ومع هذا ، فقد سألته هى الاخرى ، عما اذا كان يعانى ألما ؟ .. ثم اردفت بلهجة اعذب - اذ كانت تكن للدكتور هامبتون احتراما خاصا - أن فريدى طلبه تليفونيا مرتين منذ وقت الغداء .. وما ان برحت الغرفة حتى جلس الى مكتبه ، وأخذ يحملق أمامه شارد البال

ووصل أول مرضاه فى الثانية والنصف . وكان شابا مريض القلب ، من وزارة المناجم ، أرسله اليه « جيل » .. واشتكى الشاب من اضطرابات فى صمامات القلب ، فتوفر أندرو على فحصه بعناية اقتضته وقتا طويلا ، ثم استبقاه فى الحاح ليشرح له العلاج تفصيلا . حتى اذا فرغ ، أخرج الشاب حافظة نقوده الصغيرة ، **فقال أندرو بحرارة : « لاتدفع**



الآن ، أرجوك . انتظر حتى أرسل لك مطالبتى ! » . وما كان يعتزم أن يرسلها ابدا ، اذ لم يعد يتهالك على الكسب ، بل ارتد الى احتقار المال ، فأشاع هذا فى نفسه قوة خارقة !

ثم جاء المـريض الثـانى .. وكانت عانســا فى الخامسة والاربعين ، تدعى مس « باسدين » . وكانت من أكثر المعجبات به وفاء .. فغاص قلبــه لرؤيتها .. كانت ثرية ، محبة لذاتها ، دائمة القلق على صحتها .. كانت نسخة طبق الاصل لمسـز « ريبرن » - التى زارها مـرة مع « هامبتـون » فى مستشفى شيرنجتون الخاص - وان كانت أصغر منها سنا .. واستمع اليها متضايقا ، مسندا رأســه الى يده ، وهى تبسط له فى اسهاب وتفصيل كل الاعراض التى أحست بها منذ آخر زيارة لها قبل بضعة أيام . وما لبث أن رفع بغتة رأسه قائلا: « فيم جئت تريننى يامس باسدين؟ » . فأمسكت ولما تتم جملتها ، وقد ظل وجهها ينم عن الارتياح ، بيــد أن فمهـا تدلى ببطء ، وبقى فاغرا .. **فقــال أندرو : « أوه ! أعرف أن هــذه غلطتى ، فقــد قلت لك أن تعودى . ولـكن الحقيقة انك لا تعـانين شيئا على الاطـلاق ! »** . فهتفت فى دهشة ، وهى لا تكاد تصدق سمعها : « دكتور مانسون ! »

وكان هذا صحيحا تمام الصحة . فلقد تبين - فى بصيرة قاسية - ان كل أمراضها المزعومة مردها الى المال ، فهى لم

تعمل طوال حياتها يوما واحدا ، بل كانت تدلل نفسها ، وتتعالج ، وتسرف فى التغذية . واذا كانت لا تنام ، فانما كان هذا راجعا الى انها لم تكن تقوم بأى جهد .. عقلى أو عضلى. لم يكن لديها ما تعمله غير فصل « الكوبونات » عن سنداتها ، والتفكير فى ثروتها ، وتقريع وصيفتها ، واستعراض ما تأكله هى وكلبها المدلل .. وتمنى أندرو أن تبرح الغرفة وان تسلك مسلك العقلاء ، فتعزف عن تناول كافة الاقراص والمنومات وما اليها ، وتعطى من مالها للفقراء والمساكين ، وتساعد الآخرين ، وتنسى ذاتها تماما ! .. ولكن هيهات ، هيهات أن ترضى بهذا ، ومن العبث طلبه منها .. كانت روحا ميتة ، وكذلك كان هو .. والله فى عونه !

وقال فى رصانة : « آسف يا مس باسدين ، فليس بوسعى أن اقدم لك اية خدمة . اذ اننى قد .. ربما غادرت لندن . على انك بلا شك ستجدين فى هذا الحى أطباء آخرين يسعدهم كثيرا أن يكونوا فى خدمتك ! » .. **وفغرت فاها عدة مرات كالسمكة خارج الماء ، ثم ارتسمت على وجهها علائم وجل حقيقى ، اذ أيقنت تماما أنه قد فقد عقله.** ولم تتمهل لمجادلته، بل نهضت فجمعت على عجل أشياءها ، وبرحت الغرفة مهرولة . وتأهب أندرو للعودة الى داره ، وأغلق أدراج مكتبه على نحو ما يفعل انسان يقوم بعمل حاسم . ولكن ممرضته دخلت مندفعة ــ قبل أن ينهض ــ وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة : « ان الدكتور هامبتون يريد مقابلتك ، وقد جاء بنفسه بدلا من أن يتكلم تليفونيا ! » . وان هى الا دقيقة حتى دخل فريدى . وأشعل سيجارة ، وتهالك فى مقعد .. وكان مظهره يدل على انه جاء لغرض معين . وما لبث أن تكلم بلهجة ودية ملحوظة !

* * *

قال فريدى : « آسف اذ أزعجتك فى يوم السبت أيهـا الصديق ، بيد اننى عرفت انك هنا ، فجئت اراك . اصغ الى يا مانسون !.. لقد علمت بجراحة الامس ، وابادر فأصارحك بأننى جد مسرور . لقد آن لك أن تكون على حذر من ايفورى العزيز هذا ! » . وهنا اخشوشن صوته وهو يمضى قائلا : « أحسب انه يحسن أن تعرف يا عزيزى أن العلاقات بينى وبين ايفورى وفريدمان قد فترت . لقـد تلاعبا بى .. **كان بيننا نحن الثلاثة اتفاق نفيد منه كثيرا . اما الآن ، فاننى شبه واثق من انهما يغتالاننى فى جزء مما يخصنى . فضلا عن أن الكيل قد فاض بى ازاء جهل ايفورى الجزار !** .. انه ليس جراحا وانت محق تماما اذ تقول هـذا ، فهو لا يحـذق الا عمليات الاجهاض .. انك لم تكن تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ .. ولعلك الآن تصدقنى ، فعلى اقل من مائة ميل من هنا ، توجد داران للاستشفاء ، لا تمارس فيهما سوى هذه العمليات فحسب .. ببراعة ، وفى الخفاء طبعا . ويخرج ايفورى من هذا بنصيب الاسد . وفريدمان لايفضله بشىء . انه ليس سوى متجر فى المخدرات ، وان لم يكن فى دهاء ايفورى . وسينتهى به الامر يوما الى المثول أمام مجلس جمعية الاطباء ! .. والآن استمع لى جيدا يا صديقى ، فاننى اكلمك لمصلحتك . أريدك على ان تعرف ما يبطن هذان الرجلان ، لاننى اود ان تبتعد عنهمـا وتقترب منى . لقد كنت سـاذجا جـدا ، فلم تأخذ نصيبك من الكعكة . الا تعرف أن ايفورى حين يتقـاضى مائة جنيه عن جراحة ، يعطى زميله منها خمسين .. وهذا يجلب له عمليات كثيرة ، أتدرك ؟.. فماذا اعطاك انت ؟ شيئا تافها ، خمسة عشر جنيها أو ربما عشرين . هـذا لا يكفى يا مانسون ، لا سيما بعد جريمة الاغتيال التى ارتكبها هذا الجاهل أمس ، ولو كنت مكانك ما احتملت هذا بعد الآن . انى لم اقل بعد لهما شيئا ، لكنى اعرف ما سأفعله ، فاليك خطتى

يا عزيزى : **لندعهما يترديان ، وليقم بيننا - نحن الاثنين - تعاون وثيق قوى . فنحن - قبل كل شىء - صديقان منذ أيام دراستنا فى الجامعة ، أليس كذلك ؟.. انى احبك كثيرا ، وقد اعتدت ان اعجب بك دائما . ويمكننى ان أعلمك اشياء كثيرة ! »**

وتوقف فريدى ليشعل سيجارة اخرى ، ثم بسط - فى أبتسامة ودية لم تفارقه - ما يستطيع أن يفعله كأحد طرفى التعاون الذى كان يقترحه : « قد لا تصدق الالاعيب الباهرة التى لعبتها .. اليك آخر حيلة منها : حقن ، ثمن الواحدة منها ثلاثة جنيهات ، وهى ليست سوى ماء نقى . فلقدجاءتنى مريضة - ذات يوم - تطلب ان احقنها بالدواء الذى اعتادت أن تحقن به . وكنت قد نسيت طلب المحلول اللعين ، فلكى لا اغضبها ، ملأت المحقنة بالماء المقطر !.. وفى اليوم التالى ، جاءت تقول لى ان الحقنة كانت افضل مفعولا من اية حقنة اعطيت لها من قبل . فمضيت اكرر ما فعلت . ولم لا ؟ .. ان العبرة دائما بيقين المريض وبزجاجة الماء الملون . لاحظ جيدا اننى اعرف - عند الحاجة - كيف اجعلهم يبتلعون كل المركبات الصيدلية . فأنا أحذق المهنة ! آه ! **أحذقها تماما ، ولكننى عاقل ، فاذا اتفقنا اتفاقا حقيقيا ، انت بدبلوماتك وانا بخبرتى ، لظفرنا بزبدة الدسم .. وهذا يتطلب تعاونا بين اثنين ، أتدرك ؟** .. ان الحاجة تدعو دائما الى رأى ثان ، وأنا ارمق جراحا شابا مدهشا - يفوق ايفورى كثيرا - ويمكننا بعد قليل ضمه الينا . بل من الممكن - اذا اقتضت الحال - أن يكون لنا مستشفانا الخاص ! »

وظل أندرو رصينا لا تشى ملامحه بشىء .. وما كان ساخطا على هامبتون ، وانما كان مستاء من نفسه . فما كان بوسع شىء ان يريه الى اى مدى تردى ، وماذا فعل ، والى اين

مصيره ، قدر ما أراه اقتراح هامبتون هذا .. وفطن أخيرا الى أن الامر يقتضيه جوابا ، فغمغم : « ليس بوسعى أن أتمشى معك يا فريدى ، لقد .. لقد سئمت فجأة كل هذا ، واعتقد اننى سأبقى حيثما انا لبعض الوقت . ان فى هذه البقعة الصغيرة من لندن ثعالب كثيرة . ان هناك كثيرا من الاطباء يحاولون أداء عملهم باخلاص ، ويمارسون المهنة بشرف وأمانة .. **أما الباقون فانهم ثعالب . هؤلاء هم الذين يعطون حقنا عديمة الفائدة، ويستأصلون اللوز والزائدة الدودية التى لاخطر منها على الاطلاق ، ويتقاذفون مرضاهم كأنهم كرات فى أيديهم، ويقتسمون الاتعاب فيما بينهم ، ويمارسون الاجهاض ، ويروجون الادوية الزائفة .. انهم يجرون بلا انقطاع وراء الجنيه ! »**

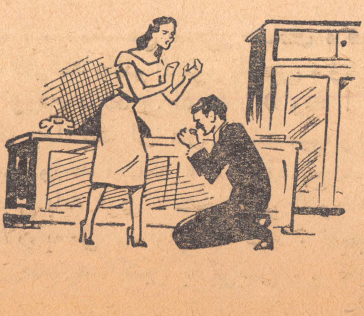
واحتقن وجه هامبتون تدريجا ، ثم انفجر قائلا : « بحق الجحيم ، وما رأيك فى نفسك ؟ » . فأجابه اندرو فى الم : « اعرف يا فريدى اننى لست خيرا منهم . لست اريد ان نختلف معا ، فلقد كنت على الدوام من خيرة أصدقائى ! » . فقفز هامبتون قائلا : « هل فقدت عقلك ... أم ماذا ؟ » فقال أندرو : « ربما .. على اننى سأحاول الا أحصر تفكيرى فى المال والنجاح المادى فحسب ، فليس هذا مما يثبت مقدرة الطبيب. **وعندما يربح الطبيب خمسة آلاف جنيه فى السنة ، فانه لا يمكن أن يكون أمينا . ثم فيم السعى لكسب المال على حساب أولئك الذين يتألمون ؟ »** . فصاح هامبتون ساخطا : « يالك من غبى ابله ! » . ثم استدار وبرح المكان . فعاد أندرو الى مقعده وحيدا مكتئبا ، ثم نهض أخيرا ، فانصرف الى داره .

* * *

واحس وهو يقترب من البيت بضربات قلبه تشتد ، وكان الوقت قد تجاوز السادسة ، وخيل اليه ان اعباء هذا اليوم العصيب قد بلغ ذروته ، اذ أخذت يداه ترتجفان بشدة وهو يدير المفتاح فى القفل .

وكانت كريستين فى الصالون الصغير . فارتجف حين أبصر وجهها الشاحب الهادىء . ولكم ود لو أنها راحت تناقشه الحساب .. لو أنها سألته باهتمام كيف قضى هذه الساعات بعيدا عنها !.. غير أنها اقتصرت على القول فى غير مبالاة : « كان لديك عمل كثير .. أتريد شايا قبل استشاراتك ؟ » . فأجاب : « لن تكون هناك عيادة فى هذا المساء » . فحملقت فيه قائلة : « ولكن اليوم يوم السبت ، وقد اعتاد مرضاك أن يكونوا فى هذا اليوم أكثر منهم فى سواه » . **فلم يجب بأكثر من أن كتب ورقة بأن العيادة مغلقة هذا المساء ، وذهب فعلقها على الباب .. وكأن قلبه يخفق حتى ليكاد ينفطر .. وحينما عاد ألفى كريستين فى مكتب استشاراته ، أشد شحوبا وأكثر شرودا .**

وسألته فى لهجة غريبة : « ماذا فى الامر ؟ » . فأطال النظر اليها ، والالم الذى كان يعصر قلبه يشتد ، ثم هتف فجأة ، فى انفعال طاغ لم يقو على كبحه : « كريستين! » .. وكأن كل



ما فى نفسه قد تمثل فى هذه الكلمة البسيطة .. وخر أمام زوجته جاثيا على ركبتيه ، وانخرط فى البكاء !

— ١٧ —

• **وكان** صلحهما أروع حدث وقع لهما منذ تبادلا الحب . وظل أندرو فى اليوم التالى — وكان يوم أحد — مستلقيا الى جانب كريستين ، كما كان يفعل أيام ابيرالو ، وهو يتكلم ويتكلم وكأنه نسى الاعوام التى مضت ، ففتح لها قلبه . وكان رنين الاجراس يدوى فى جو يوم العطلة — فى الخارج — فيبعث فى النفس سكينة وطمأنينة . ولكن نفس أندرو لم تهدأ ، فلم يكف عن القول ساخطا على نفسه : « كيف بلغت هذا المدى ؟ .. أكنت مجنونا يا كريس ، أم ماذا ؟ .. اننى عندما أعود الى التفكير فى الامر ، لا اكاد اصدقه . أأتردى مع هــذه الزمرة ، بعد أن عرفت دينى وهوب ؟ يا الهى ! اننى جدير بأن أعدم ! » . فقالت كريستين تسرى عنه : « ان هذا كله يحدث بسرعة فائقة يا حبيبى ، وأى انسان معرض لان ينزلق فيه ! »

— كلا يا كريس ، فى الواقع .. اننى كلمــا فكرت فيــه أحسست بأن عقلى يغيب عنى . ولكم كانت هذه الفترة بشعة — ولابد — بالنسبة لك !.. يا الهى ، يجب أن القى أقسى صنوف العذاب !

وابتسمت .. ابتسمت عن شعور صادق ، فهفا بفؤاده أن يرى وجهها وقد فارقته علائم الفتور الثلجى ، وعاد نضرا مرحا طافحا بالود .. وراح يردد فى نفسه : « رباه ! اننا نعود معا الى الحياة !.. » وما لبث أن قال فى تصميم وعزم : « ليس أمامى سوى طريق واحد أسلكه » .. وأصبح — برغم انفعاله وهواجسه — يحس بأنه قوى ، متحرر من الاوهام التى ضللت تفكيره ، متأهب لان يعمل .. واردف قائلا : « يجب أن نرحل من هنا . لقد تورطت هنا كثيرا يا كريس .. كثيرا جدا . ان

كل شيء هنا يذكرني بنزواتي ، ومن يدرى ، ربما جرني مرة أخرى اليها . سنبيع العيادة بسهولة ، ثم .. اوه يا كريس ! عندى فكرة رائعة ! » . فهتفت : « وما هى يا غرامى ؟ »

وانفرجت أسارير وجهه ، وابتسم لها مترددا فى عطف وحنان ، ثم قال : « منذ كم من الوقت لم تناديني بهذا النداء ؟!.. لكم يسعدنى هذا ! أجل ، لقد كنت استحق ما جرى .. أوه ! لا تدعينى يا كريس أفكر فى ذلك الوقت !.. ان هذه الفكرة .. هذا المشروع جال بخاطرى وأنا استيقظ هذا الصباح . كنت قد عدت الى التفكير مشمئزا فى « هامبتون » حين طلب منى الاشتراك معه فى تكوين ذلك التعاون المزرى .. **وفجأة اومضت الفكرة فى رأسى ، فسألت نفسى : « لماذا لا يكون تعاوننا شريفا ؟ » .. انه امر شائع بين الاطباء فى أمريكا ، ولقد ردده ستيلمان على سمعى كثيرا ، مع انه ليس طبيبا .. أما هنا فيبدو لى أن الاطباء ليسوا من أنصار هذا الاسلوب** . أترين يا كريس ؟.. بوسعنا ان نؤسس - ولو فى مدينة صغيرة من مدن الاقاليم - مستوصفا تعمل فيه جماعة صغيرة من الاطباء ، فيمارس كل منهم الناحية التى اختص بها .. والآن اصغى الى يا حبيبتى ، لماذا - بدلا من الاشتراك مع هامبتون وايفورى وفريدمان - لماذا لا آخذ دينى وهوب معى فنؤلف ثالوثا طيبا ؟.. اذ يقوم دينى بكافة العمليات الجراحية - وانت تعرفين كم يجيد الجراحة - وأنهض أنا بكل ما يدخل فى نطاق الطب العام ، ويكون هوب بكتريولوجيا .. أترين الميزة ؟.. ان كلا منا اخصائى فى عمله ، وسنضم معلوماتنا بعضها الى بعض ! .. لعلك لم تنسى مناقشات دينى ومناقشاتى أيضا حول النظام السخيف الذى يسود طبنا العام ، وكيف أن من يمارسه يتعثر ، وهو يحمل على منكبيه عبء كل شيء .. انه امر محال . **ولكن الطب**

الجماعي هو الحل الموفق السعيد لهذه المشكلة .. انه شيء وسط بين الطب الرسـمى والجهـد الفردى .. والسبب الوحيد الذى يمنعنا من تطبيق هذا النظام هنا ، هو أن كبار الاطباء يحبون الاستئثار بكل شيء ! لـكن ، ألا يكون بديعـا يا حبيبتى تكوين جبهة واحدة ، محصنة تماما من الناحيـة العلمية ، ومن الناحية .. أجل اننى لاجرؤ على أن أقولها : من الناحية الاخلاقية .. فرقة من فرق الطليعة تعمل على تبديد الاوهام ، وتحطيم الاصنام القديمة .. وربما أثارتها ثورة عارمة فى هيئتنا الطبية ! »

وكانت تنظر اليه وخدها الى الوسادة ، وعيناها تومضان . ثم هتفت : « اننى اذ اسمعك تتحدث على هذا النحو ، اذكر الايام الخوالى . ليس بوسعى أن أصف لك سرورى بهذا !.. لكأننا نبدأ من جديد حياتنا كلها . . اننى سعيدة يا حبيبى .. سعيدة ! » . فقال بوجوم : « ان على ان أصلح ما أفسدت ، وما اكثره !.. لقد كنت ابله ، وأسوأ من أبله .. لن أستطيع أن أنسى هارى فيدلر المسكين ، ولست أريد ان انساه . لا بد أن أعمل شيئا حقيقيا تعويضا عن هذا الخطب !.. ان وزرى فى هذا الامر يا حبيبتى ، لا يقـل عن وزر ايفورى ، ولست أتمالك نفسى من التفكير فى اننى فرطت فيه بسهولة ، بيـد اننى سأعمل يا كريس كالمحكوم عليه بالاشـغال الشـاقة ، وأحسب أن دينى وهوب سيخفان لمساعدتى .. أنت تعرفين آراءهمـا ، فان دينى يتوق بكل جوارحه الى العودة لحياة الطبيب العامل ، على خشونتها . أما هوب ، فاذا أعددنا له معملا صغيرا ، استطاع أن يقوم فيه ببحوث شخصية الى جانب تحضير أمصالنا ، وبذلك يكون فى ركابنا أينما ذهبنا ! »

وقفز عن السرير ، وأخذ يذرع الحجرة متحمسا كعهده فى الماضي ، يتجاذبه الابتهاج بالتطلع الى مستقبل مشرق ، والحسرة ووخز الضمير كلما تصور الماضى .. وازدحم رأسه

بالافكار يقلبها فى غمرة من الشك والامل ، ثم صاح : « ان لدى أمورا كثيرة ينبغى تسويتها ، ومن بينها أمر يجب أن اعنى به عناية خاصة يا كريس . اصغى الى يا حبيبتى ، ما رأيك لو نخرج بعد الغداء ، وبعد أن أفرغ من بعض الخطابات ، فنقوم بجولة فى الريف ؟ » . فتطلعت اليه فى دهشة ، وسألته : « لكن .. أليس لديك عمل ؟ »

ـ لن يكون هذا حائلا .. الحقيقة يا كريس أن ضميرى مثقل كثيرا من ناحية مارى بولاند ، فهى لا تحرز أى تحسن فى « فيكتوريا » ، وهذا يقلق بالى كثيرا . ان ثوروجود لا يبدى نحوها أى اهتمام حار ، ولا يفهم حالتها جيدا ، أو هكذا أرى ، على الاقل . يا لله ! لسوف افقد عقلى اذا حدث شيء لمارى بعد أن أخذت أمرها على عاتقى أمام بولاند .. **انها ـ رغم بشاعة هذا القول اذ يصدر من الانسان عن مستشفاه ـ لن تشفى بحال فى فيكتوريا !** .. يجب أن تذهب الى الريف ، الى الهواء الطلق فى مصحة جيدة !.. لهذا أريد أن نذهب الى ستلمان . ان (بيلفى) أروع وأجمل مؤسسة صغيرة يمكن أن يحلم الانسان برؤيتها . ولو اننى استطعت اقناعه بقبول مارى .. أوه ! اننى لن اكون مرتاحا فحسب ، بل لسوف اشعر بأننى عملت شيئا يستحق الذكر !

فقالت فى تصميم : « سنذهب فور أن تكون مستعدا » . وسرعان ما ارتدى ملابسه ، وهبط يكتب خطابا مطولا لدينى وآخر لهوب . ولم يكن عليه أن يرى سوى ثلاثة من المرضى المتازين .. وبعد أن تناول مع كريستين غداء خفيفا ، برحا الدار فى طريقهما الى (وايكومب) .. وكانت النزهة ممتعة بالرغم من التوتر والارهاق اللذين ظلا يلحان عليه ، فأيقن كما لم يوقن فى أى وقت ، بأن السعادة حالة نفسية ، معنوية بحت ، مستقلة عن المنافع المادية ، مهما يقل المتشائمون ..

لقد خيل اليه طوال هذه الاشهر التى راح يجرى فيها وراء الثروة والجاه ، والتى وفق خلالها الى أهدافه من كافة الاعتبارات المادية .. خيل اليه خلال تلك الاشهر انه كان سعيدا ، ولكنه لم يكن سعيدا !.. لقد كان يعيش فى ما يشبه الدوامة : كلما أصاب كثيرا طمع فى أكثر ! ..
وقال فى نفسه محسورا : هكذا هو المال .. المال الدنس !.. لقد قال لنفسه فى البداية أنه راغب فى أن يحقق الف جنيه فى العام ، فلما كسبها ، راح يطمع فى ضعفها كحد أقصى . ولكنه لم يقنع حين وفق ، فاستمرت الحال على هذا المنوال . طمع مطرد فى المزيد ، حتى أشرف على الهلاك !

وراح يرمق كريستين بنظرات من طرف عينه .. لكم تألمت من أجله !.. أما الآن ، فان فى اشراق وجهها الدليل الكافى على صواب قراره .. لم يعد وجها جميلا جدا ، اذ أن الزمن والشدائد فعلت فيه فعلها وتركت عليه آثارها ، فاذا العينان تحيط بهما بعض تجعدات قاتمة ، والخدان ذابلان شيئا ما ، بعد نضرة ورواء . بيد أنه ظل على عهده ، يعبر عن الهدوء والصراحة !.. وأثر هذا الاشراق الجديد فى نفس أندرو تأثيرا عميقا ، فأحس بندم بالغ ، وأقسم الا يأتى بعد ذلك ما يحزن زوجه .

* * *

ووصلا الى وايكومب قرب الثالثة ، ثم سلكا طريقا جانبيا صغيرا يؤدى الى أعلى التل ، متجاوزين (لاسى جرين) . وكان مصح (بيلفى) يشغل موقعا خلابا ـ بعد هذه البقعة ـ فوق ربوة صغيرة تشرف على الواديين .. وهناك ، استقبلهما ستلمان فى مودة . وكان رجلا متحفظا ، قليل الكلام بطبعه ، لا يسرف فى عواطفه الا نادرا ، ولكنه ابدى سروره لزيارة أندرو ، بأن راح يطلعه على كل ما فى منشأته من جمال ، وأظهره

على مداها .. وكان المصح صغيرا ، ولكنه كان رائعا بلا مراء ، وبه جناحان اقيما بحيث يواجهان الجنوب الغربى ، ويصل بينهما مبنى رئيسى خصص للادارة . وفوق ردهة الدخول والمكاتب ، كانت ثمة قاعة للعلاج مجهزة ايما تجهيز ، وقد جعل جدارها الجنوبى كله من الزجاج .. وكانت وسائل التدفئة والتهوية فى المصح ، من أحدث طراز .

ولم يتمالك أندرو نفسه — وهو يطوف بأقسام المصح — من أن يقارن بين هذه المؤسسة الحديثة ، وبين الابنية العتيقة التى مضت عليها مئات السنين ، والتى تشغلها مستشفيات لندن ، و.. وتلك الدور القديمة ، التى اسيء تحويرها وتجهيزها ، وزعموا انها مستشفيات خاصة !.. واذ اطلع ستلمان ضيفيه على كل شيء ، قدم لهما الشاى . وعند ذلك تقدم أندرو فجأة بطلبه : « يخجلنى يا مستر ستلمان أن أسألك خدمة .. فهل لك أن تقبل هنا احدى مرضاى ؟... أنها فتاة مصابة بالسل فى مرحلته الاولى ، وقد تتطلب حالتها اجراء عملية جراحية !.. وهى ابنة صديق من أعز أصدقائى ، زميل طبيب أسنان .. انها لا تحرز تقدما حيث هى الآن ! »

وبدا العجب فى عينى ستلمان ، وقال : « ما احسبك تقصد ارسال مريضة لى ؟.. ان أطباء هذه البلاد لا يفعلون هذا ، وان كان الاطباء فى أمريكا يجازفون ويفعلونه . **انك تنسى اننى هنا لست سوى معالج زائف ، يدير مصحا للتهويش ، واننى أحد أولئك المهرجين الذين يجعلون مرضاهم يسيرون حفاة تحت الندى ، قبل أن يفطروا بجزر غير ناضج ! »** فقال اندرو من غير أن يبتسم : « ما سألتك أن تضحك منى يا سيدى العزيز ، بل ان امر هذه الفتاة يهمنى الى أقصى حد .. اننى قلق من ناحيتها ! »

— ولكني أخشي ، وهذا هو الواقع ، الا يكون فى المصح مكان

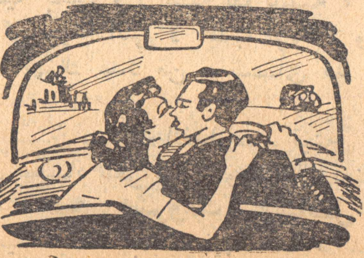
لها يا صديقى العزيز ، فلدى – على الرغم من عداء هيئاتكم الطبية – قائمة طلبات طويلة جدا !.. من الغريب حقا ان يريد الناس منى أن أعالجهم وأنف الاطباء راغم .

وغمغم أندرو ، وقد أحدث رفض ستلمان فى نفسه خيبة أمل مريرة : « كنت اعول كثيرا على هذا .. آه ، لو اننى رفقت الى احضار مارى الى هنا ، لتخففت من عبء ثقيل . ان مؤسستك هى خير مؤسسة فى انجلترا لعلاج المرضى ، وليس فى قولى أى رياء ، فأنا أعرف الامر جيدا . اننى حينما أفكر فى ذلك العنبر القديم الذى تنام فيه مارى فى مستشفى فيكتوريا .. » وانحنى ستلمان يتناول شطيرة بالخيار ، من فوق المنضدة التى كانت امامهم . وكان له اسلوب خاص ، اذ يتناول الاشياء بأطراف أصابعه ، كأنه قد غسل يديه منذ لحظة فهو يخشى أن تتسخ من جديد . ثم قال : « **اذن فهى تمثيلية ساخرة صغيرة تدبرها !.. ولكن ، لا ، لا ، ما ينبغى أن أقول هذا ، فانك بادى القلق حقا ، وسوف اساعدك . سأقبل مريضتك هنا ، بالرغم من أنك طبيب !** » .. ولوى شفتيه حين تبين أن أندرو لم يتهلل ، وقال : « سترى مدى تسامحى ، فلست أرى بأسا فى مزاولة المهنة اذا ما دعت الظروف . لماذا لا تبتسم ؟ الا ترى اننى امزح ؟.. لا بأس ، فانك اكثر استنارة من معظم زملائك الاطباء ، بالرغم من انك لاتسيغ المزاح .. ليست لدى أية غرفة خالية حتى الاسبوع القادم ، يوم الاربعاء فيما اعتقد . احضر لى مريضتك فى الساعة الثامنة من صباح الاربعاء ، وأعدك بأن أعمل كل ما فى وسعى من أجلها ! »

فهتف أندرو متلعثما : « لست ، لست أدرى كيف أشكرك .. انى .. » . واحمر وجهه خجلا وعرفانا بالجميل . فقال ستلمان : « لا تشكرنى ، ولا تسرف فى التأدب الى هذا الحد . اننى أفضل منظرك عندما تبدو كأنك تريد أن تحطم كل شيء .

ألم يقذفك مرة بالاطباق يا مسز مانسون ؟.. ان صديقا من أعز أصدقائى فى أمريكا ـ وهو يمتلك ست عشرة صحيفة ـ يحطم طبقا ثمنه خمسة سنتات ، كلما غضب . وفى ذات يوم .. » . وروى لهما قصة طريلة ، وجدها مانسون غير سائغة ! وفيما كان أندرو عائدا مع كريستين ، وقد رف نسيم المساء ، قال لها : « مهما يكن من أمر ، فهذه مسألة سويت يا كريس ، وقد تخففت من أحد الأعباء التى تثقلنى . اننى على يقين من أن هذا المصح هو خير ما يلزم لمارى ، فان ستلمان رجل عظيم ، وأنا أحبه كثيرا . ان مظهره لا يوحى بشىء ، ولكنه ـ فى الواقع ـ فولاذ مضغوط !.. ترى هل يقدر لنا ـ دينى وهوب وأنا ـ أن يكون لنا مستوصف من هذا النوع ؟.. ستقولين أنه حلم جامح ، ولكن من يدرى ؟.. **اننى لا أفتأ أفكر فى أن بوسعنا ـ لو انضم دينى وهوب الى ـ أن نتخذ لنا مستوصفا فى الريف .. وقد نكون جد قريبين من احدى مناطق التعدين ، مما يتيح لى أن أستأنف ابحاثى عن استنشاق الغبار . فما رأيك يا كريس ؟ »**

وكان جوابها أن مالت بجنبها اليه ، ومنحته قبلة حارة ، غير عابئة بالخطر الذى كانا يتعرضان له ، والسيارة تنطلق بهما فى الطريق الخلوى !



— ١٨ —

• **استيقظ** اندرو فى صباح اليوم التالى مبكرا ، بعد ليلة نعم فيها بنوم هادىء ، فأحس بأنه ممتلىء قوة ، متأهب لعمل أى شىء . وذهب لتوه الى التليفون ، فعهد بالتصرف فى عيادته الى مؤسسة « فولجر وتيرنر » للمبادلات الطبية فى شارع آدم . وكان مستر « جيرالد تيرنر » ، المدير الحالى للمؤسسة العـــريقة ، هو الذى أجابه . ولم يلبث أن خف المـدير الى (تشيسبورو تيراس) كرغبـــة أندرو . حتى اذا فحص الحسابات — فحصا دام ضحى اليوم كله — أخبره بأنه لن يجد أقل صعوبة فى بيع العيادة سريعا .. وأردف مستر تيرنر مداعبا غليـونه : « **لابد لنـا يا دكتور من أن نذكر فى اعلاناتنا سببا للبيع ، فسوف يتساءل أى مشتر بالضرورة : « لماذا يترك طبيب مثل هذا الكنز ؟ » .. انها — فى الواقع يا دكتور — منجم ذهب ، فمنذ زمن طويل لم أر دخلا كهذا لعيادة .. هل نقول : لاسباب صحية ؟** » . فابتدره أندرو : « لا ، بل قولوا الحقيقة ، قولوا .. أوه ! ، قولوا لاسباب شخصية ! »

وكتب مستر تيرنر فى مذكرته مسودة اعلان : « تترك لاسباب شخصية بحت ، لا صلة لها بالمهنة » . فقال أندرو مختتما : « تذكر جيدا اننى لا أطلب ثروة ، وانما أبغى ثمنا مناسبا فقط . فهناك عدد من مرضـاى قد لا يجيئون لمن يخلفنى ! »

واسلمته كريستين — أثناء الغداء — برقيتين . كان قد رجا دينى وهوب أن يجيباه تلغرافيا . وقد قال دينى بايجاز ، فى البرقية الاولى : « **معجب بمشروعك . وسأصل مساء غد** » . أما البرقية الثانية ، فقد جاءت فيها هـذه الدعابة اللاذعة : « **هل كتب على ان اقضى حياتى مع مجانين ؟ .. تمتاز مدن**

الاقاليم الانجليزية بالحانات ، والكاتدرائيات ، واسواق الخنازير .. هل قلت « معمل » ؟ ـ التوقيع : دافع ضرائب محنق »

وذهب اندرو بعد الغداء الى ڤيكتوريا . ولم يكن الوقت وقت الزيارة المخصص لعنبر ثوروجود ، ولكن هذا كان يلائم خطته تماما ، اذ لم يشأ اثارة متاعب أو عقبات ، وكان يشفق ـ بوجه خاص ـ من أن يضايق زميله الذى كان لطيفا معه ، برغم عناده وبالغ اهتمامه بالحلاقين والحجامين فى الزمن الغابر !.. وجلس اندرو على سرير مارى ، وشرح لها خطته ، فقال وهو يداعب يدها مطمئنا اياها : « هذه غلطتى منذ البداية .. كان يجب أن أقدر أن هذا المستشفى ليس بالمكان الذى يلائمك ، وستلمسين الفارق حينما تكونين فى (بيلفى) .. انه فارق كبير يا مارى . على أنك عوملت هنا احسن معاملة ، فلا داعى لايلام احد ، وليس عليك سوى أن تقولى انك تريدين مبارحة هذا المكان فى يوم الاربعاء القادم .. واذا كان يضايقك أن تفعلى هذا بنفسك ، فسأرجو اباك أن يكتب معربا عن رغبته فى أن تكونى بجانبه . وهناك كثير من المرضى ينتظرون خلو أى سرير هنا ، فلن يثير الامر اية صعوبة . واذ ذاك ، سأصحبك بنفسى بالسيارة الى (بيلفى) ، وستكون معى ممرضة ، وكل ما يلزم .. »

وعاد الى داره وهو يشعر بانه قد انجز عملا جديدا ، الى جانب ما انجز من اعمال ، مرتئيا انه قد بدا يخرج من المأزق الذى كان فيه .. واخذ ـ فى ذلك المساء ـ يتخلص من مرضاه المزمنين ، مضحيا دون اشفاق بلطفه وسحره . فقال اثنتى عشرة مرة فى ساعة واحدة : « يجب أن تكون هذه الزيارة آخر زيارة لك . فانت الآن أحسن حالا ، وليس من الخير تعاطى الادوية باستمرار ! . »

واذ فعل هذا ، احس بانه اكثر ارتياحا ، اذ بات بوسعه

أن يقول ـ بنزاهة وصراحة واصرار ـ كل ما يعتقد ، وهذا ترف أباه على نفسه منذ زمن بعيد . وعاد الى كريستين وكأنه حدث غرير . فغمغم : « لكم أحس الآن بأننى خير من ذى قبل ! .. يا الهى ، كيف أقول هذا ؟ .. أفنسيت ما حدث : فيدلر ، و .. وكل ما عملت ؟ » . ودوى جرس التليفون فى تلك اللحظة ، فذهبت كريستين تلبى النداء . وبدا لاندرو أنها مكثت طويلا ، حتى اذا عادت ، كانت بادية الانقباض من جـديد . وقالت : « يطلبـونك فى التليفون ! » . فهتف : « من .. ؟ »

وأدرك على الفور انها فرانسيس لورنس ، فساد الغرفة صمت ثقيل ، ثم قال أندرو والكلمات تتواثب من فمه : « قولى اننى لست هنا . اننى سافرت . كلا ، انتظرى ! » .. وكانت سحنته تعبر عن عزم وتصميم ، واندفع فجأة وهو يقول : « سأكلمها بنفسى ! » .. وعندما عاد بعـد خمس دقائق ، ألفاها جالسة فى ركنها المعتاد ـ حيث الاضاءة جيدة ـ وقد انهمكت فى التطريز . واختلس النظر اليها ، ثم حول عينيه عنها ، وذهب الى النافذة فمكث عنـدها بادى الضيق ، ويداه فى جيبيه . وكانت طقطقة ابر « التريكو » تمضه ، وتبعث فى كيانه خورا ، وتجعله أشبه بكلب مكتئب منهار ، يعود الى بيته خفيض الذيل مشمئزا ، أثر بضع مغامرات محـرمة !

وأخيرا ، قال لكريستين وهو يوليها ظهره : **« وهذا أيضا قد انتهى . ربما سرك أن تعرفى ان غرورى الباطل كان مبعث هذا الامر .. غرورى ومصلحتى . فأنا لم أحب فى أى وقت سواك . ياللشـقاء يا كريس ! لقـد كان ذنبى وحـدى !** .. ان هؤلاء القوم يعتقدون أن كل الناس على شاكلتهم ، ولكننى لست كذلك ، ولهذا فاننى انفض عنهم بسهولة .. بسهولة بالغة . ودعينى انبئك بأننى طلبت « لى روى » ، حينما كنت بجانب التليفون . ومع أنه كان بوسعى أن أعقد صفقة طيبـة

معه ، فقد قلت له أن ليس لمنتجات « كريمو » أن تعول على خدماتى ، اذ زهدت فى هذا أيضا يا كريس ، وأقسم بالله ان أظل زاهدا ! »

ولم تجب كريستين ، بيد أن ابرها أحدثت فى الغرفة الساكنة صوتا قويا طروبا .. واضطر أندرو الى أن يبقى الى جانب النافذة طويلا ، ينظر فى خجل الى صخب الشارع ، والى الاضواء وقد بدأت تتألق ، فى تلك الامسية من أمسيات الصيف . وحينما استدار أخيرا ، كان الظلام قد لف الغرفة ، بيد أن كريستين ظلت جالسة هناك ، تكاد بجسمها الصغير النحيل الا تبدو فى مقعدها .

* * *

وفى أثناء الليل ، استيقظ مهموما ، وهو يتصبب عرقا ، واستدار نحوها ، وهو لا يبصرها ، وقد رزح تحت أهوال حلم تراءى له ، فهتف : « أين أنت يا كريس ؟.. لشد ما أنا آسف .. آسف حقا !.. سأعمل جاهدا على أن أكون حفيا بك فى المستقبل . سنرحل فى أجازة فور فراغنا من هنا . يا الهى ، لكم أنا منهار الاعصاب .. أنا الذى رميتك بأنك معلولة الاعصاب !.. لسوف احرص على ان تكون لك حديقة يا كريس ، عندما نستقر فى مكان ما ، فانى أعرف أنك تعبدين الحدائق . أتذكرين يا كريس .. اتذكرين أيام كنا فى (فيل فيو) ؟ »

وفى صباح اليوم التالى ، أحضر لها باقة كبيرة من الاقحوان .. وراح يحاول جاهدا ان يطلعها على مدى حبه لها ، لا بالبذخ الذى كانت تكرهه — فقد كان اندرو لا يزال يرتجف كلما ذكر يوم دعاه للغداء فى بلازا — وانما بلفتات صغيرة ، وبصنوف الرعاية التى كاد ينساها ! .. ثم أحضر معه — ف

موعد تناول الشاى ـ كعكة من النوع الذى كانت تحبه ؛ وذهب ـ دون ما كلمة ـ فبحث عن نعليها فى خزانة الملابس ـ فى أقصى الردهة ـ فأحضرهما لها . واعتدلت كريستين فى مقعدها مرتبكة ، محتجة فى رفق : « لا ، ياحبيبى .. لا تفعل هذا ، والا تسببت فى ايلامى .. انك لن تلبث ـ بعد ثمانية أيام ـ ان تشد شعرك ، وان تلاحقنى فى كل ارجاء البيت .. كما كنت تفعل قبلا ! » . فصاح بادى الالم والدهشة : « الا ترين أن كل شىء قد تبدل يا كريس ؟ .. سأصلح ـ منذ اليوم ـ ما أفسدت ! » . فابتسمت وهى تجفف دمعها ، وقالت : « حسنا ، حسنا يا عزيزى » . ثم اردفت فى حمية مباغتة لم يعهدها فيها : **« قلما يهمنى هذا ، ما دمنا معا .. لست أنشد أن تجرى ورائى ، بل كل ما أرغب فيه هو الا تجرى وراء الاخريات ! »**

وفى ذلك المساء ، وصل دينى فى موعد العشاء ، كما وعد . وكان هوب قد اتصل به تليفونيا من (كمبريدج) ، وسأله أن يخبر الزوجين بعدم استطاعته الحضور الى لندن هذا المساء .. ومضى دينى يقول ، وهو يحرك رماد غليونه : « لقد قال لى أن أعماله تمنعه من الحضور ، ولكنى أعتقد أن صديقنا هوب يوشك أن يتخذ لنفسه زوجة !.. مسألة غرامية !.. محاولة لترويض البكتريولوجى ! » . فسأله أندرو متعجلا : « وهل تكلم عن مشروعى ؟ »

ـ أجل وأعجب به . ولكن هذا ليس بذى بال ، ففى وسعنا الاستيلاء عليه ، وحمله معنا .. وانا الآخر معجب بالمشروع ، وان كنت لا أتصور كيف نبت مشروع رائع كهذا فى رأسك المخبول ، سيما فى الوقت الذى حسبت فيه أنك قنعت بأن تكون بائع أدوية فى الويست اند !.. قص على كل شىء !

فشرح له أندرو الامر فى حماس متزايد ، ثم أخذا يتدارسان الخطة فى أدق تفاصيلها ، وفطنا فجأة الى مدى

تقدمهما فى المشروع ، حينما قال دينى : « **فى رأيى أن لا نختار مدينة كبيرة جدا .. بل ان المدينة المثالية – فى رأيى – هى التى لا يبلغ عدد سكانها عشرين الفا .. ففى مدينة كهذه ، يمكننا أن نسير قدما بالمشروع** . انظر الى خريطة (ويست ميدلاند) ، تجد فيها عددا كبيرا من المدن الصناعية ، التى تضم كل منها اربعة أو خمسة أطباء يود كل منهم ان يقطع رقاب الآخرين ، وان ابدى لهم الود .. فى تلك المدن يمكننا اعلاء فكرة التعاون بين الاخصائيين . ولن نسعى الى أن نكسب لانفسنا مكانة بالدعاية ، كل ما هنالك اننا سنصل الى هناك .. يا لله ، لكم أتوق الى رؤية رؤوسهم : أعنى الدكتور « براون » والدكتور جونز والدكتور روبنسون . سنضطر الى ان نتحمل لعنات كثيرة ، وربما تآمروا علينا وذبحونا . على أنه لابد لنا بالتأكيد من عيادة مركزية – كما تقول – يكون معمل هوب من ملحقاتها .. وقد يجوز ان نقيم عددا من الاسرة فى الطابق الاعلى .. ولن تكون مؤسستنا فخمة فى البداية ، بل لنكتف بأن نحول أحد المبانى القائمة الى مستوصف ، بدلا من أن نقيم مبنى خاصا .. ولكنى أرى اننا لن نلبث ان نوطد اقدامنا ! » .

وابتسم اذ رأى كريستين تتابع حديثهما لامعة العينين : « ما رأيك يا سيدتى ؟ .. هذا جنون ، أليس كذلك ؟ » . فأجابته مبهورة : « بلى ، بيد أن الاشياء الجنونية هى التى يكون لها وزن عادة ! » . فدق أندرو المائدة بعنف رج كل ما كان فوقها من أدوات ، وقال : « **لقد أصبت والله يا كريس .. أجل ، هذا هو الشىء الذى له وزن .. أن الخطة جميلة ، ولكن المثل الاعلى الذى خلفها أجمل منها !.. أنه تفسير جديد ليمين أبقراط التى يقسمها كل طبيب** .. تحقيق صادق للمثل الاعلى العلمى ، دون جشع ، ولا أساليب رخيصة ، ولا تذاكر طبية حاشدة بأسماء الادوية ، ولا ابتزاز



للاتعاب ، ولا احتكار للمرضى ، ولا .. آه ، اعطيانى - بحق السماء - شيئا أشربه ، فان حبالى الصوتية لا تقوى على المضى ! »

وظلوا يتحادثون حتى الواحدة صباحا . وكان انفعال أندرو دافقا ، جرف دينى برغم قوة شكيمته وجلده . وكان آخر قطار يقله قد برح منذ وقت طويل ، فنام فى غرفة الضيوف . ووعد - وهو يخرج مهرولا فى اليوم التالى ، بعد الافطار - بأن يعود فى يوم الجمعة التالى ، وبأن يقابل هوب - فى هذه الاثناء - وبأن يبتاع خريطة كبيرة لويست ميدلند ، كدليل أخير على ابتهاجه . وصاح أندرو بادى الظفر وهو يعود من الباب ، بعد أن ودع دينى : « ان المشروع يسير سيرا حسنا يا كريس .. ما أشد اغتباط فيليب . انه لم يقل شيئا كثيرا ، ولكنى أكاد ألمس شعوره ! »

* * *

وفى هذا اليوم عينه ، تلقيا أول عرض لشراء العيادة . اذ تقدم راغب فى الشراء ، فلم يلبث أن تبعه آخرون . وصحب « جيرالد تيرنر » بنفسه أهم المشترين ، فراح يطرى الصفقة بكلمات أنيقة ، حتى لقد نوه بهندسة بناء حظيرة السيارات .. وفى يوم الاثنين ، جاء الدكتور « نويل لورى » - وهو الذى

كان تيرنر قد صحبه ـ مرتين : جاء صباحا وحده ، وعاد مساء وبصحبته « تيرنر » .. وبعد انصرافهما ، اتصل تيرنر بأندرو تليفونيا ، وأسر اليه مبشرا : « ان الدكتور لورى معجب كل الاعجاب يا دكتور ، ويمكننى القول بأنه يميل كل الميل الى اتمام الصفقة ، ويخشى ان نبيع العيادة قبل أن تتمكن زوجته من الحضور لمشاهدتها ، فهى على شاطىء البحر مع ابنائهما . وستعود يوم الاربعاء » .

وكان هذا هو اليوم المحدد لانتقال « مارى » الى (بيلفى) ، فرأى اندرو ان يكل امر العيادة لتيرنر .. وتم تدبير امر مارى ، فتقرر أن تبرح المستشفى فى الساعة الثانية . وقد اتفق أندرو مع « مس شارب » على أن تصحبهما فى السيارة . وكان المطر ينهمر حينما يمم ـ فى الساعة الواحدة والنصف ـ شطر شارع (ويلبيك) ، ليصطحب المرضة . ووجدها مكفهرة المحيا ، اذ كان قد أخبرها أنه سيستغنى آخر الشهر عن خدماتها .

ولم يجد عناء ـ لحسن الحظ ـ فى المستشفى . فما ان وقفت السيارة أمام مقصورة البواب ، حتى خرجت منها مارى . وسرعان ما كانت داخل السيارة مع « مس شارب » وقد التفت ببطانية دافئة ، وتحت قدميها زجاجة ماء ساخن .. وبعد أن قطعوا بعض الطريق ، أسف أندرو اذ اصطحب ممرضته المكتئبة الموسوسة ، وراح يعجب من انه استطاع احتمال رؤيتها كل هذه المدة ! .. ووصلوا الى (بيلفى) فى الساعة الثالثة والنصف ، وقد انقطع المطر ، وتبددت الغيوم ، وتسللت حزم من أشعة الشمس الى الارض .. **ومالت مارى الى الامام تجيل البصر ـ فى انفعال وتوجس ـ فى هذا المكان الذى جعلوها تعقد عليه أعذب الآمال !**

وكان ستلمان فى مكتبه ، فما ان اقتيدت مارى الى سريرها ،

حتى أسرع اليه أندرو ليسـأله أن يفحصها معـه ، اذ كانت فكرة الجراحة تشغل باله . ودرسا الامر معا ـ وهما يتناولان الشاى ـ ثم خفا الى غرفة مارى ، فاذا بها على سريرها ، شاحبة ـ من اثر الرحلة بالسيارة ـ وقلقة شيئا ما ، تنظر واجفة الى « مس شارب » التى كانت تقف فى الطرف الآخر من الغرفة . وعرتها رعشة خفيفة حينما دخل ستلمان الذى فحصها بعناية فائقة ، وكانت طريقته اللطيفة ، السـاكنة ، الدقيقة ، الهاما بالنسبة لاندرو .. لم يـكن فيـه شىء من الطبيب الدعى ، الذى يحاول أن يظهر مدى براعته .. والحق أنه لم يكن يشبه الطبيب فى عمله ، وانما بدا كرجل أعمـال يعالج آلة حسابية اختلت .. **كان يستعمل السماع ، بيد أنه كان يعتمد على يديه ـ بوجه خاص ـ فيتحسس الفجوات التى بين الاضلع ، وما فوق الترقوة ، وكأنه كان يستطيع ـ عن طريق لمسه الدقيق ـ أن يعرف حالة الخلايا الرئوية التى تعيش وتتنفس تحت يديه !**

وعندما فرغ ، لم يقل شيئا لمارى ، ولكنه خلا بأندروخلف الباب وقال له : « جراحة ، ما فى هذا شك ! .. كانت هـذه الرئة خليقة بأن تتداعى من أسابيع . سأجرى العملية على الفور ، فاذهب وقل لها هذا ! » .. وبينما ذهب ستلمـان يعد العدة لذلك ، عاد أندرو الى الغرفة ليخبر مارى بقرارهما .. وأنهى اليها النبأ بكل لباقة ، غير أن ضرورة اجراء الجراحة على الفور أزعجتها . فسألته فى ألم : « أأنت الذى ستجريها ؟ .. اننى أوثر أن تجريها انت ! »

ـ لا عليك يا مارى .. انك لن تحسى بشىء ، وسـأكون حاضرا أساعده وأعمل على أن يسير كل شىء على مايرام !

والواقع انه كان يرجو أن يدع ستلمان يعمل وحده ، ولكنه اذ وجدها على هذه الحال من الانفعال ، وتبين أنها تعول عليه الى حد بعيد ، ذهب الى قاعة الجراحة يعرض على ستلمان

مساعدته ، لاسيما وانه كان — فوق كل شيء — يحس بأنه مسئول عن وجود ماري في (بيلفي) .

وبعد عشر دقائق ، كانا على أهبة الاستعداد ، حتى اذا نقلت ماري الى القاعة ، خدرها أندرو تخديرا موضعيا ، ثم وقف بجانب المانومتر ، بينما أخذ ستلمان ينفذ الابرة ، مراقبا نفاذ الازوت المعقم الى غشاء الصدر الباطني .. **وكان الجهاز دقيقا كل الدقة ، وستلمان من أساتذة هذا الفن بلا مراء ، وآية ذلك ما أبداه من مهارة في تشغيل الجهاز واجراء العملية بدقة متناهية !**

وبعد نوبة عصبية شديدة ، سرى القلق عن ماري ، فهدأت شيئا فشيئا ، واستسلمت للجراحة في ثقة متزايدة . وفي النهاية ، ابتسمت لاندرو وقد استعادت سكينتها تماما، حتى اذا أعيدت الى غرفتها ، قالت : « لقد صدقتني القول ، فانني لم أحس بشيء ، وكأن أحدا لم يفعل بي شيئا ! » . فهز كتفه ، وقال ضاحكا : « حقا ؟ .. على هذا النحو يجب أن تجري الامور دائما : لا انزعاج ، ولا خوف من أن يقع أي أمر رهيب .. ليت جميع العمليات تجري على هذا النحو ! .. **على اننا مع هذا قد أوقفنا حركة رئتك ، وهي الآن تستريح .. وثقي من انها عندما تعود الى التنفس ، ستكون قد شفيت ! »**

وصوبت اليه نظرها ، ثم أجالته في كل ارجاء الغرفة البديعة ، ثم أرسلته خلال النافذة الى الوادي الذي كان يبدو بعيدا .. وما لبثت ان قالت : « أعتقد انه سيطيب لي المقام هنا كثيرا .. انه لا يبذل جهدا ليكون رقيق الجانب — أقصد مستر ستلمان — بيد ان الانسان يلمس رقته بشعور خفي في النفس .. ترى هل من الممكن ان أتناول الشاي ؟ »

— ١٩ —

• كانت الساعة تقترب من السـابعة حينمـا غادر أندرو مصح (بيلفى) . وكان قد مكث هناك اكثر مما قدر ، فقد جلس مـع ستلمان — فى شرفة الدور الاول — مسـتمتعا بالهواء المنعش ، وباللهجة الهادئة التى كان زميله يتكلم بهـا .. حتى اذا استقر فى سـيارته عائدا الى داره كان سـاكن النفس ، مطمئن البال بنحو خارق .. **فقد قبس الصفاء عن ستلمان الذى كان لشخصيته ورصانته وعدم اكتراثه بتفاهة الحياة اثر ملطف خفف من توتر اندرو وقلقه .. فضـلا عن انه بات مرتاح الخاطر نحو مارى ..** وراح يقارن بين القرار الاول — الذى اتخذه متسرعا — بالحاقها بمستشفى متأخر ، وبين كل ما عمله من اجلها فى ذلك المساء . لقد جشمه ذلك عناء ، واقتضاه تدبيرات ممضة ، مخالفة للاوضـاع السائدة .. ثم انه لم يفاتح ستلمان فى أمر النفقات ، وكان موقنا من أن « كرن » لم يكن فى مركز يمكنه من سداد نفقات العـلاج فى مؤسسة باهظة التكاليف مثل « بيلفى » ، ومن ثم فقد كان عليه هو ان يدفع قيمة المطالبة . على ان كل هذا تلاشى بجانب الارتياح والابتهاج اللذين أحسهما لبلوغه غايته ، **فقد شـعر أندرو — لاول مرة منذ شهور — بأنه وصل الى شىء يستحق فى رايه العنـاء الذى بذل فى سبيـله . وانعش هـذا روحه المعنوية ، ورأى فيه بداية التكفير عما ارتكب !**

وراح يقود سيارته وئيدا ، مستمتعا بتلك الامسية المبهجة .. وكانت الممرضة « شارب » فى المقعـد الخلفى ، واجمـة لا تنبس ببنت شفة ، فلم يشعر بوجودها وهو مستغرق فى أفكاره . بيد أنه لم يلبث ان سألها — اذ بلغا لنـدن — عن وجهتها ، وتوقف كطلبها عنـد محطة « المترو » فى (نوتنج هيل) .. وسره أن تخلص منها ، فمع انها كانت ممرضـة

ماهرة ، الا أنها كانت متحفظة ، عبوسا ، لم يقدر لها أن تنسجم معه يوما . ومن ثم فقد قرر ان يرسل اليها مرتبها بالبريد فى اليوم التالى ، تجنبا لرؤيتها ثانية !

ومن عجب ان مزاجه انقلب ــ حينما وصل الى شارع بادنجتون ــ اذ غشيه الحزن والاسى وهو يمر بحانوت أسرة فيدلر . والقى نظرة من طرف عينه على « شركة التجديد ليمتد » ، فاذا أحد العمال يغلق الابواب والنوافذ ، فسرت فى جسده قشعريرة وهو يتمثل هذا العمل رمزا لما حدث !..

وبلغ (تشيسبورو تيراس) منقبضا، فأودع السيارة حظيرتها، ثم دخل الدار مثقلا بحزن غريب .

وتلقته كريستين فى البهو مبتهجة غاية الابتهاج .. كانت على العكس منه ، مغتبطة بالنبأ الذى كانت تحمله اليه ، وقد لمعت عيناها . قالت فى مرح : « لقد بيعت العيادة بكل مافيها وبالمبنى .. ولقد انتظراك طويلا يا حبيبى ، وانصرفا منذ لحظة .. أعنى الدكتور ومسز لورى . ولقد اضطرب لعدم وجودك كى تحدث زوجته عن العمل ، واضطر الى أن يتولى الحديث بنفسه . ثم قدمت لهما العشاء ، وواصلنا الحديث . وخيل الى أن مسز لورى قد ايقنت انك ولابد قد تعرضت بسيارتك لحادث ما ، فساورنى القلق أنا الاخرى .. ولكن ، ها أنتذا يا حبيبى بخير . وعليك أن تقابلهما غدا عند مستر تيرنر ، لتوقيع العقد . ثم .. آه ، لقد دفعا عربونا للوكيل ! »

وتبعها الى غرفة الطعام ، وكان العشاء قد رفع عن المائدة .. ولا مراء فى أنه اغتبط لبيع العيادة ، غير أنه لم يقو فى تلك اللحظة على اظهار كثير من الابتهاج . بينما مضت كريستين تقول : « لقد تم كل شىء بسرعة ، لحسن الحظ .. أليس كذلك ؟ .. انهما يريدان استلام العيادة فى وقت قريب . آه ! لقد فكرت فى هذا كثيرا قبل مجيئك . **هلا قمنا برحلة ،**

فقضينا بضعة أيام فى (فال اندريه) ، قبل أن نستأنف العمل ؟ .. أتذكر رحلتنا الاولى الى هناك ؟ .. ماكان أحلاها يا عزيزى ، وكم كنا سعيدين يومئذ ! » .. وتوقفت عن الكلام ، وتأملته متسائلة : « لكن ، ماذا بك يا عزيزى ؟ » . فقال مبتسما ، وهو يجلس : « أوه ! لا شىء ! اننى متعب قليلا دون ريب .. ربما كن ذلك لاننى لم أتناول غداء ما ! » . فهتفت مشدوهة : « كيف ؟ .. لقد كنت أعتقد انك تغديت فى بيلفى قبل أن تبرحها ! » .. وألقت نظرة على المائدة ، ثم اردفت : « لقد أمرت برفع الطعام ، وأذنت لمسز بنيت بالذهاب الى السينما » .. فقال مهونا : « لا عليك ! »

— بل على . الآن أدرك لماذا لم تقفز فرحا عندما أبلغتك نبأ بيع العيادة . انتظر دقيقة ، وسأحضر لك شيئا تأكله . أترغب فى شىء معين ؟ .. يمكننى تسخين شىء من الخضر ، او قلى بعض البيض ، ام ماذا ؟

— بيض فيما أحسب يا كريس . أوه ! لكن لا تزعجى نفسك ! .. ثم ، لا بأس بقليل من الجبن ، اذا تيسر !

وعادت بعد بضع دقائق ومعها صحفة عليها طبق به بيض مقلى ، وبعض الكرفس فى قدح ، وخبز وزبد وبسكويت جاف ، وطبق من الجبن .. ووضعت كل شىء على المائدة . وفيما كان يدنى مقعده ، جاءت بزجاجة شراب من « البوفيه » . ثم نظرت اليه بكل حنان ، وهو يتناول طعامه ، وقالت مبتسمة : « **اتعرف ياحبيبى ، اننى كثيرا مافكرت فى .. اننا لو كنا قد أقمنا بشارع (سيفن) فى (ايرالو) ، لاكتفينا بمسكن يتألف من حجرة ومطبخ ! .. ان الحياة المترفة ليست لنا . وما أسعدنى الآن اذ أعود زوجة رجل كادح !** » .. ومضى يأكل البيض ، فأحس بأنه بدأ ينتعش . بينما استطردت كريستين مسندة رأسها الى يديها كمألوف عادتها :

— أتعرف يا حبيبى اننى فكرت طويلا منذ بضعة أيام ..

لقد كنت حتى الآن متبلدة العقل ، منطوية على نفسى تماما . ولكن كل شىء أصبح يبدو سهلا ، منذ أن اتحدنا من جديد .. منذ أن عدنا سيرتنا الاولى . ان الشىء الذى يحصل عليه الانسان بالكفاح هو الشىء الوحيد الذى له قيمة ، أما الشىء الذى يهبط عليك من السماء ، فلا يجلب لك أى سرور او ارتياح . هل تذكر ايام (ابيرالو) ؟ .. لقد عشتها من جديد ، عشتها حقيقة بالفكر طيلة هذا النهار .. تلك الايام التى كان علينا فيها أن نذلل معا صعابا كثيرة ؟ .. سنعيش مرة أخرى تلك الحياة عينها ، فهى الحياة التى تلائمنا يا حبيبى ! .. هكذا نحن ، وانى لجد سعيدة بذلك !

ورمقها متسائلا : « أأنت حقا سعيدة يا كريس ؟ » . فطبعت على خده قبلة خاطفة ، وقالت : « لم أسعد فى أى وقت سعادتى هذه اللحظة ! »

وسادهما صمت ، شغل خلاله بوضع الزبد على قطعة من البسكويت . ثم رفع غطاء وعاء الجبن ليتناول شيئا منه ، ولكن رجاءه خاب ، اذ وجد فى الوعاء جبنا جافا مما تستعمله مسز بنيت فى الطهو . وما ان لمحته كريستين حتى عجبت ، ثم راحت تؤنب نفسها : « أوه ، ويحى ! .. لقد سهوت عن الذهاب الى مسز سميث اليوم ! » . فقال أندرو : « لا بأس يا كريس ! » . ولكنها هتفت وهى ترفع الوعاء : « أبدا ! .. اننى أسبح هنا فى الاحلام ، كنزيلة « بنسيون » لا تشغل بغير عواطفها ، وليس عندى ما تتعشى به عندما تعود متعبا ! .. اننى أدعك تموت جوعا . **سأكون نعم الزوجة لرجل كادح ! .. لا يزال فى الوقت متسع لاحضر لك بعض الجبن على عجل ، قبل أن تغلق مسز سميث حانوتها ! »**

ـ لا تكلفى نفسك هذا العناء يا كريس !

ـ أرجوك يا حبيبى .. اننى أصر على هذا ، فأنت تعبد جبن سميث ، وأنا .. أنا أعبدك !

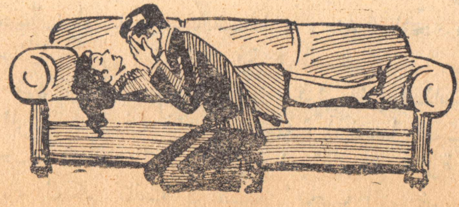
وقبل أن يعود الى المعارضة ، كانت قد خرجت . وسمع وقع قدميها وهى تعدو فى الردهة ، ثم صوت باب الشارع يغلق فى رفق . وأومضت عيناه بابتسامة خفيفة ، فقد كان ما فعلته كريستين من أصيل خصالها حقا ! .. ووضع قدرا من الزبد على قطعة أخرى من البسكويت ، فى انتظار الجبن المرموق ، وفى انتظار عودة زوجته .. وكانت الدار ساكنة تماما ، اذ أن فلورين كانت نائمة فى القبو ، ومسز بنيت فى السينما . وشعر أندرو بأنه مسرور لبقاء مسز بنيت معهما فى حياتهما الجديدة .. وسرحت به الافكار : لقد كان ستلمان رائعا فى هذا المساء ، ولن تلبث مارى ان تبرأ تماما .. والجو بديع ، اذ أن المطر قد انقطع قرب آخر النهار .. ولقد كانت عودته عبر الريف المنعش متعة حقيقية .. ثم ، شكرا لله ، فسوف تحظى كريستين بحديقة خاصة مرة أخرى .. ولسوف يصادف هو ودينى وهوب نجاحا فى (مدلناون) قد يثير عليهم ثائرة الاطباء الخمسة الآخرين ، الذين يعملون بها ، فيقتلونهم .. ولكن كريستين ستحظى - برغم هذا - بحديقتها المنشودة !

وأخذ يأكل - وهو شارد الذهن - بسكويتا بالزبد .. لتبطىء كريستين ماشاءت ، فقد سد رمقه . لابد أنها تثرثر مع مسز سميث .. ان هذه العجوز الطيبة هى التى أرسلت اليه أول مريض . لو أنه فقط مضى فى الطريق السوى ، بدلا من ... على أنه قد أصلح من أمره أخيرا ، والحمد لله ! .. **لقد عادا - هو وكريستين - فتقاربا ، وحظيا بالسعادة كما لم يحظيا بها فى أى وقت .. ما كان اعذب ان سمعها تقول هذا منذ لحظة !**

وأشعل سيجارة .. وفجأة ، دوى جرس الباب الخارجى برنين شديد ، فرفع عينيه ، ووضع سيجارته جانبا ، وذهب

الى الردهة .. وقبل أن يبلغها ، دق الجرس مرة أخرى . وفتح البـاب ، فألفى هرجا ومرجا شـديدين .. كان على الافريز حشـد من النـاس .. وجـوه ورءوس اختلطت فى الظلام ، على نحو مبهم .. وقبل أن يستبين جلية الامر ، ظهر امامه الشرطى الذى دق الجـرس . انه « ستروتزرز » ، مواطنه وصديقه القديم ، الذى ينظم حركة المـرور . وبهت اندرو لمنظره ، فقد بدت عيناه جاحظتين ، وهو يقول ، وقد تهدجت أنفاسه ، كأنه عدا طويلا : **« لقد وقع لمسز مانسـون حادث يا دكتور .. كانت تندفع .. آه ، يا الهى ! .. وهى تبرح الحانوت .. فسقطت امام اتوبيس مباشرة ! »**

وانقبض قلب اندرو انقباضا شديدا .. وقبل أن يتمكن من ان يفوه بكلمة ، باغته الجميع وامتلأ بهم بهو الدار .. وكانت مسز سميث تنتحب .. وكان هناك سائق الحافلة ، وشرطى آخر ، واناس غرباء ، يتناكبون جميعا ويدفعونه أمامهم حتى مكتبه . وفى وسط الجمع ، كان جسم كريستين الحبيبة ، يحمله رجلان ، وقد مال رأسها الى خلف ، وبدت الرقبة الرقيقة بيضاء كل البياض .. ومن اصابع يدها اليسرى ، كانت اللفافة التى ابتاعتها من حانوت مســز سميث لا تزال تتـدلى .. وارقدوها فوق أريكة مكتب الاستشارات .. كانت جثة هامدة !



— ٢٠ —

• **انهار** أندرو تماما ، وظل أياما كثيرة فاقد الوعى ، الا فى فترات صحو كان يفطن فيها الى وجود مسز بنيت ودينى .. وتعرف على هامبتون مرة أو مرتين .. بيد أنه كان — فى أغلب الوقت — يؤدى مطالب الحياة التى لا غنى عنها ، بصورة آلية ، مستغرقا بكل كيانه فى كابوس طويل من اليأس . وكان جهازه العصبى المنهار يجدد آلام هذا الخطب بأن راح يبعث امامه برؤى الموت ، ويثير ضميره ليخزه وخزا كان يقض عليه نومه ، فيستيقظ متصببا عرقا ، مرسلا صيحات مريرة .. ولم يع — الا بادراك مبهم — التحقيق الذى أجرى ، وسخف الاجراءات البوليسية والقضائية ، وشهادة الشهود التى لم تكن ذات نفع .. ولقد راح يحملق فى وجه مسز سميث العريض ، تبلله العبرات دون انقطاع ، وهى تقول : «لقد كانت تضحك طيلة الوقت الذى أنفقته فى حانوتى . وكانت تردد : أسرعى ، ارجوك ، فان زوجى ينتظرنى ! »

وحينمـا سمع الضـابط القضـائى يعرب عن عطفه على الدكتور مانسون لمصابه الاليم ، أدرك أن الامر قـد انتهى ، فنهض بنحو آلى ، والفى نفسه سـائرا مع دينى على افريز رمادى !

ولم يدر كيف دبرت اجراءات الجنازة ، فقد تمت كلهـا بطريقة غامضة ، لم يدر عنها شيئا . وعندما اتجه بسـيارته نحو (كينسال جرين) ، ارتد فكره مستعرضـا ما فات من الزمن .. حتى اذا صار بين القبور ، ذكر المنبسطات الشاسعة التى كانت الريح تعصف فيهـا ، خلف (فيـل فيـو) — فى أبيرالو — حيث كانت الجياد الصغيرة ترتع هازة اعرافهـا الشعثاء ! .. لـكم كانت كريستين تحب التريض هنـاك ،

مستروحة النسمات تداعب خديها .. وها هى ذى ترقد فى هذا المكان الموحش البشع !

وحاول أندرو فى ذلك المساء — وقد نالت منه حالته النفسية كل منال — أن يهدىء من انفعالاته باحتساء الخمر ، ولكن الويسكى لم يزده الا سخطا على نفسه ، فظل يروح ويجىء فى مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل ، مغمغما بصوت مرتفع ، مخاطبا نفسه فى لهجة المخمور : « **لعلك حسبت أنك ستنجو ، وخلت أنك مفلت من الماضى .. لا وحق السماء ، لن تستطيع ! .. جريمة وعقاب ! .. جريمة وعقاب !.. أنت مسئول عما حدث لها ، فعليك أن تشقى ! »**.

وانطلق فى الشارع بطوله ، يسير مترنحا حاسر الرأس ، يحملق بعينين زائغتى النظرات ، فى مصاريع حانوت « فيدلر » المغلقة. ثم عاد يغمغم من خلال دموعه متبلدا : « لاسبيل الى التغرير بالله .. لقد قالت لى كريس ذات يوم هذا : ان الله لا يخدع يا صديقى ! »

وصعد السلم خائر القوى .. وبعد لأى ، دلف الى مخدع زوجه البارد المهجور الموحش .. كانت حقيبة يدها فوق منضدة الزينة . فتناولها وضمها الى خده ، ثم فتحها وراح يتحسس كل ما كان فيها : بضع قطع نقود فضية وبرونزية ، ومنديل صغير ، وايصال بثمن مواد البدالة .. ووجد فى الجيب الاوسط بعض الاوراق ، وصورة قديمة له ألتقطت فى (بلينيللى) و ... أجل ، لقد تعرف عليها وقلبه يخفق .. تلك الكلمات التى وصلته — فى عيد الميلاد — من مرضاه فى (ابيرالو) : « مع التشكرات القلبية » .. لقد احتفظت كريستين بها منذ أعوام !.. **واختنقت فى صدره العبرات الباكية ، وسقط جاثيا على ركبتيه أمام المضجع ، وانفجر فى انتحاب مرير !**

ولم يحاول دينى صده عن الخمر .. وخيل الى أندرو أن

صـديقه لم يكن يبـرح الدار ، لا من اجل العيـادة ـ فان الدكتور لورى اصـبح يتولى امرها ، واخـذ يحضر ليتفقد قائمـة الزيارات التى يجب أن تؤدى ، ولاعطاء استشـارات لرواد العيادة ، برغم انه كان يقيم فى حى آخر ـ ولم يـكن أندرو يعرف شيئا ـ اى شىء ـ عمـا كان يجرى ، ولا كان راغبا فى أن يعرف ، بل انه راح يتحاشى « لورى » ، اذ ان أعصابه كانت متوترة الى أقصى حد .. وبات رنين جرس الباب يضاعف ضربات قلبه بنحو مزعج ، كما أن مجرد سماعه أية خطوات ـ على غير توقع ـ كان يثير ذعره ، حتى لتندى راحتاه عرقا . وأصبح يمكث فى غرفته وبين أصابعه منديل ملفوف على شكل كرة ، يجفف به ـ من حين لآخر ـ عرق يديه ، محدقا فى المدفأة ، موقنا من انه مضطر ـ اذا ماجن الليل ـ الى أن يواجه شبح الارق !

***

تلك كانت الحال التى الفاه عليهـا دينى فى غرفتـه ذات صباح ، فأقبل عليه قائلا : « انى اصبحت حرا والحمد لله ، وبوسعنا ان نرحل الآن ! » .. ولم يدر بخلد أندرو أن يرفض ، اذ كان قد فقد كل قدرة على المقاومة .. **بل انه لم يسـأل الى أين كانا راحلين ، بل أخذ يحملق ـ فى تبلد وسكون ـ فى دينى وهو يعد له حقيبته . وبعد ساعة كانا فى طريقهما الى محطة (بادنجتون) .**

وقضيا فترة ما بعد الظهر كلها ، فى قطار انطلق بهما عبر أقاليم الجنوب الغربى ، ثم بدلاه فى (نيو بورت) ، فاستقلا قطار (مونموث) الذى اقلهما الى (ابيرجافينى) ، حيث نزلا .. واستأجر دينى سـيارة حملتهما عبر شوارع المدينـة ، ثم اجتازت بهما نهر (أوسك) ، موغلة فى الريف الذى بسط عليه الخريف ألوانه الخلابة . وقال دينى اذ ذاك : « هذه بقعة

كنت أجىء اليها للصيد .. ان دير « لانتونى » هو فيما أعتقد المكان الذى يلائمنا ! »

وبلغا وجهتهما فى الساعة السادسة ، فدلفا خلال طرق حفت بأشجار البندق . وكانت اطلال الدير تشغل مكانا فى وسط أرض مربعة ، تكسوها أعشاب قصيرة : أحجار رمادية منحوتة ، وبضعة من أقواس واقبية الدير ، وبجانبها بيت للضيافة بنى بأكمله بالاحجار التى سقطت من مبنى الدير . وعلى مسافة قريبة من هذا البيت ، كان ثمة جدول ينساب فى خرير عذب !

وفى صباح اليوم التالى ، اصطحب دينى « أندرو » الى نزهة فى الخلاء .. وكان الجو جافا منعشا ، ولكن أندرو كان قد قضى ليلته مؤرقا ، فسرعان ما خارت قوته عند أول شاطىء ، وبدا ـ بعد قليل ـ راغبا فى العودة ، غير أن صديقه قاوم هذه الرغبة ، والح عليه بمواصلة السير ، **فجعله يقطع ـ فى هذا اليوم الاول ـ ثمانية أميال .. ثم عشرة فى اليوم التالى .. وفى نهاية الاسبوع كانا يقطعان عشرين ميلا فى كل يوم . وكان أندرو يعود الى غرفته خائر القوى ، فيتهالك لفوره على سريره وينام !..** ولم يكن يزعجه فى الدير أحد ، اذ لم يبق فى الجيرة سوى نفر قليل من الصيادين ، فقد كان موسم الصيد يقترب من نهايته !.. وكانا يتناولان وجباتهما فى قاعة الطعام الفسيحة ، المكسوة الارض بالاحجار ، وقد جلسا الى مائدة طويلة من البلوط ، امام مدفأة مزودة بالوقود .. اما الطعام فكان بسيطا ، جيدا .

وكانا يتكلمان لماما أثناء نزهاتهما . وكثيرا ما سارا نهارا بكامله دون ان يتبادلا اكثر من بضع كلمات . ولم يكن اندرو يعير المناظر التى يمران بها أى التفات ـ فى بادىء الامر ـ بيد أنه لم يلبث أن أخذ يتذوق ـ على ما كان به من وهن الشعور ـ جمال الغابات والقنوات والروابي التي كانت الزهور

البرية تكسو منحـدراتها !.. ولم يكن يتماثل نحـو الحـالة الطبيعية بسرعة خارقة ، على أنه أصبح ـ قرب نهاية الشهر الاول ـ قادرا على أن يحتمل مشقة نزهاتهما الطويلة ، وان يأكل وينام ويستحم بالمـاء البارد فى كل صـباح ـ كمألوف عادته ـ وان يواجه المستقبل بدون وجل .. وادرك ان هذه البقعة النائية هى خير بقعة كان يمكن اختيارها لشفائه ، وأن هذا النظام الغذائى الرهبانى كان أكثر نظم التغذية نفعا له !

وعندما أقبلت اولى موجات البرد الشديدة، احس لها دمه بمتعة سائغة .. وبدا اندرو يتكلم مع « دينى » . وكانت موضوعات أحاديثهما اول الامر تافهة . **فقد كان عقله اشبه بمصارع يقوم بتدريبات بسيطة ، قبل أن ينهمك فى تمرينات أعنف . فأخذ يتحفز فى حذر لمواجهـة الحياة من جـديد .**

بيد أنه استطاع ان يقف من « دينى » على سير الاحداث : لقد بيعت عيادته للدكتور لورى ، لا بكامل المبلغ الذى حدده تيرنر ـ اذ لم يستطع اندرو بسبب ظروفه تقديم خلفه لمرضى العيادة ـ وانما بمبلغ يقرب منه كثيرا . وقد اتم هوب أخيرا دراساته ، واستقر فى داره ببرمنجهام ، كما اصبح دينى حرا، اذ كان قد استقال من منصبه قبل أن يجىء الى دير «لانتونى» . وكانت النتيجة من الوضوح بحيث رفع أندرو فجأة رأسه ، وقال : « يجب أن استرد قدرتى على العمل فى أول العام ! »

ومنذ ذلك اليوم ، أخذا يتكلمان جديا فى مشروعهما .. وبعد ثمانية أيام كانت سحنته الجافة المتبلدة قد تلاشت .. وشعر بأن من الغريب والمحزن أن يكون العقل البشرى قادرا على البرء من صدمة قاتلة ، كتلك التى أصابته . **على أنه لم يكن يملك شيئا ازاء الواقع .. كان يبرأ فعلا .. ولقد كان يمضى من قبل فى تثاقل وزهد ، كأنه آلة . أما الآن ، فقـد أصبح يستنشق نسيم الحيـاة فى قوة حقيقيـة ، ويضرب الزهور البرية بعصاه ، ويتولى امر رسائله بنفسه ، ويتذمر**

عندما لا يحمل له البريد « الجريدة الطبية » .. وفى المساء ، كان يعكف مع دينى على خريطة كبيرة ، وقد استعانا بدليل ، ووضعا قائمة بالمدن اخذا يراجعانها حتى حصرا اختيارهما فى ثمانى مدن : اثنتان منها فى مقاطعة (ستافورد) ، وثلاث فى (وارويك) .

وسافر دينى فى يوم الاثنين التالى ، فظل اسبوعا متغيبا .. وفى هذه الايام السبعة ، عاودت أندرو — على حين غرة — رغبته القديمة فى أن يمارس عملا شخصيا حقيقيا ، عملا يمكنه ممارسته مع هوب ودينى .. ونفد صبره تماما ، فذهب عصر يوم السبت — سيرا على قدميه — الى (ابيرجافنى) ينتظر آخر قطار قبل العطلة الاسبوعية . وعاد وقد خاب أمله اذ لم يعد « دينى » من رحلته .. وعانى ليلتين ويوما أخرى فى هذا الانتظار ، ثم فوجىء بسيارة صغيرة داكنة من طراز « فورد » ، واقفة أمام الباب — وكان عائدا من نزهته — فولج الدار يعدو ، ولمح — فى قاعة الطعام — دينى وهوب يتناولان الشاى مع بيض بالجامبون ، وكريمة ، وسمك محفوظ !

وكان بيت الضيافة قد خلا — فى آخر ذلك الاسبوع — لهم وحدهم ، فمهد فيليب دينى للحديث الجاد أروع تمهيد ، بتقرير ألقاه أثناء هذا العشاء الفاخر . وكان وقع قطرات المطر والجليد على النوافذ يبعث طرقات منتظمة ، اذ أن الطقس كان قد برد دون شك ، ولكن هذا لم يشغل المجتمعين البتة ، فراحوا يتكلمون فى شؤونهم .. كانت مدينتان من المدن التى زارها دينى — وهما (فرانتون) و (ستاندبورو) — تربة خصبة للتقدم الطبى ؛ على حد تعبير « هوب » ، اذ كانتا من المراكز نصف الزراعية ، وقد نشأت فيهما حديثا صناعة جديدة .. فقد أقيم أخيرا — فى (ستاندبورو) — مصنع لانتاج « شاسيهات » السيارات ، كما أقيم فى (فرانتون) مصنع لسكر البنجر . فأخذت الدور تنشأ فى أطراف

المدينتين ، والسكان يتزايدون . **بيد أن الخدمات الطبية فى كل منهما لم تكن تساير الوضع الجديد ، فلم يكن فى (فرانتون) سوى مستشفى صغير ، ولم يكن فى (ستاندبورو) شيء على الاطلاق ، فكان المرضى يرسلون - فى الحالات العاجلة - الى (كوفنترى) على مسافة خمسة عشر ميلا !**

وكانت هذه المعلومات كافية لان ينطلقوا ككلاب الصيد صوب هدفهم . على ان دينى كان لديه مدن أخرى ادعى الى التشجيع . واطلع صاجبيه على رسم لستاندبورو ، كان قد انتزعه من دليل لميدلاند وقال : « يؤسفنى أن أقول اننى سرقته من فندق ستاندبورو ، ويبدو لى أننا قد نبدأ فى هذه المدينة بداية حسنة ! » . فقال هوب نافد الصبر ، بعد ان كان مازحا : « قل لى سريعا ، ما هذه العلامة ؟ » .



وقال دينى حينما أمالوا رؤوسهم الثلاثة الى الرسم : « ان هذا هو ميدان السوق .. وهم لسبب ما ، يسمونه هناك « الدائرة » . انه فى وسط المدينة تماما ، فوق المرتفع ، فى موقع بديع . انتما تعرفان هذا : صف من الدور والحوانيت والمكاتب ، النصف مخصص للمساكن ، والنصف متاجر .. كلها اقيمت من زمن طويل ، ويغلب عليها جميعا الطابع الجورجى ، بنوافذه الواطئة وأبوابه الصغيرة .. **وأبرز ادعياء الطب هناك رجل بدين ساذج ، وقد رأيته .. انه احمر الوجه ،**

كثيف اللحية ، يستخدم عند الاقتضاء اثنين من المساعدين ، ويقطن فى الدائرة ! » .. واستطرد دينى وهو يتكلم بلهجة ساخرة بعض الشىء : « وفى الجانب الآخر تماما ، فى مواجهة نافورة صغيرة ، بديعة ، من الجرانيت – وسط « الدائرة » – توجد داران خاليتان بهما حجرات واسعة ، وارضياتهما فى حالة جيدة ، وواجهاتهما جميلة .. وهما معروضتان للبيع . ويبدو لى .. » فصاح هوب وهو يحبس انفاسه : « أما عنى ، فانى أقول فى غير تردد ، أنه لا يروقنى أكثر من معمل صغير ، فى مواجهة هذه النافورة ! »

* * *

ومضوا يتحدثون ، فقدم دينى تفصيلات أخرى تثير الاهتمام . وخلص الى القول : « لا شك اننا سنرتبك كثيرا .. لقد تحققت فكرتنا على خير وجه فى مدن أمريكا الكبرى ، بفضل انشاء منظمات دقيقة ، ورؤوس أموال ضخمة . أما نحن هنا – فى ستاندبورو – فليس لدينا مدخرات كبيرة .. » فقال هوب وهو ينهض متثائبا : « ليساعدنا الله ايها الزميلان الحميمان ! »

وتقدموا يوم الاحد خطوة أخرى فى مشروعهما ، بأن قرروا أن يمر « هوب » فى عودته – يوم الاثنين – بستاندبورو ، ثم يلحق به دينى وأندرو فى يوم الاربعاء ، ويلتقيان به فى الفندق ، على أن يتقصى أحدهم الامر سرا ، من سمسار الايجارات فى المدينة .. وفعلا سافر هوب فى صباح اليوم التالى . وكان لديه عمل كثير يشغله سحابة نهاره . فانطلق بسيارته « الفورد » قبل أن يفرغ صاحباه من تناول افطارهما . وكانت السماء ملبدة بالغيوم ، غير أن الريح كانت تنبىء بجو صحو مشرق .. وخرج أندرو وحده لمدة ساعة .. **كان من الجميل أن يعود**

فيحس بأنه متـأهب للعمـل ، وبأن لديه ما يفعـله ، وعلى الاخص فى تنظيم مشروع العيادة الشائق هذا . لم يكن قد أدرك بعد كل ما يمثله هذا المشروع بالنسبة له .. حتى فى هذه اللحظة التى أوشك فيها المشروع ان يتحقق !

وحينما عاد فى الحادية عشرة ، كان البريد قد وصل ، فاذا به يضم عدة خطابات حولت اليه من لندن . وجلس الى المائدة سعيدا بفكرة فضها وقراءتها ، بينما كان دينى يطالع صحيفة صباحية ، بالقرب من المدفأة .. وكان أول خطاب فضه من مارى بولاند ، وقد كتب بخط صغير ، وملأ صفحات كاملة .. وأشرق وجهه حتى لقد ابتسم . فلقد بدأت مارى بالاعراب له عن ودها له ، مؤملة أن يكون قد شفى تماما . ثم تحدثت باختصار عن نفسها ، قائلة انهـا قد تحسنت كثيرا ، وقد أوشكت أن تستعيد صحتها تماما ، فأصبحت حرارتها ــ منذ خمسة أسابيع ــ عادية ، وأصبحت تستيقظ وتقوم ببعض التمرينات الرياضية باطراد مستمر يوما بعد يوم .. ولقد سمنت حتى باتت تخشى أن لا يعرفها . ثم سألته عما اذا كان سيحضر لرؤيتها ، وذكرت أن مستر ستلمان قد سافر الى أمريكا لبضعة أشهر تاركا مساعده ــ مستر مارلند ــ ليحل محله .. واختتمت رسالتها بأنها لم تكن تدرى كيف تشكر له أن أدخلها هذا المصح .. (بيلفى) .

ووضع أندرو الخطاب جانبا ، وهو مشرق الوجه لفـكرة شفاء مارى . ثم نحى عنـه عددا من النشرات والاعلانات ، وتناول الخطاب التالى . وكان فى غلاف من الحجم الـكبير ، يدل مظهره على انه خطاب رسمى ، ففضه وأخرج منه ورقة سميكة .. **وسرعان ما فارقته الابتسامة ، ونظر الى الخطاب غير مصدق ، ثم شحب وجهه شحوب الموتى .. وظل دقيقة ممضة بدون حراك ، مركزا نظره على الورقة !**

وتمتم أخيرا ، فى صوت خفيض : « دينى !.. أنظر هذا ! »

— ٢١ —

• **عندما** غادرت مس شارب سيارة أندرو — فى محطة (نوتنج هيل) — قبل شهرين ، استقلت المرضة « المترو » الى ميدان (اكسفورد) ، ثم يممت — سيرا على قدميها — شطر شارع (الملكة آن) . وكانت على اتفاق مع صديقتها «ترنت» — المرضة التى تعمل عند الدكتور هامبتون — على أن تقضيا السهرة فى مسرح الملكة ، حيث يمثل لويس سافورى — فنانهما المفضل — فى مسرحية « الدوقة تعلن عن نفسها » .. ولما كانت الساعة تشير الى الثامنة والربع ، والتمثيل يبدأ فى التاسعة الا ربعا ، فلم يكن لدى مس شارب من الوقت الا ما يلزم للمرور على صديقتها واصطحابها ، لتصلا الى المسرح فى الموعد .

وامتعضت وهى تستعيد فى ذاكرتها حوادث النهار ، وغلى الدم فى عروقها غضبا للاهانة التى لحقتها . فصعدت قفزا سلم المنزل رقم ١٧ — حيث عيادة هامبتون — ودقت الجرس .. وفتحت لها مس ترنت الباب وتلقتها عاتبة ، ولكن صديقتها شدت على ذراعها ، ثم قالت فى سخط : « لكم أنا آسفة يا عزيزتى ! ياله من نهار قضيته !.. سأشرح لك هذا فيما بعد . دعينى فقط أدخل لاضع أشيائى ، ثم نسرع الى المسرح حتى نصل فى الميعاد ! » ..

وبينما كانت المرضتان معا فى الردهة ، هبط « هامبتون » السلم انيقا فى بذلة السهرة ، فتوقف حين رآهما ، **اذ ان فريدى لم يكن يضيع فرصة لابداء فتنته ، بل كان يحرص أشد الحرص على أن يحبه الجميع ، وعلى أن يظفر من اعجاب الناس بكل ما يستطيع !..** وقال فى مرح ، وهو يتناول سيجارة من علبته الذهبية : « هالو ، مس شارب . يبدو أنك متعبة !.. ولماذا أنتما متأخرتان ؟ ألم تقل لى مس ترنت انكما

تعتزمان مشاهدة تمثيلية هـذا المساء ؟ » . فأجابته مس شارب : « أجل يا دكتور ، غير أني تأخرت الى جانب مريضة من مرضى الدكتور مانسون » . فهتف فريدى : « آه ؟! » وكان الاستفهام واضحا فى لهجته ، **فكان هذا كافيا بالنسبة للممرضة التى استولى عليها الشعور بأنها فريسة جور وحيف، والتى كانت تبغض أندرو بقدر ما كانت تعجب بهامبتون ..** فاندفعت فجـأة ، غـير متمالكة نفسـها ، وقالت : « لم ار يا دكتور فى حياتى شيئا كهذا .. يأخذ مريضة من مستشفى « فيكتوريا » ويذهب بها خفية الى هذا (البيلفى) ، ويجعلنى انتظر هناك ساعات بينما كان يجرى جراحة بالاشتراك مع شخص غير مؤهل اطلاقا ! »

وراحت تروى قصة ماجرى فى أصيل ذلك اليوم ، وهى تحبس بعناء ما كان الغضب يدفعه الى عينيها من دموع ، حتى اذا فرغت ، ساد الصمت ، وبدا وجه فريدى غريبا . وقال أخيرا : « هذا بغيض حقا . على اننى ارجو الا تفوتكما التمثيلية . اسمعى ياترنت ، استقلا سيارة أجرة على نفقتى ، وقيدى الاجرة فى قائمة مصروفاتك !.. والآن اسمحا لى ، يجب أن أذهب » . فقالت مس شارب وهى تلاحقه بنظرة ملؤها الاعجاب : « يا له من رجـل رقيق الحاشـية . هلمى نستقل السيارة يا عزيزتى ! »

واتخذ فريدى طريقه الى النادى وهو بادى التفكير . فمنذ ان اشتبك مع أندرو ، تخلى عن زهوه ـ تحت حكم الظروف ـ وزاد علاقته بفريدمان وايفورى توثقا واحكاما ، فتعشى ثلاثتهم معا فى ذلك المساء . وفى أثناء العشاء قال ، **راغبا فى تسلية رفيقيه واصلاح ما بينه وبينهما ، اكثر منه سىء النية : « يبدو لى ان مانسون منذ فارقنا يقوم ببعض حيـل السمسرة ، فقد بلغنى انه يجلب مرضى لهذا الستلمان »** . فهتف ايفورى وهو يضع شوكته : « ماذا ؟ » . فقال هامبتون وهو يؤول

القصة وفق هواه : « بل انه يتعاون معه ، على ما فهمت ! » .
وهنا سأله ايفورى فى خشونة مباغتة : « أصحيح هذا ؟ »
فقال فريدى بلهجة المغيظ : « لقد عرفت هذا من ممرضته ، اذ قالته لى منذ نصف ساعة ! »

وساد الصمت برهة مضى ايفورى يأكل خلالها ، وهو منكس البصر . بيد أن هدوءه الظاهرى كان يخفى حنقا شديدا ، اذ انه لم يغتفر قط لمانسون عبارته الاخيرة أثر جراحة فيدلر . ومع أنه لم يكن مرهف الحس ، الا انه اوتى صلف الرجل الذى يدرك عجزه وقصوره فيحاول ان يخفيهما فى حماس وغيرة .. **كان يعرف بينه وبين نفسه أنه جراح غير كفء ، ولكن أحدا لم يقل له ذلك من قبل ، بمثل هذا العنف الجارح الذى بدر من مانسون ، ومن ثم فقد أصبح يكره مانسون لانه قال له هذه الحقيقة المؤلمة !..** وكان صاحباه يتحادثان معا منذ برهة ، حينما رفع رأسه ، وسأل : « ممرضة مانسون هذه .. أيمكنك الحصول على عنوانها ؟ » . فكف فريدى عن الكلام مع فريدمان ، وتطلع اليه قائلا : « طبعا » . فمضى ايفورى يقول فى برود : « يبدو أنه لابد من عمل شىء فى هذا الامر . الحق يا فريدى اننى لم أهضم — فى أى وقت — صديقك مانسون ، ولكن هذه ليست المسألة . اننى انظر الى الناحية الخلقية فحسب .. لقد كلمنى جادسبى عن ستلمان هذا ، فى سياق حديث له معى أخيرا ، اذ كنا مدعوين للعشاء فى « مايفلاى » . وكانت الصحف قد بدأت تتحدث عنه .. أقصد عن هذا الستلمان ، فنشر غبى جاهل من رجال الصحافة قائمة بحالات الشفاء التى حققها ستلمان هذا .. حالات أخفق فيها الاطباء . وأنتما تعرفان اساليب الدعاية المستترة .. ولقد غضب جادسبى من هذا الامر ، وأعتقد أن « كرانستون » — الذى يؤازر ستلمان — كان من مرضى جادسبى ، ثم تركه الى هذا المهرج . **ترى ماذا يحدث**

لو أنه وجد بين زملائنا من يناصرون هذا الدخيل البشع ؟..، يالشيطان ! اننى كلما فكرت فى هـذا ازددت استياء !.. سأتصل على الفور بجادسبى .. أيها الساقى ، سل – من فضلك – ان كان الدكتور جادسبى فى النادى ، فاذا لم يكن هناك ، فقل لموظف الاستعلامات أن يتصـل تليفونيا بداره لمعرفة ما اذا كان هناك ! »

وأحس هامبتون بشىء من الضيق يخالف ما طبع عليه . فهو لم يكن يضمر ضغينة أو سوء قصد لاندرو الذى أحبه دائما على طريقته السطحية الانانية . فغمغم : « لا تقحمانى فى هـذه المسألة ! » . ولـكن ايفورى صاح به : « كف عن الحماقة يا فريدى !.. أنسمح راضين لهذا السيد أن يجللنا بالوحـل ؟ » .. وما لبث السـاقى ان عاد قائلا ان الدكتور جادسـبى كان فى داره ، وانه لم يكن مرتبطا بشىء فى ذلك المساء .. فذهب ايفورى لمقابلته . ومع انهما لم يكونا صديقين – بما لهذه الكلمة من معنى – الا أنهما كانا على صلات طيبة حملت الطبيب الشهير على أن يقدم لضيفه خير نبيـذه وسيجارا فاخرا . وسواء كان الدكتور جادسبى على علم بسمعة ايفورى او لم يـكن ، فانه كان يعرف مـركز ذلك الجراح فى الاوساط الاجتماعية ، مما كان يحدو بموريس جادسبى الى أن يعامله كزميل و ند له .

* * *

واذ شرح ايفورى الغرض من زيارته ، لم يحاول جادسبى اخفـاء اهتمامه . فمـال الى الامام ، وراح يحدق بعينيـه الصغيرتين فى ايفورى ، مصغيا الى القصة فى انتباه .. حتى اذا انتهت صاح فى استياء غير مألوف : « ياللشيطان ! » . ثم أردف قائلا : **« اننى اعرف مانسون هذا ، فقد مكث عندنا بعض الوقت فى مجلس العمل . وأؤكد لك انه سرنا كثيرا ان**

نتخلص منه . انه دخيل حقيقى ، لم يؤت من الذوق ما اوتيه اى ساع من سعاة المكاتب .. وها أنتذا تروى لى انه انتزع مريضة من « فيكتوريا » وارسلها الى ستلمان ! .. لابد أنها كانت احدى مريضات الدكتور ثوروجود ، وسنرى ما يقوله ثوروجود فى هذا الصدد ! »

وهنا قال ايفورى : « الانكى من هذا انه ساعد ستلمان فى الجراحة فعلا ! » . فقال جادسبى فى حذر : **« اذا صح هذا ، فان الامر يغدو من اختصاص المجلس العام للاطباء ! »** .

فتظاهر ايفورى بالتردد ، ثم قال : « لقد كان هذا رأيى تماما ، ولكنى تراجعت . فأنت تدرك أننى كنت اكثر منك صلة بهذا الفتى لفترة من الزمن ، فلم استسغ ان اتقدم بالشكوى شخصيا » . ولكن جادسبى قال بلهجة حاسمة : « سأتولى انا الامر . واذا تأيد ماقلته لى ، فسأتقدم بالشكوى شخصيا ، فان تقاعسى عن العمل فورا ، اخلال بالواجب فى رأيى .. ان الامر حيوى يا ايفورى ، فان خطر هذا الستلمان على مهنتنا اكثر من خطره على الجمهور . واظننى قلت لك من قبل ــ ونحن نتعشى معا فى ذلك المساء ــ ما أعرفه عنه . انه يهدد كياننا ، علمنا ، تقاليدنا .. يهدد كل ما نمثل . ولن يحمينا سوى حكم يصدر باقصائه عن البلاد ، واذ ذاك يمنى بكارثة ، لعدم حصوله على المؤهل العلمى المطلوب . ثم أنتبه لهذا جيدا يا ايفورى ، **لقد احتفظنا لمهنتنا ــ ولله الحمد ــ بحق توقيع شهادات الوفاة . فاذا استطاع هذا الشخص أو غيره ــ ممن هم على شاكلته ــ أن يكفل لنفسه تعاون أفراد من المهنة معه ، فعلينا العفاء** .. ومن حسن الحظ أن المجلس العام للاطباء يقضى دائما بأقصى العقوبة فى مثل هذه الحالات . أتذكر قضية « جارفيز » ، ذلك المجبر الذى وجد قبل بضعة اعوام طبيبا منحطا يمارس التخدير لمرضاه ؟ .. لقد حذف اسم ذلك الطبيب من قائمة الاطباء فى

المحال . اننى كلما فكرت فى هذا المهرج ستلمان ، ازددت تصميما على ان اجعل من هذه المسألة رادعا . فاسمح لى بأن اتصل تليفونيا بثوروجود ، ثم استجوب تلك الممرضة غدا ! »
ونهض فاتصل بالدكتور ثوروجود تليفونيا . حتى اذا كان الغد ، استمع بحضوره الى أقوال مس شارب ، وحصل منها على اقرار وقعته باسمها .. وكانت شهادتها قاطعة الى حد أنه اتصل على الفور بمحامييه السيدين « بون » و «ايفرتون» فى ميدان (بلومسبرى) .. **ولقد كان يكره ستلمان ، لا ريب فى ذلك ، بيد أنه راح يستعذب كذلك التفكير فى المنافع التى يرجح أن يجنيها اذ يظهر بمظهر الذائد عن القوانين الخلقية لمهنة الطب !**

وعندما ذهب « أندرو » الى « لانترنى » وهو جاهل بما كان يدبر ، راحت الدعوة المقامة ضده تسير فى طريقها المرسوم .. ومن الصحيح ان فريدى ــ وقد أقحم اسمه فى التحقيق الذى أجرى عن موت كريستين ــ اتصل تليفونيا بايفورى ، محاولا صده عن تقديم الشكوى ، ولكنها كانت قد قدمت فعلا !.. وان هى الا أيام ، حتى فحصها مجلس التأديب ثم ارسل باسمه خطابا الى اندرو يعلنه بالحضور امام المجلس فى جلسة نوفمبر ، للرد على الاتهام الموجه اليه .. وهذا الخطاب هو الذى أمسكه أندرو ــ فى ذلك اليوم ــ وقد شحب وجهه ،



وتولاه القلق لما كان فى أسلوبه القانونى من نذير : « حيث أنك أنت - أندرو مانسون - ساعدت فى الخامس عشر من أغسطس ، عمدا وعن علم تام ، المدعو ريتشارد ستلمان - وهو شخص غير مؤهل - فى القيام بعمل طبى ، وانضممت اليه بوصفك من أعضاء المهنة فى اجراء هذه الجراحة .. وحيث انك بذلك تكون قد اتيت فعلا مشينا فى حق المهنة .. » !

— ٢٢ —

• **حدد** اليوم العاشر من نوفمبر لنظر القضية ، فقدم اندرو الى لندن قبل هذا الموعد بثمانية ايام . وكان بمفرده ، فقد رجا دينى وهوب أن يتركاه لنفسه تماما . ونزل مكتئبا اكتئابا مريرا فى فندق « الميوزيوم » .. ومع أنه كان متمالكا نفسه فى الظاهر ، الا انه كان يائسا ، تتنازعه نوبات قاتمة من الاسى والتردد ، لم تكن راجعة الى شكوكه بالنسبة للمستقبل فحسب ، وانما كانت منبعثة كذلك من ذكريات حياته العملية كلها ، تلك الذكريات التى راح يتمثلها واضحة جلية .

ولو ان هذه الضائقة حلت به قبل ستة أسابيع ، لالفته متبلدا وقد برح به الالم لموت كريستين ، ولاستقبلها بخور وعدم اكتراث .. **أما وقد استعاد نشاطه ، وغدا على أهبة الاستعداد للعمل ، متطلعا اليه بصبر نافد ، فقد احس بالصدمة احساسا قويا مريرا ، فاذا به منقبض الفؤاد ، واذا بآماله الوليدة تنهار .. وتبين ان هذا معناه القضاء المبرم عليه ! ..** وراحت هذه الخواطر - وخواطر غيرها لم تكن أقل منها ايلاما - تتواثب فى ذهنه وتقض مضجعه ، وتهز كيانه هزا عنيفا . فما كان ليصدق أنه - هو أندرو مانسون - يقف هذا الموقف الرهيب ، الذى يفزع منه الاطباء قاطبة . لماذا يقدم للمحاكمة التأديبية ؟.. ولماذا يريدون اقصاء اسمه عن قائمة زملائه ؟.. انه لم يأت أى فعل مشين ، ولم يخن مهنته ، وما كان يبغى

يكل ما فعل سوى شفاء مارى بولاند من مرض صدرى .

ووكل امر الدفاع عنه الى « هورنر » وشركائه ، المحامين فى (لينكولنز ان فيلدز) ، فقد زكاهم لديه دينى متحمسا .. ولم يكن « توماس هورنر » يوحى لناظره - لاول وهلة - بأنه محام مرموق ، فقد كان صغير الجسم ، أحمر الوجه ، يضع على عينيه منظارا ذهبيا .. وكان - بسبب اختلال فى دورته الدموية - عرضة لنوبات من اندفاع الدم فى بشرته ، مما كان يبديه بمظهر المغرور بنفسه ، وهو ما لم يكن يوحى بالثقة فيه .. ومهما يكن من امر ، فان هورنر ابدى آراء حاسمة بصدد سير الدعوى . فعندما اراد أندرو فى غمرة حنقه - اثر اعلانه بالدعوى - ان يسرع الى سير روبرت آبى صديقه الوحيد ذى النفوذ فى لندن ، لفت هورنر نظره - بايماءة ذات معنى - الى ان آبى كان عضوا فى مجلس التأديب .. وكذلك عارض هورنر بشدة ما كان أندرو متحمسا لعمله ، اذ كان يريد الابراق لستلمان يسأله العودة فورا من امريكا .. **فان حضور هذا الرجل - الذى يمارس الطب دون أن يحمل المؤهل الواجب - كان كفيلا بأن يثير ثائرة المجلس ..** ولهذا السبب عينه ، رأى هورنر ان يمتنع « مارلند » - مدير (بيلفى) الحالى - عن الظهور .

ولقد أدرك أندرو تدريجا أن وجهة النظر القانونية فى الامر ، كانت تختلف تماما عن وجهة نظره ، فاحتج فى قوة بمنطقه الصارم وهو فى مكتب هورنر ، حتى لقد تقطب جبين المحامى واضطر الى أن يقول : « ان كان لى ما اطلبه منك يا دكتور ، فانما هو ألا تستخدم عبارات كهذه فى جلسة يوم الاربعاء . أؤكد لك أن شيئا ما لا يمكن أن يفسد علينا قضيتنا أكثر منها » .. فتوقف أندرو عن الحديث متوتر الاعصاب ،وحملق فى هورنر لحظات ، ثم قال : « ولكننى أريد ان يعرفوا الحقيقة .. أريد أن أريهم أن شفاء هذه الفتاة ، هو خير ما عملت منذ

سنين .. **فبعد أن ظللت شهورا اجتذب المرضي بطريقة مزرية ، سعيا وراء المال ، اذا بى احقق - فى آخر الامر - عملا حميدا حقا .. وهذا هو الذى من أجله .. أجل ، من أجله يتهموننى ! »**

ونظر اليه « هورنر » منزعجا - من خلف عدستى منظاره - وقد تصاعد الدم الى وجهه ، من جراء انفعاله ، وقال : « أرجوك يا دكتور ، أرجوك .. انك لا تدرك خطورة مركزنا ، فلزام على ان اغتنم هذه الفرصة لاقول لك ان احتمال نجاحنا ضعيف ، حتى لو سارت الامور سيرا حسنا ، اذ أن السوابق ضدنا تماما : « كينت » فى سنة ١٩٠٩ ، و « لوندن » فى سنة ١٩١٢ ، و « فوجير » فى سنة ١٩١٩ .. كلهم حذفت اسماؤهم لتعاونهم مع أشخاص لا يحملون « دبلوما » . وفى قضية « هيكسام » الشهيرة فى سنة ١٩٢١ ، حذف اسم هذا الطبيب اذ ساعد المجبر « جارفيز » ، وتولى التخدير فى جراحة اجراها هذا المجبر .. **لذلك أحب ان ارجوك ان لا تفعل سوى هذا : أجب على الاسئلة بنعم أو لا ، واذا استحال عليك هذا ، فأوجز قدر ما تستطيع** . ويجب ان انبهك صراحة الى ان اندفاعك بعبارة من نوع هذه العبارات التى اسمعتنيها منذ لحظة ، كفيل بضياع قضيتك ، واقصائك عن الهيئة الطبية ! »

وأحس أندرو - وهو كالمشدوه - بأن عليه ان يحاول ضبط نفسه ، وان يستسلم لاجراءات المجلس ، كما يستسلم المريض لمبضع الجراح .. بيد انه كان من العسير عليه ان يقنع نفسه بالتزام هذا الموقف السلبى .. بل ان مجرد التفكير فى أن من واجبه العدول عن كل محاولة لاظهار براءته ، وان عليه ان يجيب بنعم أو لا فحسب .. كان مجرد التفكير فى هذا يحمله فوق ما يطيق !

* * *

وفى مساء الثلاثاء ـ التاسع من نوفمبر ـ بلغت حمى الارتقاب ذروتها ، فألفى أندرو نفسه سائرا فى اتجاه حانوت فيدلر ، دون أن يدرى كيف تسنى ذلك ، اذ كان مسوقا بدافع غريب لا شعورى .. **كانت ترسب فى أغوار عقله هذه الفكرة القاتلة التى لم تستطع الفكاك منها ، وهى ان كل الخطوب التى رزىء بها فى الاشهر الاخيرة ، انما كانت عقابا له على موت هارى فيدلر** .. ولقد خلص الى هذه النتيجة على نحو غير ارادى .. وقلب وجوه الرأى على شتى الاعتبارات ، دون ان تفارقه ، اذ كانت تنبع من أعمق جذور ايمانه القديم .. واحس بأنه مدفوع ـ بقوة لا قبل له بمقاومتها ـ صوب أرملة فيدلر ، وكأنما مجرد رؤيتها من شأنه أن يعينه على تخفيف آلامه ، بوسيلة خارقة ما !

وكانت الامسية معتمة رطبة ، والشوارع خالية الا من بعض المارة . وأحس احساسا غامضا بأنه غريب فى هذا الحى الذى كان فيما مضى معروفا فيه .. لم يعد شبحه المعتم غير ظل بين ظلال أخرى تتواثب جميعها تحت المطر المنهمر !.. وبلغ الحانوت وقت الاغلاق تماما ، وكان أحد العملاء يبرحه .. وبعد تردد دخل ، فاذا مسز فيدلر وحدها خلف عداد نقود المصبغة ، تطوى معطفا تسلمته منذ لحظة .. وكانت ترتدى ثوبا أسود ، واسع الرقبة شيئا ما ، وقد أظهرها الحداد أصغر سنا مما كانت ! .

ورفعت رأسها بغتة فرأت أندرو ، واذا بها تصيح وقد اشرق محياها : «دكتور مانسون !.. كيف انت يا دكتور ؟» .. وأدرك انها لم تفطن الى ما كان يعانيه ، فأجاب بنغمة موجزة ، وهو واقف عند مدخل الحانوت ، يتساقط ماء المطر من أطراف قبعته .. وهتفت مسز فيدلر : « تفضل يا دكتور ! .. أوه ! لكم انت مبتل ! يا لرداءة الطقس ! . » فقاطعها بصوت مختنق : « لقد كنت أريد أن أزورك منذ أمد

طويل يا مسز فيدلر .. كثيرا ما تساءلت عن أحوالك ! »

ـ لا بأس بها يا دكتور .. وأنا استعين الآن بعامل شاب لاصلاح الاحذية . تفضل ، وأسمح لى بأن أعد لك قدحا من الشاى !

وهز مانسون رأسه قائلا : « انما كنت مارا من هنا .. » . وأمسك لحظة ، ثم قال فى أسى بالغ : « لابد انك تفتقدين هارى كثيرا » . فقالت : « اجل .. لقد حزنت كثيرا ، فى بادىء الامر .. ولكن المرء سرعان ما يألف .. » **فغمغم : « اننى ألوم نفسى .. الى حد ما . أواه ! لقد كانت صدمة مفاجئة لك . وكثيرا ما أحسست بأنك ولابد حاقدة على ! »**

ـ أوه ! كلا ، كيف تقول هذا فى حين انك بذلت كل ما فى وسعك .. اذ جئت الى هنا ، وأستدعيت أفضل جراح ؟

فقال بصوت أجش ، وفى جسده قشعريرة تسرى : « ولكن .. لو أنك سلكت طريقا آخر .. لو أن هارى ذهب الى أحد المستشفيات العامة .. » . فقاطعته قائلة : « ما كنت لاسلك غير هذا المسلك يا دكتور ؛ وقد حصل هارى على خير مايمكن الحصول عليه بالمال .. حتى فى جنازته .. ليتك رأيت أكاليل الزهور !.. فكيف أحقد عليك ؟.. أواه ! كم رددت هنا انه لم يكن فى الامكان ان يتولى شأن هارى طبيب ابرع ولا أكثر اخلاصا منك ! » .. **وأدرك ـ وهو ماض فى حديثه ـ إن من العبث أن يعترف لها بما اقترف ، اذ أنها كانت تأبى أن تصدقه .. كانت لديها صورة وهمية عن ميتة زوجها الهادئة ، المحتومة ، التى كبدتها كثيرا ، وكان من القسوة انتزاعها من هذه الاوهام التى كانت تتشبث بها راضية !**

وقال اخيرا : « لكم انا سعيد اذ رأيتك يا مسز فيدلر . لقد اردت ـ كما قلت لك ـ ان اقف على احوالك ! » . وشد على يدها متمنيا لها ليلة سعيدة ، ثم انصرف .

* * *

ولم يحس – اثر هذا الحديث – شيئا من السكينة التى كان ينشدها ، بل ان ألمه تضاعف ، وازدادت همومه . فما الذى كان يبتغيه اذن ؟.. الصفح على طريقة القصص والروايات ؟.. ام السخط والاتهام ؟.. وتبين – فى مرارة – ان الارملة أصبحت أكثر اجلالا له منها فى أى وقت مضى . وداخله بغتة – وهو يسير فى الشوارع المبتلة بالمطر – يقين بأنه خاسر قضيته فى اليوم التالى ، وراح هذا اليقين يشتد ويستبد به .

ومر – غير بعيد من فندقه – بكنيسة فى شارع صغير هادىء .. وكانت مفتوحة الابواب ، فاذا به يقطع سيره تحت دافع داخلى ، ثم يرتد ادراجه ويلجها .. وكانت الكنيسة مظلمة ، ساخنة الهواء ، وكأنما اقيمت فيها – منذ لحظات – صلاة أو قداس .. ولم يكن يدرى اية كنيسة هى ، لا ولا حفل بأن يعرف ، وانما جلس فوق مقعد فى الصف الاخير ، وركز بصره على الهيكل .. وجال بخاطره ان كريستين كانت – فى أوقات فتور علاقتهما – قد عادت تفكر فى الله .. **ولم يكن يوما من رواد الكنائس ، ولكن ، ها هو ذا فى كنيسة لا يعرفها !.. ان المحن تجذب الناس الى هذا المكان ، وتردهم الى الصواب ، والى التفكير فى الله !**



وظل جالسا ، منحنى الظهر – كرجل يستريح فى نهاية رحلة طويلة – والافكار تتدفق على ذهنه ، فراح يتمتم بدعوات كانت صادرة عن حنين روحه ، فلم يقصد بها الدعاء: « لا تسمح اللهم بأن يحذف اسمى .. اللهم لا تدعهم يطردوننى ! » . ولعله ظل نصف ساعة فى هذا الاستغراق الغريب ، ثم نهض وعاد الى الفندق مباشرة .

* * *

واستيقظ فى صباح اليوم التالى ، وقد استبد به القلق أكثر من ذى قبل ، برغم انه نعم بنوم عميق .. وارتدى ملابسه بيدين مرتعشتين بعض الشىء ، وهو يلوم نفسه لنزوله فى هذا الفندق الذى أعاد الى ذهنه ذكريات امتحانه ، فاذا به يحس نفس الوجل الذى أحسه حينذاك ، مضاعفا مائة مرة ، حتى انه لم يستطع تناول افطاره .. وكان موعد نظر قضيته فى الساعة الحادية عشرة ، وقد أوصاه هورنر بأن يبكر فى الذهاب .. وتبين انه فى غير حاجة لاكثر من عشرين دقيقة ، ليصل الى (هالام ستريت) ، فأخذ يطالع صحف الصباح فى بهو الفندق ، وهو شارد الذهن ، متوتر الاعصاب . وما لبث ان استقل سيارة أجرة .

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تماما ، حينما وصل الى المجلس ، فاندفع الى القاعة ، دون أن يحفل بتبين أبعادها ، أو المنصة التى جلس حولها الاعضاء برئاسة سير جينر هاليداى .. **وكان الاشخاص الذين دعوا للشهادة فى قضيته ، يجلسون فى نهاية القاعة .. ومن عجب انهم بدوا أشبه بممثلين ينتظرون أدوارهم للظهور على المسرح ..** كان هناك هورنر ، ومارى بولاند يصحبها أبوها ، والممرضة شارب ، والدكتور ثوروجود ، والسيد بون ، والممرضة مايلز المختصة بعنبر ثوروجود فى المستشفى .. وأجال اندرو بصره فى

المقاعد المصطفة ، ثم أسرع بالجلوس الى جانب هورنر ، فبادره المحامى غاضبا شيئا ما : « أحسبنى قلت لك أن تحضر مبكرا .. ان القضية الاخرى توشك ان تنتهى ، وكل تأخير امام هذا المجلس يؤدى الى عواقب وخيمة ! »

ولم يجب أندرو بشيء ، اذ كان هورنر على حق ، فان رئيس المجلس كان ينطق بالحكم فى القضية السابقة مباشرة لقضيته .. وكان الحكم يقضى بادانة المتهم وحذف اسمه من قائمة الاطباء . ولم يستطع اندرو تحويل نظره عن الطبيب الذى وجد متلبسا بجريمة « غامضة » .. كان شخصا يرتدى ملابس رثة ، تبدو عليه الفاقة والعوز ، ويدل مظهره على أنه كافح كفاحا مريرا فى سبيل كسب عيشه .. **وشاهد اندرو اليأس القاتل الذى ارتسم على محياه وهو يسمع الحكم بادانته ، تصدره عليه هذه الجمعية الجليلة القدر من زملائه ، فارتعدت فرائصه وارتعش !** .. على أن الوقت لم يسمح له بأكثر من أن يشعر برثاء مقتضب نحوه ، ثم نوديت قضيته على الفور ، فانقبض قلبه اذ حان دور تقرير مصيره !

وتلى قرار الاتهام من ألفه الى يائه ، ثم نهض السيد « جورج بون » — محامى المدعى — فبدأ مرافعته .. وكان رجلا نحيل الجسم ، واضح القسمات ، يرتدى حلة رسمية « ردينجوت » ، حليق الوجه تماما ، يثبت على أنفه منظارا تدلى منه شريط اسود أنيق .. ودوى صوته قويا ثابتا ، وهو يقول : « سيدى الرئيس ، سادتى .. ان القضية التى أمامكم لا تتعلق — فيما يبدو لى — بأية نظرية طبية من النظريات التى تتضمنها المادة ١٨ من التشريع الطبى .. **بل أنها على العكس ، مثل واضح لتعاون أحد أعضاء مهنتنا مع شخص غير مؤهل .. وهو اتجاه ألاحظ ان المجلس قد وجد — منذ عهد قريب — مايدعوه الى مقاومته .**

« والى حضراتكم وقائع الدعوى : فى الثامن عشر من يوليو، قبلت المريضة « مارى بولاند » - وكانت مصابة بسل رئوى - فى قسم الدكتور ثوروجود بمستشفى فيكتوريا للامراض الصدرية . وقد مكثت فيه حتى الرابع عشر من سبتمبر، تحت ملاحظة الدكتور ثوروجود . ثم غادرت المستشفى - فى ذلك التاريخ - بحجة أنها تريد العودة الى دارها .. وأقول « بحجة » ، لان المريضة لم تعد الى أهلها - يوم مغادرتها المستشفى - **وانما التقت فى مبنى المستشفى بالدكتور مانسون الذى صحبها - على الفور - الى مؤسسة تدعى (بيلفى) ، يزعم القائمون بأمرها - فيما أحسب - أنها تشفى الامراض الرئوية** . وما ان وصلت المريضة الى المؤسسة ، حتى الزمت الفراش وفحصها الدكتور مانسون بالاشتراك مع صاحب المؤسسة ، السيد « ريتشارد ستلمان » ، الذى لا يحمل أى شهادة طبية ، وهو - على ما بلغنى - أجنبى . وبعد الفحص تقرر نتيجة للتشاور - واحب ان ألفت نظر المجلس الى هذه الكلمة - تقرر نتيجة للتشاور بين الدكتور مانسون والسيد ستلمان ، اجراء جراحة للمريضة . فتولى الدكتور مانسون اجراء التخدير الموضعى ، وتم الحقن على يدى الدكتور مانسون والسيد ستلمان .

« والآن يا حضرات السادة - وقد أوجزت لكم الوقائع - اقترح سماع الشهود . الدكتور أوستاش ثوروجود من فضلك ! »

ونهض هذا الطبيب وتقدم ، فبادره « بون » قائلا : « لن احاول يا دكتور ثوروجود احراجك ، فنحن نعرف تماما سمعتك - بل نبوغك - فى الامراض الرئوية . ولست أشك فى أنك ربما أحسست بالعطف نحو زميلك الشاب ، ولكن أليس صحيحا ان الدكتور مانسون ألح عليك - فى يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر - فى أن تفحص تلك المريضة : مارى بولاند ؟ » .

فأجاب ثوروجود : « بلى » .

ــ أليس صحيحا أيضا انه رجاك ملحا ــ أثناء هذا الفحص ــ ان تمارس علاجا أبيت ان تقره عليه ؟

ــ كان يريد اجراء عملية « بنيموتراكس »

ــ حسن جدا . وقد رفضت أنت من أجل مصلحة المريضة وخيرها ؟

واذ قال ثوروجود : « هو ذلك ! » ، عاد بون يسأله : « وازاء رفضك ، هل اتخذ الدكتور مانسون موقفا خاصا أيا كان ؟ » . فقال : « الواقع .. » ، وسكت مترددا ، فأهاب به بون : « أرجوك يا دكتور .. اننا ندرك تماما حرج موقفك ، ولكن .. » . واذ ذاك ، قال ثوروجود : « لقد كان فى ذلك الصباح مضطربا ، وبدا كأنه لم يقبل قرارى » . وعاد بون يقول : « شكرا يا دكتور ثوروجود . **هل كانت لديك أسباب تدعوك الى الاعتقاد بأن المريضة كانت مستاءة من العلاج الذى كان يمارس لها فى المستشفى ؟ »** ، وارتسمت على وجهه ــ لهذه الفكرة ــ ابتسامة مائعة ، ثم استطرد : « او انه كان لديها ما تشكو منه ، سواء من ناحيتك او من ناحية المستخدمين ؟ »

ــ لم يكن هناك شىء من هذا اطلاقا .. بل ان المريضة كانت تبدو دائما راضية سعيدة !

فقال بون : « شكرا يا دكتور ثوروجود » . ثم تناول البطاقة التالية ، وقال : « والآن .. المرضة مايلز من فضلك ! » . فعاد ثوروجود الى مقعده ، وتقدمت المرضة ، فبادرها « بون » قائلا : « أيتها المرضة مايلز .. فى صباح يوم الاثنين الثانى عشر من سبتمبر ــ أى بعد يومين من هذا الفحص الذى أجراه الدكتور ثوروجود بالاشتراك مع الدكتور مانسون ــ هل حضر الدكتور مانسون لزيارة المريضة ؟ » . فأجابت : « نعم » . **فعاد يسألها : « وهل كان هذا موعد**

زيارته المألوف ؟ » . فاجابت : « لا » . فاستطرد : « وهل فحص المريضة ؟ » . فأجابت : « لا .. بل انه جلس فقط يتحدث معها » .

ـ حسن جداً أيتها الممرضة .. ولقد كان الحديث طويلا وجديا ـ على ما ذكرته فى اقرارك الرسمى ـ ولكن .. قولى لنا بطريقتك هذه المرة ، ما الذى حدث بعد انصراف الدكتور مانسون مباشرة ؟

ـ بعد حوالى نصف ساعة ، قالت لى المريضة رقم ١٧ ـ أعنى مارى بولاند ـ « لقد فكرت جيدا أيتها الممرضة ، وقررت مغادرة المستشفى .. لقد كنت جد كريمة معى ، ولكننى أريد الخروج يوم الاربعاء القادم » !

فقاطعها بون بقوة : « يوم الاربعاء القادم .. شكرا أيتها الممرضة ، فهذه هى النقطة التى أردت تحديدها . يكفى هذا الآن ! » .. وانسحبت الممرضة مايلز ، بينما بدت علىَ وجه المحامى علائم الارتياح ، وقال : « الممرضة شارب من فضلك ! » . وساد الصمت ريثما تقدمت . ثم قال بون : « مس شارب ، هل تستطيعين أن تذكرى لنا بالتحديد ، ما الذى فعله الدكتور مانسون عصر الاربعاء ١٤ سبتمبر ؟ » . فأجابته : « أجل ، فقد كنت فى صحبته »

ـ أحسبنى أفهم من لهجتك انك صحبته على مضض منك .

ـ أجل ، عندما عرفت أين كنا ذاهبين ، وان ستلمان هذا لم يكن طبيبا ..

فقال بون : « أحسبك صدمت ؟ » . وكان جوابها : « نعم هو هذا ، فأنا لم أعمل ـ فى حياتى كلها ـ الا مع الاطباء .. مع أطباء حقيقيين .. مع اخصائيين ! » . وهنا قال بون : « حسن جدا .. والآن هناك نقطة يا آنسة ، أريد أن أسمعك تحددينها لتنوير المجلس : هل تولى الدكتور مانسون حقيقة

مساعدة السيد ستلمان فى اجراء هذه العملية ؟ » . فأجابت مؤكدة : « أجل .. لقد فعل » . **وهنا مال « آبى » الى الامام، ووجه سؤالا عن طريق الرئيس : « هل كنت فى ذلك الوقت قد انذرت باعفائك من خدمة الدكتور مانسون يا مس شارب ؟ » . فغمغمت وقد احمر وجهها واضطربت : « أجل .. أحسب ذلك ! »**

وحينما عادت الى الجلوس بعد لحظة ، أحس أندرو بشىء من الانتعاش : ان « آبى » فى القليل مازال يعطف عليه ! .. بينما تحول « بون » نحو منصة المجلس وقد أثارته المقاطعة ، وقال : « سيدى الرئيس . يمكننى المضى فى استجواب المزيد من الشهود ، غير انى أعرف تماما قيمة وقت المجلس . وأعتقد يا سادتى بالاضافة الى هذا انى قدمت الادلة القاطعة فى الدعوى . **يبدو انه ليس هناك أى شك فى أن المريضة « مارى بولاند » - بالاتفاق التام مع الدكتور مانسون - قد انتزعت من عناية أخصائى جليل القدر ، فى مستشفى من أفضل مستشفيات لندن ، ونقلت الى تلك المؤسسة التى لايطأن اليها، الامر الذى يشكل فى ذاته اخلالا خطيرا بالواجب المهنى !** .. وان الدكتور مانسون قد تعاون بذلك عمدا مع صاحب تلك المؤسسة ، غير المؤهل اطلاقا ، فى اجراء عملية خطيرة حذر منها الاخصائى المسئول أدبيا عن المريضة ، وهو الدكتور « ثوروجود » .

« سيدى الرئيس ، سادتى : أعتقد ان الامر ليس كما يبدو لاول وهلة أمر حادث فردى منعزل ، أو اخلال عارض ، وانما هو مخالفة مدبرة عن عمد وسبق اصرار للتشريع الطبى . »

.. ثم جلس السيد « بون » ، مسرورا من نفسه ، ونظف زجاج نظارته .. وساد صمت لبضع لحظات ، ظل خلالها أندرو مثبتا نظره على الارض ، لا يتحول عنها . لكم أحزنه أن تعرض قضيته على هذا النحو من التحيز والغرض ، وأن

يعامل معاملة قطاع الطريق ! .. وأخيرا تقدم محاميه وتأهب لمخاطبة المجلس . بدأ « هورنر » كعادته منفعلا أحمر الوجه، وكان يجد مشقة فى ترتيب أوراقه. ولكن حالته هذه استدرت عليه فيما يبدو عطف المجلس . وقال له الرئيس : « تفضل يا سيد هورنر » .. فتنحنح ، ثم بدأ مرافعته فقال : « سيدى الرئيس ، سادتى : صدقونى اذا قلت لكم انى لا أعترض على ما أبداه السيد بون فى مرافعته ، فلست أفكر فى مناقشة الوقائع ، على أن طريقة تفسيرها تعنينا على نحو خطير . وهناك بالاضافة الى هذا بعض نقط تكميلية تلقى على القضية ضوءا يفيد منه موكلى كثيرا . فمثلا لم يذكر حتى الآن بالتحديد أن مس بولاند كانت فى أول الامر من مرضى الدكتور مانسون ، والواقع أنها استشارته يوم ١٠ يولية قبل أن ترى الدكتور ثوروجود . ومن ناحية أخرى فان الدكتور مانسون كان يهتم بأمرها اهتماما شخصيا ، لانها ابنة أحد أصدقائه الخلصاء . ومن أجل هذا اعتبر نفسه دائما مسئولا عن صحتها. **.ويجب أن نعترف صراحة بأن الدكتور مانسون قد ارتكب خطأ جسيما ، ولكنى بكل احترام أرى أن عمله لا ينطوى على شىء مشين أو على أى قصد سىء ..** ولقد عرفنا انه كان هناك خلاف طفيف فى الرأى ـ بالنسبة للعلاج ـ بين الدكتور ثوروجود ومانسون . ونظرا لعطف الدكتور مانسون البالغ على المريضة ، فقد كان من الطبيعى تماما أن يعود فيتولى الاشراف على العناية الطبية التى ينبغى بذلها لها . ولا شك انه لم يكن يريد بحال تكدير صفو زميله الذى يكبره سنا . وهذا ، دون غيره ، هو الذى حمله على سلوك سبيل التحايل الذى سلكه والذى أفاض فيه السيد بون .. »

وهنا توقف « هورنر » وأخرج منديله وسعل . ولونظرت اليه لالفيته يتحفز لتذليل عقبة أصعب وأعتى ، وما عتم ان قال : « نصل الآن الى مسألة التعاون مع السيد ستيلمان فى

مصحة (بيلفى) . ولا شك ان اعضاء المجلس لا يجهلون اسم السيد ستلمان. فهو بالرغم من انه لا يحمل دبلوما ، رجل ذو سمعة طيبة ، بل ويؤكدون أنه توصل الى شفاء حالات مرضية فى ظروف خارقة .

وهنا قاطعه الرئيس فى رصانة : ((ماذا يمكنك ان تعرف يا سيد هورنر فى هذه الامور وأنت لست طبيبا ؟))

فقال هورنر بقوة : ((أعترف بهذا يا سيدى ، والذى اريد قوله هو ان السيد ستلمان على مايبدو رجل له قدره ومكانته . ولقد اتصل بالدكتور مانسون منذ سنوات مهنئا اياه بأبحاثه عن الرئتين ، ثم تقابلا بعد ذلك فى صعيد لا يمت الى المهنة بأية صلة ـ حينما قدم السيد ستيلمان الى هنا لاقامة مؤسسته ـ ومن هنا نشأت عند الدكتور مانسون تلك الفكرة التى قد تكون مؤسفة ، فليس مما يدعو الى الدهشة أن يبحث الدكتور مانسون عن مكان يمكنه شخصيا أن يضع فيه مس بولاند تحت العلاج .. ومن هنا فكر فى الافادة من التسهيلات التى تقدمها له مصحة (بيلفى) . وقد وصف صديقى السيد بون مؤسسة (بيلفى) بأنها ((لا يطمأن اليها)) . وفى رأيى انه قد يهم المجلس سماع شهادة فى هذا الصدد . مس بولاند .. من فضلك .))

وحينما نهضت ((مارى)) ، اتجهت اليها أنظار أعضاء المجلس فى تطلع شديد ، على الرغم من أنها كانت متوترة الاعصاب لا تحول عينيها عن هورنر ولا تلقى نظرة واحدة على أندرو ، (فقد كانت تبدو موفورة العافية وفى حالة صحية طبيعية !)

وقال هورنر : ((مس بولاند، قولى لنا بصراحة : هل شكوت من شىء ـ أى شىء ـ مدة اقامتك تحت العلاج فى (بيلفى) ؟))

ـ كلا ، على العكس .

وادرك اندرو على الفور انها قد لقنت الدرس مقدما ، وأفهمت كيف ينبغى أن يكون مسلكها .. فقد اجابت فى غير مغالاة او اندفاع . وعاد هورنر يستجوبها :

ـ أى انك لم تعانى نتائج سيئة ؟

ـ بالعكس ، ان حالتى الآن أفضل .

ـ تريدين القول ان العلاج الذى عولجت به هو نفس العلاج الذى قرره الدكتور مانسون عند ما زرته لاول مرة يوم ... يوم ... يوم ١١ يولية ؟

ـ نعم .

وهنا سأل الرئيس : « أهذا دليل قاطع على ماتقول ؟ »

فقال هورنر فى اعتداد : « يكفينى هذا من الشاهدة يا سيدى » .. وفيما كانت « مارى » تعود الى مقعدها ، بسط يديه نحو منصة هيئة المجلس فى حركة توسل مألوفة منه ، وقال : « الذى أريد اثباته ايها السادة هو ان العلاج الذى بوشر فى (بيلفى) كان فى الواقع علاج الدكتور مانسون ، وقد مارسه آخرون بطريقة قد تكون خاطئة . وانى أقرر انه لم يحدث تعاون بالمعنى المهنى لهذه الكلمة بين ستلمان والدكتور مانسون فى هذا الشأن . »

وهنا نهض أندرو وقد أحس احساسا واضحا بأن كل الانظار تتجه اليه . وكان شاحب الوجه ، مشدود القسمات ، يستشعر فى تجويف معدته فراغا وبرودة . وسمع هورنر يوجه اليه هذا السؤال :

ـ ألم تقبض يا دكتور مانسون أى أجر على هذا التعاون الذى نحن بصدده مع ستيلمان ؟

ـ البتة !

ـ أى أن ما فعلته لم يكن بأى دافع خفى ، أو لغرض يمكن أن تلام عليه ؟

ـ كلا اطلاقا .

ـ ألم تقصد نقد زميلك الدكتور ثوروجود ؟
ـ كلا ، لقد كانت علاقتنا حسنة جدا ، غير اننا اختلفنا فى الرأى بالنسبة لهذه الحالة ، وهذا كل ما فى الامر .

وبادر هورنر الى القول : « حسن جدا . ومن ثم يمكنك بكل اخلاص أن تقرر امام المجلس أنك لم تقصد بأى حال مخالفة التشريع الطبى ، وانه لم يخطر ببالك أن تأتى عملا معيبا بأى صورة من الصور . »

ـ هذه هى الحقيقة تماما .

وابتلع هورنر أنفاسه فى ارتياح وهو يومىء الى أندرو بالانصراف . ذلك انه مع احساسه بضرورة طلب هذه الشهادة كان يخشى اندفاع موكله وهو يدلى بأقواله ، التى انتهت دون ان يحدث مايكدر . وكان يرى بعد هذا انه لو لخص الدعوى بايجاز فلربما كان له أمل ضئيل فى النجاح . وعلى ذلك قال وفى نبراته كل معانى الندم : « لا أريد الاطالة على المجلس . لقد حاولت اثبات أن الدكتور مانسون انما وقع فقط فى خطأ يؤسف له . **وانى اناشد ليس فقط عدالة المجلس بل رأفته أيضا . وأود أخيرا أن الفت انتباه حضراتكم الى جدارة موكلى بالعطف . ان وراءه ماضيا فى خدمة المهنة من حق أى انسان أن يعتز ويفخر به . ونحن جميعا نعرف حالات ارتكب فيها رجال لامعون غلطة واحدة، ولعدم استعمال الرأفة معهم تحطم مستقبلهم** . وآمل ألا يكون هذا هو الشأن فى الدعوى التى ستقضون فيها بعد قليل . انى أطلب منكم هذا بالحاح »

كان لدفاع هورنر ونبراته الوادعة وقع بديع على هيئة المجلس ، غير ان « بون » نهض على الفور وخاطب الرئيس قائلا : « أرجو ان تسمح لى ياسيدى بتوجيه سؤال أو سؤالين للدكتور مانسون » . ثم استدار وأومأ الى أندرو بنظارته داعيا اياه الى النهوض ، وقال : « لم يبد لى جوابك

الاخير يادكتور واضحا تماما . قلت انك لم تكن تعرف ان مسلكك معيب فى كثير أو قليل ، ومع هذا فأنت لا تجهل أن السيد ستيلمان لا يحمل دبلوما طبيا ما ؟ ! »

نظر أندرو الى بون من أسفل . كان الموقف الذى وقفه منه هذا المحامى الشديد التدقيق فى الجزئيات قد جعله يحس طوال الجلسة انه أتى امرا شائنا . على ان ضوءا بدد ظلمة نفسه ، فأجاب بصوت واضح :

ــ أجل ، كنت اعرف انه ليس طبيبا .

واذ ذاك ارتسمت على شفتى بون ابتسامة ارتياح أضاءت وجهه ، وقال بلهجة لاذعة : « .. ومع هذا مضيت فى طريقك .. ! »

فأعاد أندرو بحرارة مفاجئة هذه الكلمة فيما يشبه رجع الصوت ، وأضاف : « كلا ، بل ليس الامر على هذا النحو .. » ثم استطرد يقول بعد ان تنفس ملء رئتيه : « لقد أصغيت اليك يا سيد بون وأنت توجه لى أسئلة كثيرة .. فاسمح لى أن أوجه لك سؤالا : **هل سمعت عن لويس باستور ؟** »

فأجاب بون مندهشا : « نعم ، منذا الذى لا يعرف هذا العالم ! ؟ »

ــ حسن جدا ، أنت تقول منذا الذى لا يعرف هذا الاسم الشهير .. **ولكن الارجح يا سيد بون انك لا تعرف واسمح لى أن أعرفك ــ ان هذا الرجل الذى يعد أعظم اساتذة الطب العلمى ، لم يكن طبيبا !** .. كذلك « ايرليتش » لم يكن طبيبا ، وهو الذى أعطى الطب دواء من اشهر واميز الادوية . وكذلك « هافكين » الذى حارب الطاعون فى الهند بنجاح لم يبلغه أى طبيب من حملة الدبلومات ! .. وكذلك أيضا « متشنيكوف » الذى لا تفرق عبقريته سوى عبقرية باستور .. الخ .. ومعذرة يا سيد بون ان ذكرتك بهذه الحقائق الاولية ، فانها قد تثبت لك ان أى انسان يحارب المرض دون أن يكون مقيدا

فى جدول الاطباء ليس بالضرورة محتالا أو غبيا !

وساد الصمت بغتة . كانت المناقشات قد دارت حتى الآن فى جو من الرسمية الكئيبة والتفاهة الجوفاء ، كما لو كان فى محكمة صغيرة من محاكم الاقاليم . أما الآن فقد اعتدل جميع الاعضاء فى مقاعدهم وأخذ « آبى » بنوع خاص يرمق أندرو بنظرات حادة غير مألوفة . وانقضت برهة قبل أن يشهق هورنر مخفيا وجهه بيده ، شهقة ألم وحزن . انه يحس أن القضية قد ضاعت ! ومع ان بون كان جد مغيظ ، فقد جهد أن يتماسك .. وقال : « نعم ، نعم هناك بعض أسماء لامعة ، نحن نعرف هذا . ولكنك دون شك لا تقارن « ستيلمان » بها ! »

فصاح أندرو فى حدة وقد اشتد غضبه : « **لم لا ؟ .. انهم ليسوا لامعين الا لانهم قد ماتوا !** لقد كان « فيرشو » يسخر من « كوك » فى حياته ، ويسبه .. ونحن الآن لا نشتمه . اننا نهاجم رجالا مثل « سباهلنجر » و « ستيلمان » . وهذا مثل آخر يجب أن نتدبره . **ان سباهلنجر مفكر عظيم وعالم أصيل ، انه ليس طبيبا ولا يحمل اى دبلوم فى الطب ، بيد انه عمل للطب أكثر مما عمل آلاف من حملة الديبلومات ، من أولئك الذين يجوبون الشوارع بالسيارات ويتقاضون ما يطلبون من أتعاب ، فى حين يهاجم سباهلنجر ويحقر ويتهم ويترك ينفق ثروته فى أبحاث وتجارب علاجية ، ثم يناضل بعد ذلك فى تعاسة وشقاء ! »**

فقال بون مستهزئا : « هل نفهم من هذا انك معجب بستيلمان اعجابك بهؤلاء ؟ »

— أجل ، انه رجل عظيم ، رجل كرس حياته كلها لاسداء الخير للبشرية . لقد كان عليه أن يحارب الحسد وعدم التبصر وسوء الفهم ، وتغلب عليها جميعا فى بلاده . أما فى بلادنا فالظاهر انها تستعصى عليه ! على انى مقتنع بأنه كافح السل

كما لم يكافحه أحد يعيش فى انجلترا . انه ليس من أعضاء المهنة ، ليكن ، بيد ان كثيرين ممن ينتمون اليها كافحوا السل طوال حياتهم دون أن يحققوا ذرة من الخير !

وكان لهذا الحديث أثره فى القاعة المرتفعة الفسيحة . وبرقت عينا « مارى بولاند » المركزتان على أندرو ببريق الاعجاب الممتزج بالقلق . وأخذ هورنر – وقد أمضه الالم – يجمع أوراقه فى بطء ويعيدها الى حافظته .. بينما تدخل الرئيس قائلا لاندرو : « هل تعى ماتقول ؟ »

– تماما !



وكان أندرو يضغط بيديه ظهر مقعده ضغطا شديدا ، مدركا انه قد اندفع دون وعى منه فى حماقة ورعونة خطيرة ، وان كان مصرا على التمسك فى قوة بآرائه الى النهاية . كان يلهث فى عصبية شديدة وقد غمرت كيانه جرأة فريدة . ان كان لا بد لهم من شطب اسمه من المهنة ، فليزودهم بالاسباب .. ومن ثم مضى يقول :

– لقد أصغيت الى كل ماقيل اليوم فى شأنى ، ولم أكف عن التساؤل : أى سوء فعلت ؟ .. لا أريد أن أعمل مع مهرجين ، ولست أومن بالادوية التجريبية ، ولهذا لا أفتح نصف النشرات العلمية التى تملأ صندوق خطاباتى مع كل بريد . أعرف انى أتكلم فى شىء من العنف ، غير انى لا أتمالك

نفسى من ذلك . نحن لا نقدس الحرية التقديس الواجب ، واذا نحن ظللنا على عقيدتنا بأن كل شيء على خير ما يكون فى مهنتنا ، وأن لا شيء خارجها ذو قيمـة ، فان هذا سيقتـل التقدم العلمى . سنصبح مجرد شركة صغيرة تحمى تجارتها !
لقد حان الوقت لترتيب البيت، ولست أعنى الترتيب الظاهرى السطحى . بل فلنأخذ الامور من بدايتها . فكروا فى مـدى قصور التعليم الذى يتلقاه طبيب ما . اننى ـ على سبيـل المثال ـ حينما حصلت على دبلومى ، كنت أشكل خطرا عاما. كان كل ما أعرفه أسـماء بعض الامراض وأسـماء الادوية المفروض أن أصفها لشفائها ، بل لم اكن كفئا لاستعمال الاداة التى تستخدمها مولدة ! ان كل ما استطعت معرفته انما عرفته بعد تخرجى ، ولكن كم من الاطباء لا يستزيدون من المعرفة سوى ذلك النزر اليسير الذى يحصلون عليه من ممارسـة المهنة ! ان الوقت يعوز هؤلاء المساكين ، فهم مرهقون بالعمل. هذا هو عيب منظمتنا . يجب أن ننقسم الى جماعات علمية ، وينبغى أن تكون هناك دراسات تواصل بعد التخرج . علينا بذل غاية الجهد ليكون العلم فى المقام الاول ، لانهاء عهد زجاجة الدواء الروتينى ، لاتاحة الوسائل لكل طبيب للدرس وللمساهمة فى الابحاث . **وماذا أقول عن الروح التجارية .. عن أنواع العلاج غير المجدية ـ وان كانت مربحة ! ـ وعن العمليات التى تجرى بدون ضرورة ، وعن سيل الادوية الجاهزة شبه العلمية ، عديمة الفائدة ، التى نستعملها ؟..** ألم يحن الوقت لنبذ بعض هذه العادات ؟ ان الهيئة الطبية برمتها لا تعرف التسـامح ، ولا تريد بحـال التخـلى عن شيء من امتيازاتها ! .. ومن ناحية تشكيلنا فنحن جامدون لا نفكر البتـة فى التقدم ، فى تطوير أسلوبنا . نقول اننا سنفعل بعض الاشياء ولكننا لا نفعـل شيئا . اننا منذ سنين نتأوه ألما للظروف والاحوال التعسـة التى تعمل فيها ممرضاتنا ، وللاجور الضئيلة كل الضآلة التى

نعطيهن اياها . ومع هذا فأنهن ما يزلن يستغللن ، وأجورهن كما هى . وليس هذا سوى مثل واحد من أمثلة كثيرة تقال . والذى أفكر فيه تفكيرا حقيقيا ابعد مدى من هذا . نحن لا نعمل على الاكثار من الباحثين . الدكتور هيكسام الذى مارس التخدير بشجاعة ، كمساعد للمجبر جارفيس ، ذلك الطبيب الذى كان قد شطب اسمه من السجل الرسمى فى مستهل حياته العلمية، وبعد عشرة اعوام ـ عالج وشفى خلالها مئات من المرضى الذين أعيوا أكبر جراحي لندن ، ومنح لقب فارس ، وذاعت عبقريته ـ بعد عشرة أعوام رجعنا على أعقابنا وعيناه طبيبا فخريا !.. وفى ذلك الوقت كان هيكسام قد مات كسير القلب !.. وأنا أعرف انى ارتكبت اخطاء عديدة خطيرة فى معالجة مرضاى، وانى آسف عليها ، **ولكنى لم أخطىء مع « ريتشارد ستيلمان » ولست نادما على ما فعلت معه . كل ما أطلبه منكم هو أن تنظروا الى « مارى بولاند » : لقد كانت مصابة بسل رئوى حينما ذهبت الى ستيلمان ، وقد شفيت . واذا كنتم تنشدون مبررا لمسلكى المشين فهو هنا ماثل أمامكم فى هذه القاعة !**

.. واختتم بذلك كلامه فجأة وجلس . وحول مائدة المجلس اضاء وجه « آبى » بنور فريد ، بينما كان بون مايزال واقفا ينظر الى مانسون بأحاسيس معقدة . ثم فطن فى غل الى انه أعطى هذا الطبيب الدعى قدرا كافيا من الحبال يشنق بها نفسه ، فانحنى امام الرئيس وعاد الى مقعده .

وساد القاعة صمت غريب ، ثم نطق الرئيس بالعبارة المألوفة ، قال : « أرجو ان ينسحب الغرباء جميعا . »

وخرج أندرو مع الآخرين جميعا . انه الآن مهموم ، يحس برأسه يدور ، وجسمه كله يرتعش فى اعياء ، اشبه ما يكون بآلة أرهقت . كان جو قاعة المجلس يخنقه ، ولم يطق وجود هورنر ، وبولاند والشهود الآخرين . انه يخشي على الاخص

عبارات التأنيب الكئيبة التى سيوجهها اليه محاميه . وهو يدرك أنه تصرف كأبله ، كخطيب أحمق تعس . انه يرى الآن أن أمانته كانت محض جنون . أجل ، كان جنونا ان يلقى فى المجلس خطبة على نحو ما فعل ، كما لو لم يكن طبيبا بل خطيبا من خطباء الهواء الطلق فى (هايد بارك) ! .. واخيرا ، بعد لحظة سوف لا يكون طبيبا . سيشطبون اسمه ، لا أقل ولا أكثر !

وذهب الى دورة المياه وليس له سوى رغبة واحدة ، هى أن يخلو الى نفسه . وجلس على حافة أحد المغاسل ، واخرج بحركة آلية سيجارة . غير أن الدخان لم يكن له أى طعم فى فمه الجاف ، فسحق السيجارة بقدمه . أنه لامر محير . منذ لحظات قال فى حق مهنته أشياء كثيرة قاسية حقيقية ، ورغم هذا فكم يكون محزنا طرده منها !.. وفكر فى أنه قد يجد وظيفة عند « ستيلمان » ، بيد أن هذا ليس نوع العمل الذى يصبو اليه . لا ، انه يريد أن يتعاون مع دينى وهوب ، ان يتبع ميله الخاص ، أن يمزق بضربة رمح الغلاف الذى يحوى التبلد والروتينية . غير أن بلوغ هذا الهدف يقتضيه أن يظل داخل نطاق المهنة ، اذ لا يمكن فى انجلترا ، لا يمكن ، لا يمكن ابدا النجاح من خارج نطاق المهنة . والآن سيكون على دينى وهوب أن يصنعا وحدهما حصان طروادة !..

واحس بفيض من المرارة يغمر كيانه ، وامتد امام ناظريه مستقبل مظلم . انه يحس منذ الآن بأكثر الاحاسيس ايلاما له ، وهو الاحساس بطرده ، مضافا اليه الشعور بضياعه وفنائه . انها النهاية !

ونهض على صوت وقع أقدام فى الممشى فلحق بالآخرين ، وقد نال منه الاعياء كل منال ، ودخل قاعة المجلس وهو يحدث نفسه فى صرامة بأنه لم يبق له سوى شىء واحد، هو الا ينزل عن كبريائه . انه يتمنى بكل جوارحه الا تبدو عليه امارة واحدة

من أمارات الضعف أو الخضوع . كان ثابت النظر الى الارض فى اصرار ، لا يرى أحدا ولا يلقى نظرة على المنصة ، بل ظل ساكنا لا يتحرك . ان الضجيج المألوف فى القاعة يعود فيسمع مدويا يصم الآذان من حوله : طقطقة الكراسى فوق الارضية ، السعال ، التهامس .. بل حتى صوت قلم يتحرك على الورق ..

وفجأة ، ساد صمت .. وتصلب أندرو . قال لنفسه : « هذه هى اللحظة الحاسمة ! » .. وتكلم الرئيس فى بطء مؤثر ، قال :

ـ أندرو مانسون .. لقد فحص المجلس بكل عناية الاتهام الموجه اليك ، وأقوال الشهود المؤيدة له ، ويرى المجلس ـ على الرغم من الظروف الخاصة التى أحاطت بالقضية ، ومن أسلوبك الشاذ كل الشذوذ فى ابداء أقوالك ـ أنك تصرفت بحسن نية ، وبرغبة صادقة فى أن تتقيد بروح القانون الذى يتطلب التحلى بأسمى الصفات فى السلوك المهنى . وبناء على ذلك أبلغك أن المجلس لا يرى لزاما عليه تكليف سكرتير الارشيف بشطب اسمك من سجلاتنا !

ذهل أندرو لحظة ، ولم يفهم . وبغتة عرته قشعريرة ! انهم لم يطردوه ! انه طليق ، برىء .. وقد رد اعتباره !

ورفع رأسه مرتعدا نحو منصة المجلس !.. **وميز من بين جميع الوجوه المتقاربة التى تحولت اليه ، وجها واحدا هو وجه « روبرت آبى » ، وقرأ فى عينيه شيئا ضاعف من اضطرابه . فقد أدرك ـ فى ومضة خاطفة كالبرق ـ انه هو الذى انقذه . لم يعد الآن ثمة ما يدعو لاصطناع عدم المبالاة .** وغمغم بصوت خافت ، موجها الكلام الى الرئيس ، (مخاطبا فى الحقيقة آبى) :

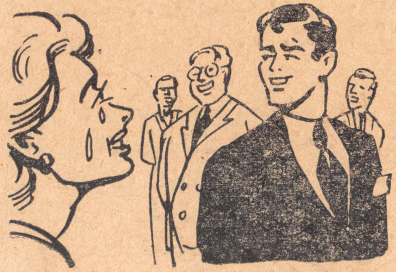
ـ شكرا يا سيدى .

فقال الرئيس : « رفعت الجلسة » .

ونهض أندرو ، وللحال التف حوله اصدقاؤه : كون ومارى ، والسيد هورنر ـ مذهولا ـ وأناس لم يرهم من قبل ، راحوا

يشدون على يده بحرارة . ولم يدر كيف ألفى نفسه فى الشارع و « كون » ماينفك يضربه على كتفيه مغتبطا .

ومن عجب أنه فى غمرة اضطرابه العصبى سكن الى صخب سيارات الاوتوبيس تروح وتجىء ، والى سيل العربات المألوف ، وقد أخذت تعاوده من وقت لآخر فى ابتهاج غامر نشوة الفرح ببراءته التى لا يكاد يصدقها ! وخفض بصره على حين غرة فلمح



مارى ترفع اليه عينيها ، تترقرق فيهما الدموع ما تزال .. ثم قالت :

ـ لو أنهم مسوك بأى سوء بعد كل هذا الذى فعلته معى لقتلت .. أجل لقتلت ذلك الرئيس الطاعن فى السن !

وصاح «كون» وهو لايقوى على ضبط نفسه : « بحق السماء لست أعرف ماذا كان يقلقك يا ابنتى . منذ اللحظة التى اندفع فيها مانسون ، هذا المحنك ، ادركت انه سيفحمهم ! »

وابتسم اندرو ابتسامة شاحبة ، امتزجت فيها الحيرة بالغبطة ، ووصلوا ثلاثتهم الى فندق (الميوزيوم) بعد الواحدة بقليل . وكان دينى ينتظرهم فى الردهة ، فتقدم نحوهم رصينا باسما . كان هورنر قد أبلغه النبأ تليفونيا ، غير انه لم يكن لديه ما يعلق به عليه ، فاقتصر على القول :

ـ انى جائع ، ولا يمكننا تناول طعام هنا ، هيا معى جميعا نتغدى معا .

وذهبوا الى مطعم (كرنوت) دون ان يبدو على وجه دينى اثر لاى انفعال . وبالرغم من انه تحدث مع «كون» فى موضوع السيارات ، فقد احتفى بالحادث السعيد فى ابتهاج . وفى النهاية قال لاندرو :

ــ قطارنا يبرح فى الرابعة ، وهوب ينتظرنا فى فندق ستانبورو . لقد حصلنا على الدار بقيمة معتدلة . لدى جولة أقوم بها وسألتقى بك فى محطة اوستن فى الرابعة الا عشرا .

نظر أندرو الى دينى معتزا بصداقته ، ذاكرا كل ماهو مدين له به منذ اللحظة التى تقابلا فيها فى عيادة (بلينيللى) الصغيرة .. ثم قال اندرو بغتة : « ولو كان اسمى قد شطب ؟ »

فأجاب فيليب ، هازا رأسه : « لكنه لم يشطب ، وسأسهر على ألا يحدث لك هذا بحال ! »

وحينما تركهم دينى ليبتاع ما يلزمه ، صحب اندرو كون ومارى الى قطارهما فى محطة (بادنجتون) ، ودعاهما من جديد للحضور لزيارته فى (ستانبورو) ، فأكد له كون انهما سيذهبان فى الربيع ، فور انتهائه من اصلاح عربته الصغيرة .

وحينما تحرك القطار ، كانت ما تزال امام أندرو ساعة من الزمن ، يملكها وحده . انه يعرف تماما ما يبغيه . وقفز فى احدى السيارات العامة ، وما هى الا لحظات حتى كان فى (كنسال جرين) . **دخل المقبرة وخشع طويلا امام مثوى «كريستين» ، سابحا فى ذكراها ، مستغرقا فى نجواها . وكان الاصيل بهيجا ، والهواء عليلا منعشا ، يتخاله ذلك النسيم اللاذع الذى كانت تعبده !**

وكان فوقه ، على غصن شجرة عارية ، عصفور يزقزق مرحا .. وحينما برح المقبرة أخيرا ، يحث الخطى خشية التأخر ، كانت ترصع السماء الممتدة أمام ناظريه كتلة مضيئة من السحاب ، تخالها زخرفة ناتئة فى قمة جدار قلعة !

(تمت القصة)

١٩٥٩/٧/١١



القلعة



عزيزي القارئ ..

في الجزءين السابقين من هذه القصة الإنسانية الكبرى رأينا كيف شق الطبيب الشاب "أندرو مانسون" طريقه وسط كافة أنواع العراقيل والدسائس والفخاخ التى نصبها له حساده ومنافسوه .. وكيف قاوم عوامل الإغراء التى كانت تزين له الانزلاق إلى طريق النجاح الرخيص السهل ، على حساب الشرف والمبادئ والمثل العليا .. حتى جمعته الظروف بفريق من زملائه الذين "نجحوا" من هذا الطريق ، فنصبوا له الفخ الأكبر كي يسير في ركابهم !

فهل يجرفه التيار ؟

وماذا يكون موقف الزوجة من هذا الصراع الذى يحتدم في أعماق زوجها .. وهذه المحنة التى يتعرض لها ؟.. هل تدفعه إلى الهاوية ، طمعا في المال ، والشهرة ، والمتعة ، والترف ؟.. أم تنقذه من هذا المصير ، بأى ثمن ، وأية تضحية ؟

وما هي المأساة الفاجعة التى ينتهي إليها هذا الصراع ؟

هذا ما تقرأه في فصول هذا الجزء الأخير من القصة الممتعة ، الذى بين يديك .

يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية